الوسيط

في

الأدب العربى وتاريخه

تأليف

الشيخ احمد الاسكندرى و الشيخ مصطفى عنانى

العضوين بالمجمع اللغوى المصرى والمدرسين بمدرسة المعلمين الناصرية

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها :
الثانوية ، والمعلمين السلطانية ، والمعلمين الأولية ، والمعلمات السنية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين

الطبعة الاولى

١٣٣٧ هـ = ١٩١٩ م

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

18|215|7

٣٠٠٣٤٢٦

٤|٦٢|١١

الوسيط

فى

الأدب العربى وتاريخه

تأليف

الشيخ احمد الاسكندرى و الشيخ مصطفى عنانى

العضوين بالمجمع اللغوى المصرى والمدرسين بمدرسة المعلمين الناصرية

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها :
الثانوية ، والمعلمين السلطانية ، والمعلمين الأولية ، والمعلمات السنية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين

الطبعة الاولى

١٣٣٧ هـ = ١٩١٩ م

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمودُ اللهُ جلَّ جلالُهُ، والمصلَّى عليهِ محمدٌ وآلُهُ، والمدعوُّ لهُ الوطنُ ورجالُهُ.

وبعدُ فإنا رأينا النَّشْءَ من طلَّابِ الأدبِ العربيِّ في حاجةٍ الى مُخْتَصَرٍ مُلِمٍّ بفنونه، مُؤَثِّرٍ لعيُونه، مؤرِّخٍ لشئُونه؛ فوضعْنا هذا الكتاب؛ لعلَّنا نُقرِّبُ اليهمُ القَصْدَ، ونُسهِّلُ عليهمُ الصَّعبَ، وعلى اللهِ قَصْدُ السبيلِ!

وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ!

٩ ذى القعدة سنة ١٣٣٥
٦ اغسطس سنة ١٩١٦

مصطفى عنانى
المدرّس بمدرسة المعلمين الناصرية

احمد الاسكندرى
المدرّس بمدرسة المعلمين الناصرية

تاريخ ادب اللغة

التاريخ – هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيثُ معيشتهم، وسياستهم، وأدبهم ولغتهم

والادب – (كل رِياضة[1] محمودةٍ يتخرَّجُ[2] بها الإنسانُ فى فضيلة من الفضائل؛) وهذه الرياضةُ كما تكون بالفعل، وحسنِ النظر، والمحاكاةِ، تكون بالأقوال الحكيمة التى تَضَمَّنَتْها لغةُ أىِّ أُمَّة

واللغة – ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم [3]

(١) الرياضة – التذليل والتمرين والمعالجة

(٢) خرّجته فتخرّج – درّبته فتدرّب، والادب بهذا التعريف نقله المصباح عن أبى زيد

(٣) الثابت الان بشهادة العقل والاستقراء وملاحظة نطق الاطفال والامم المتوحشة والراقية أن لغات العالم على كثرتها التى لم تتناه ولن تتناهى، ترجع الى أمهات أصلية تولدت وتتولد عنها، وأن هذه الامهات يصح أن تكون كل واحدة منها هى المبدأ الاول لفروعها، أو أنها ترجع الى جدة عليا مجهولة هى لغة الانسان الاول، وكيف كانت الحال فمنشأ الأم المنقطعة أو الجدة السابقة حاصل من الكلمات القليلة التى يعبر بها الانسان عن رغائبه القليلة أو عن الاشياء المحيطة به، وبعض هذه الكلمات مقتبس من محاكاة الاصوات التى تصدر عن الانسان والحيوان والرياح وغيرها: كما تفعل الببغاء التى هى دون الانسان فى الادراك، وبعضها مرتجل بطبيعة القوة الناطقة التى أودعها الله فى الانسان وميزه بها على سائر الحيوان، وهى فيه الهام فطرى أعظم من الالهام المودع فى الحيوان الاعجم: فانا نسمع الهرة مثلا تموء ببضعة أصوات مختلفة تظهر بها انفعالاتها ومطالبها: فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزجر والغضب الخ. فعند ما يجيش صدر الانسان باظهار رغبة أو رهبة يصيح بصوت مصوّر بصورة ما على حسب ما يلهمه الله فيسمعه غيره ويفهم منه مراده باضافة قرينة حال أو اشارة (كما نشاهد ذلك كثيراً فى بعض الاطفال عند محاولتها النطق) فاذا وجد أنه أدى غرضه استعمله ثانية وثالثة فى افهام رفقائه، فيذاع بينهم، ويعرف ولا يحتاج فى استعماله الى قرينة، وهكذا يفعل غيره فعله، ويقلدهما ثالث ورابع حتى تتكون اللغة الاولى الضرورية للبيئة التى يعيشون فيها، ويتفق عليها من غير تعمل ولا قصد الى الاتفاق. ثم تتسع هذه اللغة بطرق النموّ المعروفة كالاشتقاق والزيادة والنقص والتحريف والتحويل من الحقيقة الى المجاز فيشتهر المجاز ويصير حقيقة

أدب اللغة

وأدب لغة أى أمة – هو ما أُودِعَ فى شعرها ونثرها من نتائج عقول أبنائها، وصُوَر أخْيِلَتِهم [١] وطباعهم: مما شأنُهُ أن يهذّب النفس، وَيُثقِّف [٢] العقل، وَيُقوِّم اللسان

تاريخ أدب اللغة

وتاريخ أدب اللغة – هو العلم الباحث عن أحوال اللغة: نثرها ونظمها فى عصورها المختلفة، وعما كان لنابغيها من التأثير البيّن فيها . وهو على النظام الآتى بعدُ حديث النشأة فى مصر

اصل العربية

واللغة العربية – إحدى اللغات الساميَّةِ [٣]. وهى لغة أمة العرب القديمة العهْد

هذا، والأظهر أن الانسان نطق أوّلاً بأسماء المحسوسات، ثم بأسماء بعض المعقولات ثم بالمصادر، ثم بالافعال (والمضارع يسبق أخويه)، ثم بأسماء الاشارة والضمائر والموصولات، ثم بالحروف والمشتقات، وأجلى مثال لذلك ملاحظة الاطفال فى ابتداء نطقهم

أما اللغات الفرعية فتنشأ من هجرة بعض طوائف أهل اللسان الاصلى الى جهات متباعدة، فيدفعهم التقاطع الى نسيان بعض الكلمات: لعدم استعمالها فى وطنهم الجديد، أو الى تحريفها على طول الزمان، ثم هم يرون فى هذا الوطن ما لم يروه قبل من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون الى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر، وهكذا فتتباعد اللغة الفرعية عن الاصلية كلما تباعد الزمان والمكان، ويزيد مدى التباعد اذا جاوروا أمماً تتكلم بغير لسانهم الاصلى، فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين فى بقية لغتهم، ثم اذا طال الامد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الانسانية فيهم، اتسعت هذه اللغة وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ اى فرد من علمائها عن أن يحيط بها

فظهر من هذا أن اللغات وضعها البشر من غير سابقة اصطلاح واتفاق، وان قول من يقول انها توقيفية لا يعقل منه الا انها متوقفة على الهام من الله واهب النطق للانسان

أما من يقول انها توقيفية: بمعنى أن الله أوحى بها الى أنبيائه (عليهم صلواته)، وهم علموها الانسان، فماذا يقول فى اللغات التى نشأت وتنشأ بعد الانبياء كلغاتنا العامية ولغات أهل أوربا أم ماذا يقول فى اللسان العام (الاسبرنتو) الذى ارتجله احد علماء أوربا ليكون لسان العالم ويرفع به العصبية الجنسية من الارض، ويستعمله الان كثيرون فى اغراض خاصة

واحتجاجه بقوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها) الاية ليس بقطعى اذ فسرت الاسماء بأسماء الملائكة مثلاً بدليل اعادة ضمير العقلاء عليهم وأن تلك خصوصية لادم فكما خلقه ابتداعا علمه ابتداء، ولو أريد بالاسماء أسماء جميع الموجودات فهل تعلمها بجميع ألسنة أولاده وهى الان الوف مؤلفة ومنها المخترعات ذوات الاسماء المرتجلة هذا ما ظهر لنا والله أعلم

(١) الخيال ما يتراءى لك: من ظل أو شبح أوصورة، والمراد هنا الصورة الباهرة المنتزعة من محسوس متعدد بقصد تمليحها فى النفس أو تشويهها فيها ولو لم تقع فى الخارج

(٢) أى يقوّم ويعدّل

(٣) أى اللغات التى تكلم بها الشعوب المختلفة من أولاد سام بن نوح

الشائعةِ الذكر التى كانت تسكن الجزيرةَ المنسوبةَ اليها فى الطرَف الغربىّ من آسيا وهى أقرَب اللغات الساميَّة الى أصلها: لأن العرب لم تُخَالط غيرها كثيرًا ولم تَدْخل طويلاً تحتَ حكمِ أمّةٍ أعجميّة

امة العرب

وهذه الامة – منها القدماء، وهم الذين كانوا يسكنون تلك الجزيرةَ وينطقون باللغة العربية سليقةً وطبعا

طبقات العرب

وهم ثلاث طبقات – أولاها العرب البائدةُ؛ وهؤلاء لم يصل الينا شىء صحيح من أخبارهم إلَّا ما قصَّهُ الله علينا فى القرآن الكريم، والاَّ ما جاء فى الحديث النبوىّ. ومن أشهر قبائلهم طَسْمٌ، وجَدِيسُ، [١] وعادٌ، [٢] وثمودُ، [٣] وعِمْليقُ [٤]

وثانيتها العرب العاربة – وهم بنو قحطانَ الذين جَلَوْا عن سِقْى [٥] الفُرات، واختاروا اليمنَ منازلَ لهم، وامتزجت لغتُهم بلغة سابقيهم، ثم انتشروا فى أنحاء الجزيرة . ومن أُمهات قبائلهم كَهْلانُ [٦]، وحِمْيَرُ [٧]

وثالثتها العرب المستعربة – وهم بنو اسمٰعيل الطارئون على القحطانيّينَ، والمُتزجون بهم لغةً ونسبًا، والمعروفون بعدُ بالعدْنانيّين – ومن أُمهات قبائلهم ربيعةُ، ومُضَرُ، وإيادُ، وأنمارُ [٨] وبقية القبائل المشهورة وبطونها من الطبقات الثلاث مبينة فى الأشكال الآتية مراعىً فى ترتيبها مرتبة الاشهار لامرتبة البنوة الحقيقية

---

(١) كانتا تسكنان اليمامة أيام ملوك الطوائف من الفرس

(٢) كانت تسكن الاحقاف

(٣) كانت تسكن الحجر المسمى الآن بمدائن صالح

(٤) العمالقة قوم سكن اوائلهم اليمن ثم انحدروا الى مكة ويثرب وارض الشام ومنهم فراعنة الرعاة بمصر

(٥) سقى النهر ما يسقيه من الارض وهو المسمى الان بحوض النهر

(٦) كهلان بن سبأ

(٧) قبيلة تنسب الى حمير بن سبأ، وكانوا يسكنون أول امرهم غربى صنعاء، واكثر قبائل اليمن متفرعة من حمير وكهلان

(٨) هؤلاء هم الشعوب الاربعة الكبرى التى تفرعت منها قبائل العدنانية واكثرهم عدداً مضر، ثم ربيعه، وهم أولاد نزار بن معد بن عدنان

العرب العاربة والبائدة

(اشكال الانساب الثلاثة رسمها حضرة الفاضل محمد ياقوت افندي وكتبها حضرة الفاضل الشيخ احمد بكر)

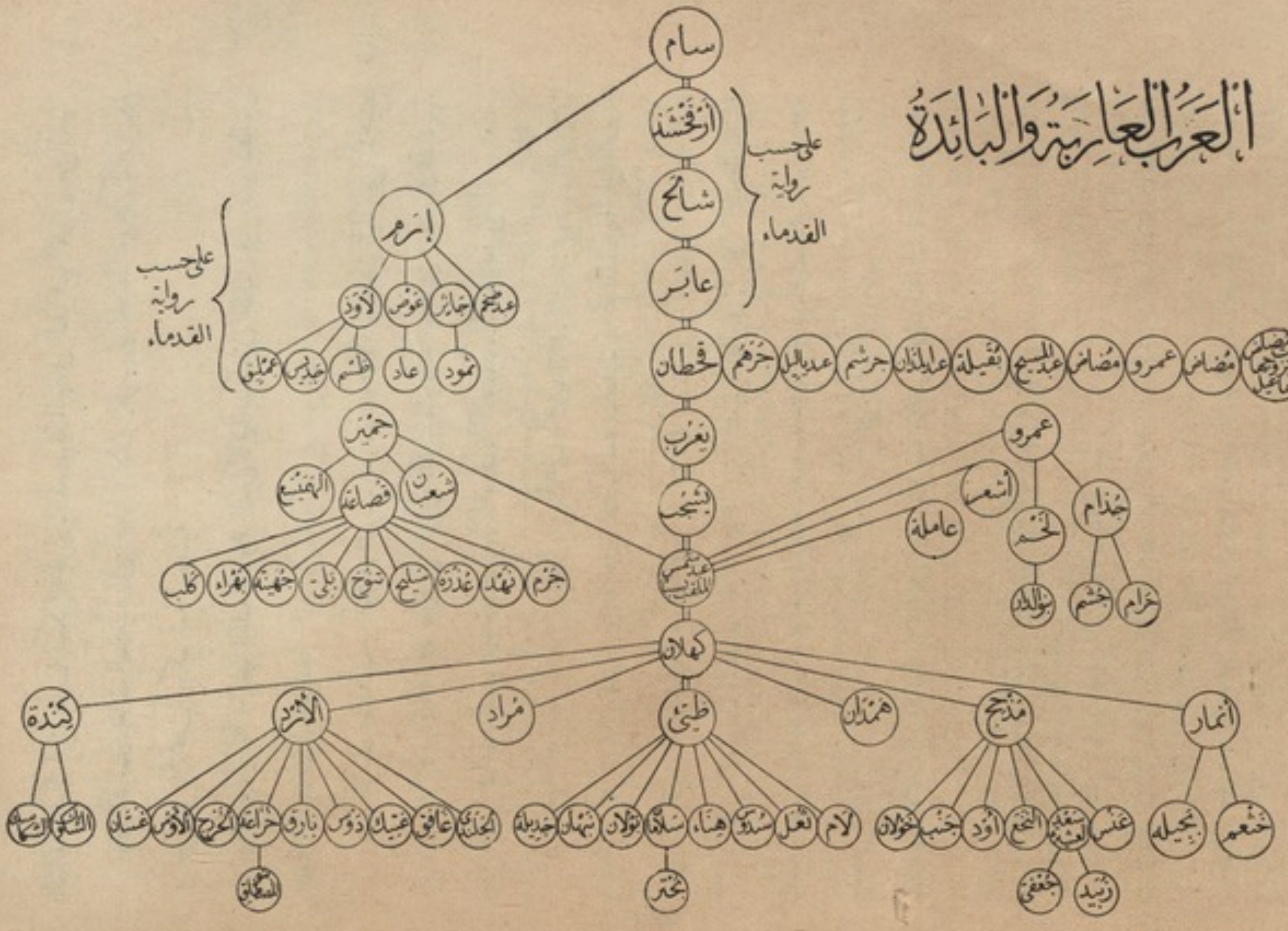

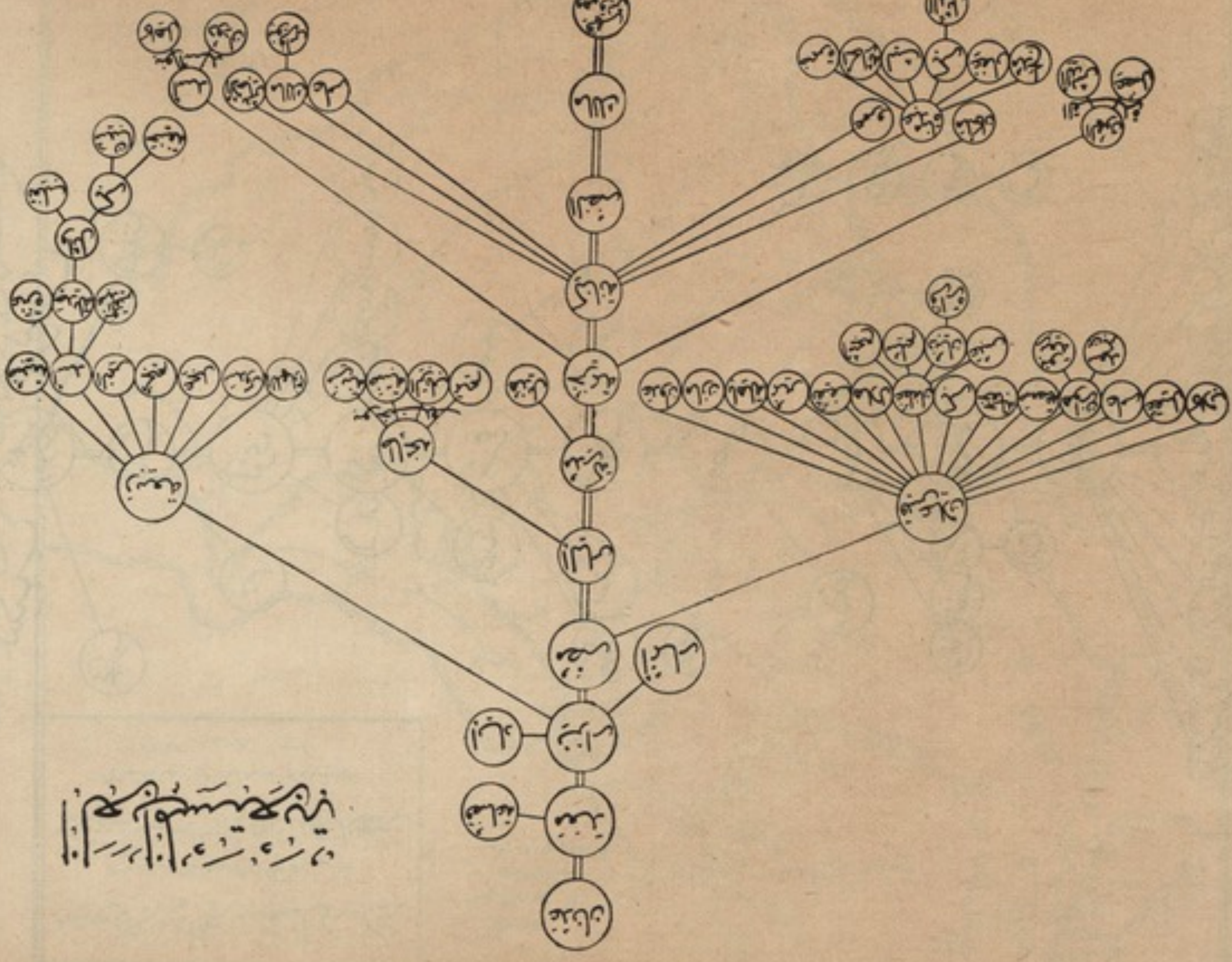

نسب قريش

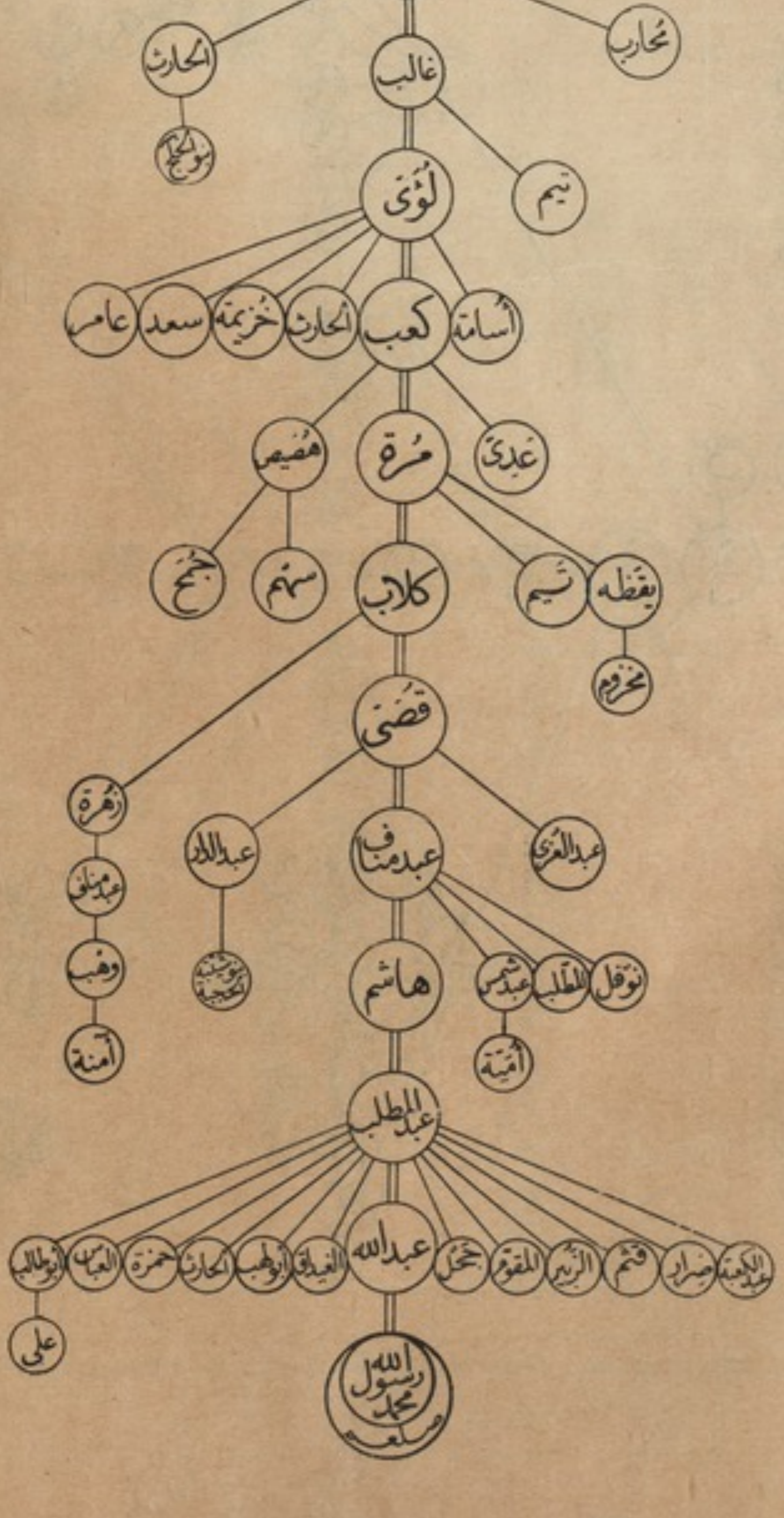
فهر وهو قريش
محارب
الحارث
غالب
بنو الحارث
تيم
لؤى
عامر
سعد
خزيمة
الحارث
كعب
أسامة
هصيص
مرة
عدى
جمح
سهم
كلاب
تيم
يقظة
مخزوم
قصى
زهرة
عبد الدار
عبد مناف
عبد العزى
عبد مناف
وهب
آمنة
هاشم
عبد شمس
المطلب
نوفل
أمية
عبد المطلب
أبو طالب
العباس
حمزة
الحارث
أبو لهب
الغيداق
عبد الله
حجل
المقوم
الزبير
قثم
ضرار
عبد الكعبة
على
رسول الله محمد صلعم

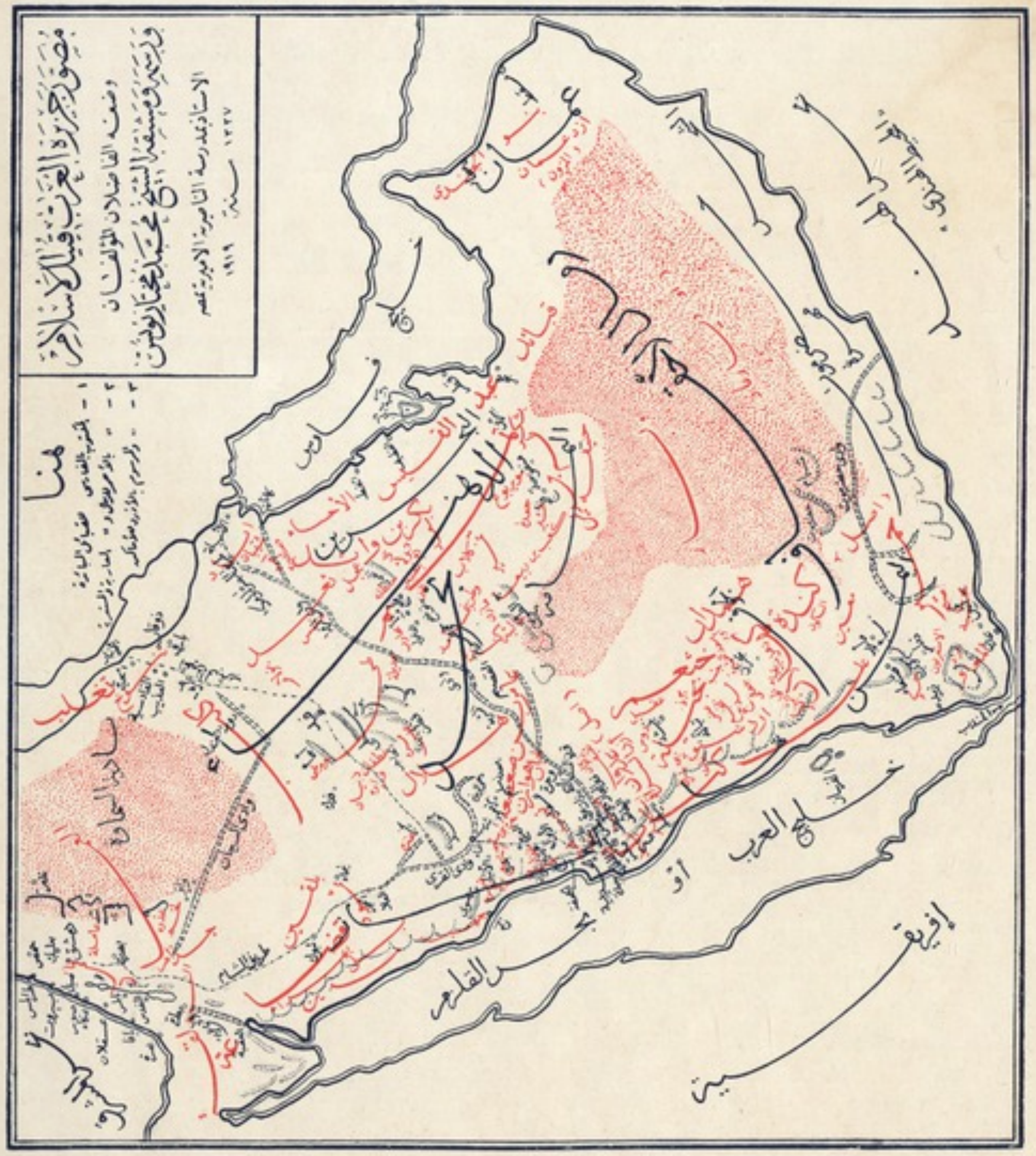
مصور جزيرة العرب قبل الإسلام
وضعه الفاضلان المؤلفان
الاستاذ بمدرسة الناصرية الأميرية بمصر
سنة ١٣٣٧ ١٩١٩
خليج العرب
بحر القلزم
إفريقية

ومنها المحدثون – وهم سلائل[1] هؤلاء الأقوام الممتزجون بسلائل غيرهم، والمنتشرون بعدَ الإسلام فى بقاع الأرض من المحيط الأخضر (الاطلنطى) الى ما وراء بحرِ فارسَ ودِجلَةَ ، ومن أعالى النهرين[2] الى ما وراء جاوه وسومطرة . ويتكلمون بلهجات عامية مختلفة ترجع الى اللغة العربية الفصيحة التى يَتَعَرَّفُونها بالتَّعلُّم

عصور اللغة العربية وآدابها

لما كان تاريخ لغة أى أُمة وأدبها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التى تقع بين ظَهْرَانَىْ[3] هذه الأمة ، ناسبَ أن نقسم تاريخ أدب اللغة العربية خمسة أعصر :

الأوّل – عصر الجاهلية – وينتهى بظهور الاسلام ومدتهُ نحو خمسين ومائة سنة

الثانى – عصر صدر الاسلام، ويشمل بنى أُمية – ويبتدئ بظهور الاسلام، وينتهى بقيام دولة بنى العباس سنة (١٣٢) ه

الثالث – عصر بنى العباس – ويبتدئُ بقيام دولتهم ، وينتهى بسقوط بغداد فى أيدى التتار سنة (٦٥٦) ه

الرابع – عصر الدول التركية – ويبتدئ بسقوط بغداد، وينتهى بمبدإ النهضة الأخيرة سنة (١٢٢٠) ه

الخامس – عصر النهضة الاخيرة – ويبتدئ من حكم الأسرة المحمدية العلوية بمصر، ويمتدُّ الى وقتنا هذا

---

(١) اولاد (٢) دجلة والفرات

(٣) مثنى ظهر ، وزيدت الالف والنون فى الصيغة لزيادة المعنى والتأكيد ، ومعناه ان ظهرا منها قدامها ، وظهرا منها وراءها ، فهى مكنوفة من جانبيها ، ثم استعمل فى معنى الاقامة والحلول بين القوم مثلاً

العصر الاول عصر الجاهلية

حالةُ اللغة وآدابها فى ذلك العصر

وصف اللغة العربية ومزاياها

لغة العرب من أغنى اللغات كَلِماً، وأعرَقها قِدَماً،[١] وأخلدِها أثراً، وأرحَبِها[٢] صدراً، وأدومِها على غِيَر،[٣] الدهر مُحاسَنَةً وصَبراً، وأعذبِها مَنْطِقاً، وأسلَسِها أُسلوباً، وأرْوَعِها[٤] تأثيراً، وأغزرِها مادّة، وأوسعِها لكل ما يقع تحت الحِس، أو يجول فى الخاطر: من تحقيق علوم، وسنّ قوانين، وتصوير خيال، وتعيين مَرافق[٥] وهى على هَنْدَمَةِ[٦] وضعها، وتناسق أجزائها، لغة قوم أميين، لم يكونوا فى حكمة اليونان ولا صنعةِ الصين، بادوا وبقيت بعدهم سائرةً مع كل جيل، ملائمةً لكل زمان ومكان. ولولا رُوحٌ عظيم ما خَلَدَت. ودَرَجَ[٧] أقرانُها، وأنِفَت[٨] واستخذى[٩] سلطانُها[١٠]. ولا عَجَب أن بلغت تلك المنزلة: من بَسْطة الثروة، وسعة المدى[١١]، اذ كان لها

عوامل نمو اللغة

من عوامل النموّ، ودواعى البقاء والرقىّ، ما قلما يتهيّأ لغيرها؛ وذلك لما فيهـا من اختلاف طرق الوضع والدلالة، واطّراد التصريف والاشتقاق، وتنوُّع المجاز والكناية وتعدُّد المترادف، الى النحت، والقلب، والابدال، والتعريب، ونحو ذلك

توحد اللغة العربية المروية

وما رواه لنا منها أئمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النبوىّ هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التى سكنت جزيرةَ العرب. ولا يُعلَم بالضبط الوقت الذى تَمَثَّلَت فيه بصورتها المعروفة لنا، ولا كلُّ الأسباب التى أدّت الى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب فى بعض. وغاية ما عُلم من الآثار الحجرية أنه كان جنوبىُّ الجزيرة وشماليها لغاتٌ متميزة كل التميز عن العربية التى رُوِيت لنا، دَرَسَت وبقيت منها أشباحٌ[١٢] تتراءى أحياناً فى بعض لهجات العربية الأخيرة وأوجه أعرابها واشتقاقها

(١) آصلها (٢) أوسعها (٣) حوادث (٤) اشدّها اعجاباً وهزة فى النفس
(٥) جمع مرفق كمنبر وهو كل ما ارتفقت به أى انتفعت (٦) الهندمة اصلاح الشىء على مقدار خاص ونظام بيِّن (٧) انقرض (٨) استكبرت (٩) خضع (١٠) السلطان الغلبة والقهر والمراد سلطان أهلها (١١) الغاية أو مد البصر (١٢) جمع شبح وهو سواد الانسان وغيره تراه من بعد

وترادف ألفاظها، كما أنه لا شك فى أن من أسباب امتزاج هذه اللغات ما يأتى

مراتب تهذيب اللغة

(١) هجرةُ القحطانيين الى جزيرة العرب ومخالطتُهم فيها العرب البائدة باليمن، ثم تمزقُهم فى بقاع الجزيرة كلَّ مُمزَّق بظلمهم أنفسَهم وتخرُّب بلادهم بسيل العَرِم[١]

(٢) هجرةُ اسمٰعيل عليه السلام الى جزيرة العرب واختلاطه وبنيه بالقحطانيين بالمصاهرة، والمجاورة فى المنازل والمرابع[٢]، والمحاربة، والمتاجرة. وأظهر مواطن هذا الامتزاج مشاعرُ[٣] الحجّ، وخاصةً بيتَ الله الحرامَ بمكة بَلَدِ قريشٍ[٤] الأمين، والأسواقُ التى كانت تقيمها العربُ فى أنحاء بلادها؛ ومن هذه الأسواق: عُكاظُ[٥] ومَجَنَّةُ[٦]، وذو المَجاز[٧]

سوق عكاظ

وأهمها سوق عكاظ – وكانت تقام من أوّل ذى القَعدة الى اليوم العشرين منه. وأقيمت تلك السوق بعد عام الفيل[٨] بخمسَ عشرةَ سنةً، وبقيت الى ما بعد الاسلام وان لم تكن فى شأنها الأول حتى سنة تسع وعشرين ومائة؛ وكان يجتمع بهذه السوق أكثرُ أشراف العرب للمتاجرة، ومُفاداة الأسرى، والتحكيم فى الخصومات وللمفاخرة[٩] والمنافَرة[١٠] بالشعر والخطب فى الحسب والنسب والكرم والفصاحة

(١) العرم جمع عرمة كفرحة وهى سدٌّ يعترض به الوادى، أو هو جمع بلا واحد، أو هو الاحباس والسدود تبنى فى الوادى لحبس المياه خلفها وهى المسماة الآن بالخزانات. وحادثة سيل العرم أنه كان لسبأ فى اليمن عرم تحبس المياه خلفها لتوزع بنظام فتهدمت العرم بسيل عظيم أغرق البلاد ودمر القرى أمامه فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الاهلية سبباً فى تفرق قبائل سبأ فى أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل فى التفرق (فقيل تفرقوا أيدى سبأ) (٢) جمع مربع وهو فى الاصل المكان الخصيب يقيم فيه القوم زمن الربيع (٣) معالم الحج وأماكن نسكه (٤) قبيلة النبي صلى الله عليه وسلم، وهى بطن من كنانة من المضرية (٥) موضع قرب الطائف
(٦) موضع قرب مكة (٧) سوق على فرسخ من عرفة بناحية كبكب، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الامام اذا وقف (٨) عام الفيل هو العام الذى ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام وهو سنة ٥٧١ من الميلاد — وملخص حادثة الفيل أن الحبشة طمعت فى الاستيلاء على مكة وقهر قريش وهدم الكعبة فتجرد لذلك احد ملوكهم المسمى أبرهة بجيش ومعه فيل عظيم فأرسل الله عليهم طيراً ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول (٩) المفاخرة المحاكمة فى الحسب، والحسب ما تعدّه من مفاخر آبائك (١٠) المنافرة أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يحكما بينهما رجلا، وسميت منافرة لان المتنافرين كانا يسألان الحكم اينا اعز نفراً

والجمال والشجاعة وما شاكل ذلك حتى فى عظِمَ المصائب والارزاء[١]. وكان من أشهر المحكمين بها فى الشعر النابغة الذُّبيَانى، ومن أشهر خطبائها قُسّ بن ساعدةَ الإيادى، وقد لَهِج الشعراء بذكرها فى شعرهم، وحضرها منهم الرجال والنساء.

آثار قريش فى اللغة

ولقريش عظيم الأثر فيما نجمَ عن اجتماع العرب فى مشاعر الحج والأسواق بتهذيب لغتهم أنفسهم: لأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم ما خف على اللسان وحسُن فى السمع، حتى اتسعت لغتُهم، وجادت أساليبهم، ولمكانهم من الفصاحة والرياسة فى الحج وعُكاظَ حاكاهم شعراء القبائل وخطباؤها فى استعمال لغتهم: ليكون مقالُهم أسيرَ، وخبرُهم أشهرَ. وما نشأ عن الهجرتين السابقتين وغيرهما من تداخل اللغات واندماج بعضها فى بعض حتى تكونت اللغة الفصيحة هو ما يسمى طورَ تكوين اللغة وتهذيبها

اختلاف لهجات[٢] العرب

قدّمنا أن الأمة العربية تألفت أخيراً من شعبين[٣] عظيمين: القحطانيين أو (اليمانيين) والعدنانيين أو (النزاريين). وتشعَّب من كليهما شعوب وقبائل لها لهجات مختلفةُ الفروع متحدة الأصول، غير أن لغة حمير من القحطانيين غلبت على أخواتها[٤]. ثم دخل فيها من اللغة العدنانية ألفاظ وأساليب اختلفت قلةً وكثرةً باختلاف الجهات، وعمَّرت حتى ظهور الاسلام، وزالت بعده وبقيت منها ألفاظ امتزجت بالعدنانية

---

(١) وتسمى المفاخرة بذلك (المعاظمة) ومنها معاظمة هند بنت عتبة ام معاوية حين قتل ابوها واخواها وغيرهم بوقعة بدر مع الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمى المصابة بموت ابيها واخويها صخر ومعاوية، فقرنت هند جملها بجمل الخنساء، وتعاظمتا فى مصائبهما نثراً ونظماً بسوق عكاظ

(٢) لهجة القبيلة لسانها مراعى فيه الترقيق والتفخيم، والتتميم والترخيم، والهمز والتليين، والسرعة والبطء، والوصل والقطع، والامالة وعدمها، وما الى ذلك من النبرات الصوتية

(٣) الشعب بالفتح القبيلة العظيمة (٤) كالمعينية والسبئية

ولغة عدنان الممثَّلة بعدُ فى المُضَرية غلبت أيضاً على اخواتها بل على الحِمْيَرية فى موطنها. ولكنا لا ننسى أن البيئة، ونزوح الديار، ووسائل المعيشة، واختلاف طرق الوضع والارتجال، كل ذلك قد أبقى فى كلام كل قبيلة مِيزات هى ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة أو لغتها؛ وتكاد تنحصر طرق الاختلاف فيما يأتى:

اسباب اختلاف اللهجات

طرق اختلافها

الابدال[١]، وأوجه الأعراب[٢] وأوجه البناء والبنية[٣]، والتردد[٤] بين الإعراب والبناء، والتصحيح[٥] والاعلال وما يشبههما، والاتمام[٦] والنقص، والادغام[٧] والفك والترادف[٨]

اللهجات المشهورة

ولكل لهجة من لهجات العرب عدا القرشية هنَة أو اكثر، واشتهر من هذه الهنَوات عَجْعَجَةُ[٩] قضاعة، وغمغمتها[١٠] وشَنْشَنة[١١] اليمن، وَوَتْمُهم[١٢] وطُمْطُمانية[١٣]

---

(١) مثل ابدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن فيقولون با اسمك فى ما اسمك، ومكر فى بكر

(٢) كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقا ورفعه عند تميم اذا اقترن بالا حملا لها على ما مثل ليس الطيب الا المسك

(٣) كنسكين شين عشرة عند الحجازيين وفتحها وكسرها عند تميم وكبناء الهاء من ايها على الضم عند بنى مالك من بنى اسد فيقولون يا أيه الناس، وبنائها على الفتح ووصلها بألف عند غيرهم مثل يأيها الناس

(٤) كاعراب لدن عند قيس بن ثعلبة وبنائها عند غيرهم

(٥) كاعلال الافعال الثلاثية التى من باب علم كرضى وبقى عند تميم بقلب يائها ألفاً وكسرتها فتحة فيقولون رضى وبقى وغيرهم يصححها، وكقلب الالف المتطرفة همزة عند تميم مثل العلاً فى العلى وغيرهم يبقيها على حالها

(٦) كحذف نون من الجارة عند خثعم وزبيد اذا وليها ساكن وابقائها عند غيرهم فيقولون فى خرجت من البيت خرجت مليت كلغة العامة فى مصر

(٧) مثل فك المثلين فى المضارع المجزوم بالسكون المضعف وامره عند الحجازيين مثل ان يغضض طرفه فاغضض طرفك، وادغامهما عند تميم، مثل ان يغض طرفه فغض طرفك

(٨) وهذا النوع كثير فى اللغة المروية لانها جمعت من لغات قبائل شتى وذلك كالمدية عند اليمانين والسكين عند الحجازيين

(٩) وهى تحويل الياء جيما اذا وقعت بعد العين فيقولون الراعج خرج معج يريدون الراعى خرج معى، وقد تبدل كذلك بدون شرط تقدم العين فيقال فقيمج فى فقيمى ومرّج فى مرّى

(١٠) وهى عدم تميز حروف الكلمات وظهورها اثناء الكلام

(١١) وهى جعل الكاف شينا مطلقا كلبيش، وشلمنى فى لبيك، وكلمنى

(١٢) وهو جعل السين تاء فيقولون النات فى الناس

(١٣) وهى جعل ام بدل ال فيقولون طاب امهواء، فى طاب الهواء

حمير، وتَلْتَلَة بهراء (١) وفَحْفَحة (٢) هُذيل، وعَنْعَنَة (٣) تميم أو قيس، وكَشْكَشَة (٤) أسد أو ربيعة، ووكْم كلب (٥) ووهم (٦) ولَخْلَخانية (٧) الشِّحر، وقُطْعة (٨) طيء واستنطاء سعد بن بكر (٩) وهذيل والأزد وقيس والأنصار

كلام العرب

الغرض من كلام العرب كغيره الإبانة عما فى النفس من الأفكار، ليكون مَدْعاة الى المعاونة والمعاضدة، وذريعة الى تسهيل أعمال الحياة

ولما كانت هذه الأفكارُ لا تزال متجددةً غيرَ متناهية ، كانت صور الكلام المبيّن عنها لا تزال كذلك متجددةً خاضعــةً لقُوى الاختراع والابتداع ، وأنواع الانشاء والتأليف ، على حسب ما يقتضيه المقام . فقد تصل صورة الكلام الى الغاية القُصوى فى البلاغة ، من حيثُ إيجازُ اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن البيان ولطف الاشارة ، وصحة الحكم ، وصدق التجربة، فترتاح النفوس لها وتنشَط لحفظها، ليسير متونها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تورث ما تَتَخَلَّلُهُ من الكلام رواجاً، وتكسبه قبولاً ، وهذا ما يسمى (بالمثل أو الحكمة). وقد تنحط صورة العبارة الى الدرْك

المثل والحكمة

(١) وهى كسر احرف المضارعة مطلقا وهم بطن من قضاعة
(٢) وهى جعل الحاء عينا مثل العسن اخو العسين فى الحسن اخو الحسين
(٣) وهى ابدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون في ان عن وفى امان عمان
(٤) وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث كمليش فى عليك . او هى زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش فى عليك ، واشهر ما يكون ذلك فى الوقف
(٥) وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع اذا كان قبلها ياء او كسرة فيقولون عليكم وبكم، وكلب بطن من ربيعة
(٦) وهو كسر هاء الغائب اذا وليها ميم الجمع وان لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون منهم وعنهم وبينهم
(٧) كقولهم مشا الله فى ما شاء الله
(٨) وهى حذف آخر الكلمة فيقولون (يأبا الحكا) يريدون يأبا الحكم كما فى لغة بنى سويف الان وشمالى مديريتى الغربية والبحيرة
(٩) وهو جعل العين الساكنة نونا اذا جاورت الطاء مثل أنطي فى أعطى

الأسفل من الإبانة، بحيث لو انحطت عن ذلك لكانت عند الأدباء بأصوات العجماوات أشبهَ . و بين الحالين مراتب تتفاضل فيها العقول، وتَتَبارى (١) الفحول

وجُلُّ بحث علم الأدب وتاريخه فى التفاوت بين هذه المراتب ورجالها، وسنتكلم بعدُ فيهـا

تعريف المثل والحكمة

ونشير هنا الى أن المثل : قول محكيٌّ سائر يشبَّه به حال الذى حُكى فيه بحال الذى قيل لأجله من قبل . والحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مُسلَّماً . وكلا يكون كل منهما نثراً يكون نظماً : فمن أمثال الجاهلية النثرية

طائفة من الامثال

إن البُغَاثَ (٢) بأرضنا يَسْتَنْسِرُ – اذا عزَّ أخوك فهُن (٣) – رُبَّ رميةٍ من غير رام (٤) – أنتَ تَئِقٌ ، وأنا مَئِقٌ ، فمتى نتفق (٥)

ومن امثالهم النظمية

تمتَّعْ من شميم عَرَارِ نَجْد ... فما بعد العشيةِ من عَرارِ (٦)
لا تقطعنْ ذَنَب الأفعى وتُرسلها ... ان كنت شهماً فأتبعْ رأسها الذَّنَبا (٧)
كلُّ الطعـام تشتهى ربيعه ... الخُرْس والإعذار والنَّقيعه (٨)
ان بَنِيَّ صِبْيَــة صيفيُّون ... أفلحَ من كان له رِبْعيّون (٩)

(١) تتعارض وتتسابق (٢) البغاث مثلث الباء طير أغبر ضعيف ، يستنسر يصير كالنسر فى القوة ، يضرب للضعيف يصير قويا، وللذليل يعز بعد الذل (٣) قائله هذيل بن هبيرة التغلبي ومعناه كما قال ابو عبيد : مياسرتك صديقك ليس بضيم يركبك منه ، فتدخلك الحمية به ، انما هو حسن خلق وتفضل، فاذا عاسرك فياسره . يضرب فى التساهل مع ذوى القربى والاصدقاء (٤) اى رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه ان يخطئ، وأول من قال ذلك الحكم بن يغوث المنقرى . يضرب للمخطئ يصيب احيانا (٥) التئق السريع الى الشر ، والمئق السريع الى البكاء، يضرب للمختلفين اخلاقا (٦) قائله الصمة بن عبد الله القشيرى، ويضرب فى التمتع من الزائل، والعرار نبت طيب الرائحة وهو النرجس البرى (٧) قائله ابو أذينة اللخمى يحرض الاسود بن المنذر على قتل اسراه من ملوك غسان ، وان لا يقبل منهم فدية، يضرب فى التحريض على استئصال شأفة الشر (٨) الخرس طعام الولادة ، والاعذار طعام الختان ، والنقيعة طعام القادم من سفر ، وطعام الرجل ليلة العرس ، يضرب لمن يعرف بالرغبة فى كل شيء (٩) قاله سعد بن مالك بن ضبيعة – ويضرب فى التندم على ما فات وذلك انه ولد له على كبر سنه . والصيفى المولود فى الصيف اى فى آخر النتاج ، والربعى المولود فى الربيع اى اول النتاج

تقسيم الامثال وتسمى الأمثال حقيقية ان كان لها أصل معروف نُقلت عنه وسيقت له كالأمثال السابقة وفَرضية ان كانت تُمثَّل على لسان حيوان او نبات او جماد . مثل «فى بيته يؤتى الحكَم» وكيف أعاودك وهذا أثر فأسك ، والأول محكى على لسان الأرنب والثانى على لسان الحية، وتكثر الفرضية فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد والتضييق على الهداة والمرشدين ، فيُضطَرون اليها للوصول الى أغراضهم ، مع الأمن على حياتهم ، على ما فيها من ترويح الخاطر ، ولطف المدخَل ، وجمال الفُكاهة المَطوية فى تضاعيفها النصيحةُ ؛ وذلك أعمل فى النفس ، وأدعى الى الاتعاظ

اثر الامثال والأمثال مِرآة تُريك أحوال الأمم وقد مضت ، وتَقِفُك على أخلاقها وقد انقضت ، وهى ميزان يوزن به رُقىّ الأمم وانحطاطها ، وسعادتها وشقاؤها ، وأدبها ولغتها . ولقد اكثر العرب منها فلم يتركوا بابا الآ ولَجوه ، ولا طريقًا الآ سلكوه ؛ وقد أفردها العلماء بالتأليف . وأقدم الأمثال (على ما نعلم) أمثال لقمان الحكيم [1]

طائفة من الحكم ومن الحكم النثرية : مَصارع الرجال تحت بُروق الطمع – من سَلَك الجَدَد [2] أَمِن العِثار [3] . خيرُ الموت تحت ظلال السيوف . كَلْم [4] اللسان أنكى [5] من كَلْم السنان . العتاب قبل العقاب . خير الغنى القناعة . قطيعة الرحم تورث الهم

ومن الحكم النظمية

اذا المرء لم يَدْنَس من اللؤم عِرضه ... فكلُّ رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يَخْزُن عليه لسانَه ... فليس على شىء سواه بخزّان

ولستَ بمُستَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أىُّ الرجال المهذَّبُ [6]

ومن لم يَذُد عن حوضه بسلاحه ... يُهدَّم ومن لا يَظلِم الناسَ يُظلَم

---

(١) هو لقمان بن عاد احد حكماء العرب

(٢) ما استوى من الارض (٣) مصدر عثر بمعنى زل وسقط (٤) جرح

(٥) اشد ايلاما (٦) الشعث انتشار الامر وخلله : أى ولست مستبقياً محبة صديق لا تحتمله على ما فيه من زلل، بل ينبغى لك أن تلمه وتصلحه وتجمع ما تشتت من أمره اذ لا يوجد رجل خال من العيوب

وكلام العرب بمراتبه : العليا والدنيا وما بينهما تعتَوِرهُ كغيره أحوال تتغير بتغيُّر حياة أهله: العقلية والمعاشية والدينية ؛ وتلك الأحوالُ تمثَّل فى (أغراض اللغة، ومعانيها، وعباراتها) . وهى فى اللغة الواصلة الينا المروية عن العرب أخرياتِ جاهليتهم وبعدَ تَضعضُع مدنيتهم القديمة يمكن الاشارة اليها بما يأتى :

أغراض اللغة [1] فى الجاهلية

(١) كانت اللغة تستعمل فى أغراض المعيشة البدوية ، ووصف مرافقها : من حِل وترحال ، وانتجاع كلأ ، واستدرار غيث ، واستنتاج حيوان

(٢) وفى اثارة المنازعات والمشاحنات ، وما يتبعها: من الحض على ادراك الثار ، والتفاخر بالانتصار ، والتباهى بكرم الأصل والنِّجار

(٣) شرح حال المشاهدات ، والكيفيات ، والإخبار عن الوقائع ، والقصص، وغير ذلك مما يبين حقيقةً : حسية أو عقلية ، أو شعوراً بلذة أو ألم ، أو يفيد تقبيحاً أو تحسيناً أو مدحاً أو ذماً أو نحو ذلك

معانى اللغة فى الجاهلية

تُجمَل معانى اللغة فى الأمرين الآتيين :

(١) قَصْر معانى المفردات على ما تقتضيه البَداوةُ والفطرة الغضة الخالية من تكلف أهل الحضر وتأنُّقهم

(٢) انحصار أحكامهم فى (الخبر) ومطالبهم فى (الانشاء) إما فى التعقُّل المُستَنبَط من الحس والمشاهدة أو الطبيعة أو التجربة أو الوِجدان، من غير مبالغة ولا إغراق، وإما فى التخيُّل المنتزَعةِ صورُه من المحسوسات بحيث لا تخرج عن الإمكان العقلى والعادىّ

---

(١) أغراض اللغة مقاصدها التى تؤديها وتستعمل فيها

عبارة اللغة في الجاهلية

تُلَخَّص أحوالُ العبارة فى الجاهلية فيما يأتى :

(١) استعمال الألفاظ فى معانيها الوضعية ، أو معانٍ مناسبة للمعنى الأصلىّ ، بطريق المجاز الذى قد يُصبح بعد قليل وضعًا جديداً ؛ ولذلك يظهر لنا عند تلاوة الشعر العربىّ القديم أن المجاز فيه أقلُّ مما هو فى كلامنا ، وأنه قريب من الحقيقة لشدّة علاقته بالمعنى الأصلى

المترادف (٢) كثرة استعمال المترادِف ؛ والحقُّ أن لأ كثر الألفاظ المترادفة معنى خاصاً لا يؤدّيه الآخر بالدقة ، وان تُنُوسى بعض هذه الخصائص ؛ وبعضُ المترادف آت من اختلاف لغات القبائل الفصيحة التى جُمِعت لغاتها وتكوّن منها اللسانُ العربىّ المروىُّ لنا المحفوظ فى كتب اللغة

المعرب (٣) قلة الأعجمىّ المعبّر عنه بالمُعرَّب ؛ على أنه لم يقم الى الآنَ دليل قطعىّ على أن كل الألفاظ المُشتركة بين لغة العرب ولغات الأعاجم نقلها العرب عن غيرهم ، حتى نحكم بأنها أعجمية

(٤) ارسال الأساليب الكلامية على حَسَب ما تقتضيه البلاغة بدون تكلف وبدون مراعاة لما تستلزمه الصناعةُ البديعية

(٥) خلو الكلام العربى من اللحن ؛ لأن الحق أن العربى لايلحن فى لغته

(٦) غلبة الايجاز على كلامهم كما ترى ذلك واضحاً فى شعرهم ونثرهم

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب قسمين : نثراً ونظمًا ؛ فالنظمُ هو الموزون المُقفَّى ؛ والنثرُ ما ليس مرتبطًا بوزن ولا قافية

النثر

المحادثة — الخَطَابة — الكتابة

انحصاره فى اقسامه الثلاثة — الأصل فى الكلام أن يكون منثوراً : لإبانته مقاصدَ النفس بوجه أوضح ، وكُلفة أقلّ ؛ وهو إما حديثٌ يدور بين بعض الناس وبعض فى اصلاح شئون المعيشة ، واجتلاب ضروب المصالح والمنافع وذلك ما يسمَّى (المحادثة) أو (لغة التخاطب) ؛ وإما خطاب من فصيح نابِه الشأن يُلقيه على جماعة فى أمر ذى بال ؛ وهذا ما يسمَّى (الخطابة) ؛ وإما كلامٌ نفسىّ مدلول عليه بحروف ونقوش لإرادة عدم التلفظ به ، أو لحفظه للخَلَف ، أو لبعد الشُّقَّة بين المتخاطبين ، وذلك ما يسمى (الكتابة) . إذَنْ فأقسام النثر ثلاثة : محادثة ، وخطابة ، وكتابة . وكلها إما أن تكون كلامًا خاليًا من

المرسل — التزام التقفية فى أواخر عباراته ، وذلك ما يسمى (النثر المُرْسَل) ، وإما أن تكون قطعًا ملتزَمًا فى آخر كل فقرتين منهـا أو أكثرَ قافيةٌ واحدة ، وهذا ما يسمى

السجع — (السَّجعَ) وهو نوع من الحلية اللفظية اذا جاء عفواً ولم يُتَعَمَّد التزامُه ؛ ولحسن وقعه فى الأسماع ، وحَوْكه[1] فى الطباع ، كان أكثرَ ما يستعمل فى الخطابةِ ، والأمثالِ ، والحِكَم ، والمفاخراتِ ، والمنافرات ، وتخرُّصات الكُهَّان ، والكتابة التى من هذا

مثال للمرسل — الوجه . ومن أمثلة النثر المرسل ماقاله أبو جُبَيْل قَيْسُ بنُ خُفاف البُرْجُمِىُّ لحاتم فى دماء[2] حَمَلها : انى حَمَلت دماء عوّلت فيها على مالى وآمالى ، فأما مالى فقدَّمتُه ، وكنتَ أكبرَ آمالى ، فان تَحَمَّلْتَها فكم من حق قَضَيْتَ وهمٍّ كَفَيْتَ ، وان حال دون ذلك حائل ، لم اذُمَّ يومك ، ولم أَيْأَسْ من غَدِك

---

(١) حوكه تأثيره وأخذه (٢) جمع دم والدم هنا هو الدية

امثلة للسجع

ومن سجع الكهان قول سَطِيح [1] بن مازن فى تعبير رؤيا مالك بن نصر اللَّخْمىّ أحد ملوك اليمن :

أحلفُ بما بين الحرَّتَيْن [2] من حَنَش، ليهبِطَنَّ أرضَكم الحبش ، وليملِكُنَّ ما بين أَبْيَن [3] الى جُرَش [4]

وقولُ شِقّ أنمار [5] فى تعبير تلك الرؤيا :

أحلف بما بين الحرّتين من انسان ، لينْزِلَنَّ أرضَكم السُّودان ، وليَغْلِبُنَّ على كل طَفْلةِ [6] البَنان ، وليَمْلِكُنَّ الى مابين أَبْيَن ونَجْران [7]

ومن السجع فى غير الكهانة، قول لبيد [8] يصف بَقْلة [9] تُدْعَى التَّرِبَة هذه التَّربةُ التى لا تُذْكى [10] ناراً، ولا تُؤهل [11] دارا، ولا تسُرجارا ، عُودُها ضئيل، وفَرْعها كليل [12]، وخيرها قليل، بلدُها شاسع [13] ونبتها خاشع [14]، وآكلها جائع، والمُقيم عليها ضائع، أقصر البقول فرعاً، وأخْبَثُها مرْعى، وأشدّها قلعاً، فتَعْساً [15] لها وجَدْعاً [16]

المحادثة أو لغة التخاطب

لغة التخاطب عند عرب الجاهلية بعد أن تَوَحَّدت [17] لغاتُها هى اللغةُ المُعرَبة المستعملةُ فى شعرِها وخطبها وكتابتها ؛ ولا فرق بينها فى البلاغة الاّ بقدر ما تستدعيه حال الخطابة والشعر والكتابة : من نبالة الموضوع والتأنق فى العبارة

خلوها من اللحن

واكثرُ ما وصل الينا منها ما كان شريف المعنى، فصيح اللفظ . وما زعمه بعض

(١) اسمه ربيعة بن عدى ، مات فى أيام أنو شروان بعد مولده صلى الله عليه وسلم
(٢) الحرة كل ارض ذات حجارة سود نخرة (٣) مخلاف منه مدينة عدن المشهورة
(٤) مخلاف باليمن من جهة مكة (٥) كاهن كان فى زمن كسرى أنو شروان
(٦) ناعمة (٧) مخلاف شمالى اليمن (٨) شاعر ستأتى ترجمته (٩) البقل ما نبت فى بزره لا فى ارومة ثابتة والبقلة واحدته (١٠) أذكى النار أوقدها (١١) من قولهم ثريدة مأهولة اى فيها اهالة وهى ما يؤتدم به من زيت ونحوه أى لا تؤدم (١٢) ضعيف غير صليب (١٣) بعيد (١٤) دان من الارض (١٥) هلاكا (١٦) قطعا
(١٧) المراد بتوحد اللغات توحدها بعد امتزاج لغات العرب البائدة والقحطانية والعدنانية بعضها ببعض

اقوال باحثى زماننا فيها

باحثى زماننا : من أن هذه اللغة لم تكن مُعْرَبة مطلقاً، أو أنها كانت معربة عند الخاصة غيرَ معربة عند العامة، أو أن غيرَ المعربة كانت خاصة بالمحادثة دون الشعر والخطابة والكتابة، أو خاصَّة بلغات أطراف الجزيرة لمجاورتها أممَ الأعاجم دونَ أواسطها– ظنُونٌ لم يقم عليها دليلٌ ، نشأت من عدم فهم كلام العلماء ونقلةِ اللغة

الخطـابة

لزومها للعرب

لما كان جُلُّ العرب فى جاهليتها قبائل مُتَبَدِّية [1] ، لا يربِطُها قانون عام ، ولا تضبِطها حكومة منظمة ، ومن شأن المعيشة البدوية شَنُّ الغارات لأوْهى الأسباب ، والمدافعةُ بالنفس عن الروحِ والعرض والمال ، والمباهاةُ بقوة العصبية وكرم النِّجار [2] وشرف الخصال ؛ وللقول فى ذلك أثر لا يقل عن الصَّوْل [3] – كانت الخطابة لهم ضرورية ، وفيهم فطرية . وانما لم تصل الينا أخبار خطبائهم الأوائل ، وشىء من خُطَبهم كما كان ذلك فى الشعر، لحَفْلهم قديماً بالشعر دون الخطابة، ولصُعوبة حفظ النثر

قلة ما ورد منها

وما عُنِى الرواة بنقل أخبار الخطباء وخطبهم الاَّ عند ما حلت الخطابة بعدُ منزلةً أسمى من الشعر، لابتذاله بتعاطى السفهاء والعامة له، وتلوثهم [4] بالتكسب به والتعرض للحُرَم ، فنبُه بذلك شأن الخطابة ، واشتهر بها الأشراف . وكان لكل قبيلة خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر .

مقاصدها

واكثر ما كانت الخطابة فى التحريض على القتال ، والتحكيم فى الخصومات ، واصلاح ذات البين ، وتحمل الدماء ؛ وفى المفاخرات ، والمنافرات ، والوصايا ، والوفادة على الملوك والأمراء ، وغير ذلك من الشئون الخطيرة

ادلتها وسجعها

واذ كان جل القصد من الخطابة اثارةَ الشعور، وإيقاظَ الوِجدان كما هو الشأن فى الشعر، كان جل الاعتماد فيها على الأدلة الخَطابية المؤثرة فى النفوس ، المهيجة للعواطف ، مُمثَّلة فى صُوَرِ العبارات الرائعة ؛ وكثرت فيها الفواصل والاسجاع لحسن

(١) مقيمة فى البادية (٢) الاصل (٣) مصدر صال على قرنه حمل عليه
(٤) تلوثهم تلطخهم

وقعها، على ما فيها: من استرْواح الخطيب، وسهولة تدارك المعانى

قصرها

وخطب العرب منها الطوال ومنها القصار، ولكلٍّ مكانٌ يليق به، وهم الى القصار أميل: لانطباعهم على الايجاز، ولأنها الى الحفظ أسرع، وفى الأصقاع أشيع؛ وكانوا يُعْنَوْنَ فى خطبهم ولا سيما القصار منها بسرد كثير من الحِكَم والأمثال والنصائح، على أنه قلما رُوِيَت لنا خطبة بنصها[1] وفصها لفشوّ الأمية فى الجاهلية ولعجز الرواة عن استظهار جميعها، وانما يحفظون منها ما كان أشدَّ قرعًا للسمع ووقعًا فى النفس بعبارات تتفق فى أصل المعنى، وتفترق فى بعض اللفظ

قيامهم فيها

وكان من عادة الخطيب فى غير خطب الإملاك[2] أن يخطب قائمًا، أو على نَشَزٍ[3] من الأرض، أو على ظهر راحلته، لابعاد مدى الصوت، وللتأثير بشخصه،

صفات الخطيب

واظهار ملامح وجهه، وحركات جوارحه؛ ولاغنًى له عن لَوْث[4] العمامة، والاعتماد على مِخْصَرَة[5]، أو عصا، أو قناة[6]، أو قوس، وربما أشار باحداها أو بيده.

وقد كانوا يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش[7]، قليل اللحظ[8] جَهِير الصوت، مُتَخَيَّر اللفظ، قويّ الحجة، نظيف[9] البزّة، كريم الأصل، عاملاً بما يقول.

اقدم الخطباء

وخطباء العرب كثيرون (من أقدمهم) كعب بن لؤى[10] وكان يخطب على العرب عامةً، ويخص كنانة خاصَّةً على البرّ، ولما مات أكبروا موته، وأرّخوا به حتى كان عامُ الفيل. وذو الإصبع العَدْوانى وهو حُرْثانُ بن مُحَرِّث، وسمى كذلك لأن حية نهشت إبهام رجله فقطعها

(١) النص تعيين الشيء والفص مفصل الشيء، والمعنى انت مفصلة معينة كما قالها صاحبها بالضبط
(٢) التزويج (٣) مرتفع من الارض (٤) عصب (٥) المخصرة السوط ونحوه وما يأخذه الملك ليشير به والخطيب اذا خطب (٦) رمح (٧) النفس اى شجاع (٨) اللحظ النظر بمؤخر العين وهو اشد من الشزر، والمراد قليل التلفت والنظرات (٩) الهيئة والثياب
(١٠) هو الجد السابع للنبي صلى الله عليه وسلم

اشهر الخطباء

(ومن أشهرهم) قيسُ بنُ خارجة بن سِنان خطيب حرب داحِس[1] والغبراء. وخُوَيلدُ بن عمرو الغَطَفَانىّ خطيب يوم الفِجار[2]. وقُسّ بن[3] ساعدةَ الإيادىّ خطيب عُكاظ. وأكثم بن صيفيّ زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى: وهم أكثم بن صيفى وحاجب[4] بن زُرارةَ التميميَّان، والحارث بن عُبَاد[5]، وقيس ابن مسعود[6] البكريان، وخالدبن جعفر[7]، وعلقمة بن[8] عُلاثة، وعامر بن الطُّفَيل[9] العامريون، وعمرو بن[10] الشَّريد السُّلَمى، وعمرو بن مَعْديكرب[11] الزُّبيدى، والحارث، بن ظالم[12] المُرّى)

تراجم مختصرة لهم

(١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس، راهنه حذيفة بن بدر الفزارى على ان يسابقه بفرسيه: الخطار والحنفاء، فوضعت فزارة كمينا فى طريق السباق فلطم وجه الغبراء وكانت سابقة، فهاجت الحرب بين عبس وفزارة، ثم بين عبس وذبيان لنصرتها فزارة، وفى القصة روايات اخرى
(٢) يوم الفجار حرب كانت بين قريش وهوازن حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وكان عمره أربع عشرة سنة، وسميت كذلك لانها كانت في الاشهر الحرم (٣) ستأتى ترجمة قس واكثم
(٤) سيد من سادات تميم، وهو الذى وفد على كسرى حين منع تميما من ريف العراق حتى اصابهم القحط، فأعجب به ومنحه مطلبه، وتعهد له حاجب بحسن الجوار، ورهن عنده قوسه على ذلك فقبلها منه، وبقيت عند كسرى حتى اخذها ابن حاجب ثم بيعت بعد بأربعة آلاف درهم
(٥) كفراب كان خطيبا مؤثراً، وشاعراً بليغا، وله عمل جليل في الحرب التى انتشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها، وله فيها قصيدة مشهورة منها

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

(٦) هو قيس بن مسعود بن خالد بن ذى الجدين كان كريما عالى الهمة من افضل العرب حسبا ونسبا وكانت تقر له القبائل كلها بذلك بل هي وكسرى ايضا، وكان له حجرة فيها مائة من الابل لاضيافه اذا نحرت ناقة قيدت اخرى مكانها (٧) سيد من سادات بنى عامر، خلص قومه من العبودية لغطفان بعد ان قتل سيدها زهير بن جذيمة (٨) خطيب بليغ اشتهر في قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الراجح والحسب الواضح (٩) هو ابن عم لبيد الصحابى شاعر متين، وفارس من اشهر فرسان العرب نجدة، وابعدهم اسما، ولقد بلغ من شهرته ان قيصر كان اذا قدم عليه قادم من العرب قال مابينك وبين عامر فان كانت بينه وبينه رحم واشجة، قربه واكرمه
(١٠) وهو ابو السيدة تماضر الخنساء يميل الى الفخر والصراحة في القول ولقد بلغ من تغاليه في ذلك انه كان يأخذ ابنيه معاوية وصخرا في المواسم العامة ويقول انا ابو خيرى مضر فمن انكر فليغير فلا يغير ذلك عليه احد (١١) خطيب شاعر، وفارس قاهر، وصحابى جليل، شهد اليرموك والقادسية وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر في سنه وضعف في جسمه (١٢) كان شجاعا فاتكا، وخطيبا شاعراً، يميل الى معاقرة الخمر. وهو الذى قتل خالد بن جعفر غيلة لقتله اباه وكثيراً من قومه

قس بن ساعدة الايادى

هو خطيب العرب قاطبة، والمضروبُ به المثلُ فى البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة، كان يَدين بالتوحيد ، ويُؤمن بالبعث ، ويدعو العرب الى نبذ العُكوف على الأوثان [١] ، ويُرشدهم الى عبادة الخالق، ويَخْطُبهم بذلك فى المحافل العامة، ومواسم الأسواق؛ ويقال إنه أول من خطب على شَرَف ، وأول من قال فى خطبه (أما بعد) وأول من اتكأ على سيف أو عصا فى خطابته؛ وكان الناس يتحاكمون اليه فيقضى بينهم بسديد رأيه، وصائب حكمه، وهو القائل (البينة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر) . وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يخطب فى عكاظ على جمل أورقَ [٢] فعجب من حسن كلامه وأظهر من تصويبه ، وأثنى عليه؛ وعُمِّر قسٌّ طويلاً ومات قبيل البعثة . وقد كان مهذَّب الألفاظ ، قويَّ التأثير، بعيداً عن الحشو واللغو فى كلامه، يميل الى السجع القصير الفواصل ويكاد يلتزمه

ومن خُطَبه خطبته التى خطبها فى سوق عكاظ : وهى كما فى صبح الأعشى [٣] أيها الناس اسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ. ليلٌ داج [٤] . ونهارٌ ساج [٥] . وسماءٌ ذات أبراج [٦] . ونجوم تزهَر [٧] . وبحار تزْخر [٨] وجبال مُرساه ، وأرض مُدحاه [٩] وأنهار مُجراه . ان فى السماء لخبرا [١٠] ، وإن فى الأرض لعبرا، مابال الناس يذهبون ولا يَرجعون، أرضُوا فأقاموا؟ ، أم تُركوا فناموا؟ يُقسم قُسٌّ بالله قسماً لا إثم فيه : ان لله ديناً هو أرضى لكم وأفضلُ من دينكم الذى أنتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر منكراً . ويروَى أن قسا أنشأ بعد ذلك يقول :

(١) الاصنام (٢) الاورق من الابل ما فى لونه بياض الى سواد (رمادى)
(٣) صفحة ٢١٢ من الجزء الاول طبعة سنة ١٣٣١ هـ بالمطبعة الاميرية
(٤) مظلم (٥) الساجى الساكن والدائم (٦) البرج واحد الابراج : وهى اثنا عشر برجا تقابلها الشمس فى طريقها طول السنة . والبرج صورة من مجموعة كواكب تشبه صورة حيوان او غيره (٧) تضىء وتتلألأ (٨) تطمى وترتفع (٩) مدحوّة اى مبسوطة وانما جاءت على هذا الوزن لمشاكلة اخواتها فى اللفظ (١٠) اى فى صنع السماء لدليلا على خالق عظيم

فى الذاهبين الأوّليـــن من القرون لنا بصائر [١]
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مَصادِر [٢]
ورأيت قومى نحوها تمضى : الأكابرَ والأصاغر
لايرجع الماضى الىَّ ولا من الباقين غابر [٣]
أيقنت أنى لا محا لة حيث صار القومُ صائر

أكثم بن صيفى

هو أعرف الخطباء بالأنساب، وأكثرُهم ضربَ أمثال، واصابة رأى، وقوةَ حجة؛ كان خطيباً مِصْقعاً [٤] ، وحَكَماً مُوَفَّقاً، رفيع المكانة فى قومه؛ يُعدّ من أشرافهم ومن كبار المحكَّمين فيهم؛ وقلَّ من جاراه من خطباء عصره فى معرفة الأنساب، وضرب الأمثال ، والاهتداء لحل المشكلات ، والسَّداد فى الرأى؛ وهو زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى، وكلهم خطباء مصاقع ولسُنٌ مَقَاول؛ ولقد بلغ من اعجاب كسرى به أن قال لهُ : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى : وقد عُمِّر طويلاً حتى أدركَ مبعثَ النبى صلى الله عليه وسلم، وجمع قومَه وحثَّهم على الايمان به؛ وفى اسلامه رواياتٌ. وكان فى خطبه قليل المجاز، حسن الإيجاز، حلو الألفاظ، دقيق المعانى، مُولَعاً بالأمثال، لايلتزم السجع؛ يميل الى الاقناع بالبرهان، ويعتمد فى خطابته على قوة تأثيره وشدة عارضته [٥] لاعلى المبالغة والتهويل . ومن جيد خطبه خطبته أمام كسرى وهى :

ان أفضل الأشياء أعاليها . وأعلى الرجال ملوكهم ؛ وأفضل الملوك أعمُّها نفعاً . وخير الأزمنة أخصبُها؛ وأفضل الخطباء أصدقُها . الصدق مَنجاه . والكذب مَهواه . والشَّرُّ لَجَاجه [٦] ، والحزم مركَب صعب . والعجز مركَب وَطىء [٧] . آفة الرأى الهوى.

(١) جمع بصيرة وهى العلم والخبرة (٢) ورد الماء اتاه ليشرب، وصدر عنه شرب ورجع أى تذهب الناس للموت ولا تعود (٣) مقيم (٤) المصقع البليغ أو العالى الصوت أو الذى لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع (٥) البيان واللسن والجلد والصرامة والقدرة على الكلام (٦) اللجاج واللجاجة تماحك الخصمين وتماديهما أى ان أصل الشر اللجاجة (٧) سهل لين

والعجز مفتاح الفقر . وخير الأمور الصبر . حسن الظن وَرْطَه (١)، وسوء الظن عِصْمَه. اصلاحُ فساد الرعيَّـة خير من اصلاح فساد الراعى . من فسدت بِطانته (٢) كان كالغاصّ (٣) بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء . المرء يعجزَ لا محالة . أفضل الأولاد البَرَرَة . خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة . أحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته . يكفيك من الزاد ما بلَغك المَحل . حسبُك من شرّ سماعُه . الصَّمتُ حُكْمٌ (٤) وقليل فاعله . البلاغة الإيجاز . من شدَّد نفَّر ومن تراخى تألف

الكتابة

نشأة الخط العربى

يراد بالكتابة عند الأدباء صناعة انشاء الكتب والرسائل ، واذ كانت الكتابة بهذا المعنى تُؤدَّى بالنقوش المسماة بالخط ، ناسب أن نُشير هنـا الى نشأة الخط العربىّ فنقول

أوّل حلقة من سلسلة الخط العربىّ هى الخط المصرى القديم ، ومنهُ اشتق الخط الفينيق (٥) ومن هذا اشتق الآرامى (٦) والمسند بأنواعه : الصَفوىّ والثمودىّ واللحيانىّ شمالىّ جزيرة العرب ، والحميرىّ جنوبيها . ومن هنا اختلف رأى رواة العرب ورأى باحثى الافرنج فيرى باحثو الافرنج أن قد تولَّد من الخط الآرامىّ خطوط منهـا النبطى (٧) والسريانى . والأوّل يظهر فى حروفه الاتصال ، ومنه أخذ أهلُ الحيرة والأنبار خطَّهم النسخىَّ المنسوبَ اليهم، ومنهما وصل الى أهل الحجاز . والثانى اشتق العرب من نوع منه يسمى بالسَّطْرَنْجِيلى خطَّهم الكوفى .

رأى الافرنج فيه

(١) الورطة الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه (٢) أصحابه وأصدقاؤه (٣) الشرق بالماء
(٤) الحكم (الحكمة) ومنه قوله تعالى وآتيناه الحكم صبياً ، والمعنى أن استعمال الصمت حكمة وقل من يستعمله (٥) الفينيقيون سكان أرض كنعان وكانت على ساحل البحر الابيض بمحاذاة جبل لبنان (٦) الارام الامم السامية القديمة التى كانت تسكن شمالىّ بلاد العرب فى فلسطين والشام والعراق (٧) مملكة الانباط كانت فى القرن الاول قبل الميلاد تتسع من شمالى الحجاز الى نواحى دمشق أى كانوا يملكون مدين وخليج العقبة والحجر وفلسطين وحوران

رأى العرب

أما رواة العرب قبل الاسلام وبعده فانهم يقولون : انهم أخذوا خطهم الحجازىَّ عن أهل الحيرة والأنبار ، وهما عن كندة (١) والنبط (٢) الناقلين من المسند ؛ ونحن نرى رأيهم لأسباب : منها العثورُ على فروع من الخط المسند فى أراضى النبط وشماليها بعضها وهو الصفوى قريب الشبه جدًّا من أصله الفينيق

أدلتهم

ومنها وجود حروف الروادف وهى : ثخذ ضظغ فى الخط المسند دون الآرامى

ومنها صريح الاجماع من رواة العرب على أن الخط العربى مأخوذ من الحيرى والأنبارى ، وهو مأخوذ من المسند على يد كندة والنبط

الكوفى

أما الكوفى الذى لم يعرف الاَّ بعد تمصير الكوفة فليس الاَّ نتيجة هندسة ونظام فى الخط الحجازى . ولعل شبهة الافرنج آتية من شيوع استعمال السطرنجيلى والكوفى فى الكتابة الجلية على المعابد والمساجد والقصور وما شاكلها مع شدّة تشابه ما فيهما من الزخرفة والزينة

سلسلة الخط العربى على رأى الأفرنج

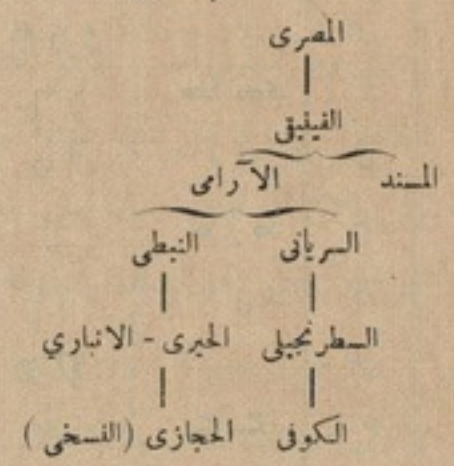

سلسلة الخط العربى على رأى رواة العرب

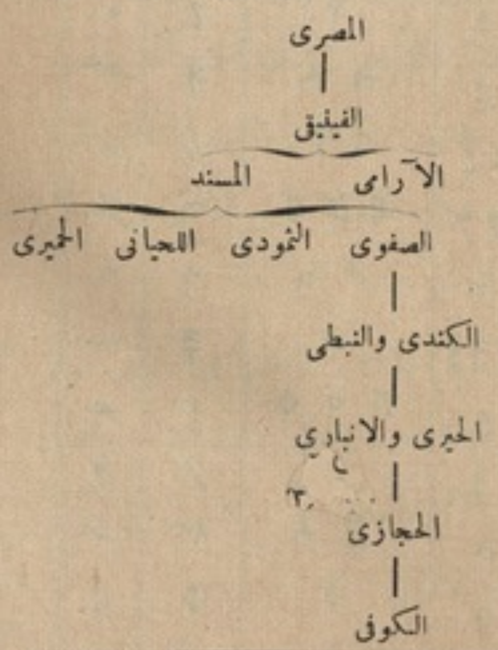

(١) يعلم ذلك مما قاله ابن عباس حين سئل عن أصل الخط العربى وخلاصته أن قريشاً أخذته عن حرب بن أمية وهو عن عبد الله بن جدعان أو بشر بن عبد الملك اخى اكيدر صاحب دومة الجندل، وهما عن أهل الحيرة والانبار عن طارىء طرأ عليهم من اليمن من كندة
(٢) يعلم ذلك من رواية المسعودى وابن الكلبى وهى أن بنى المحصن بن جندل بن يعصب ابن مدين هم الذين فسروا الكتابة (يريد النبط)

وهاك جدولاً يبين لك نشأة هذه الخطوط المختلفة على رأى العرب

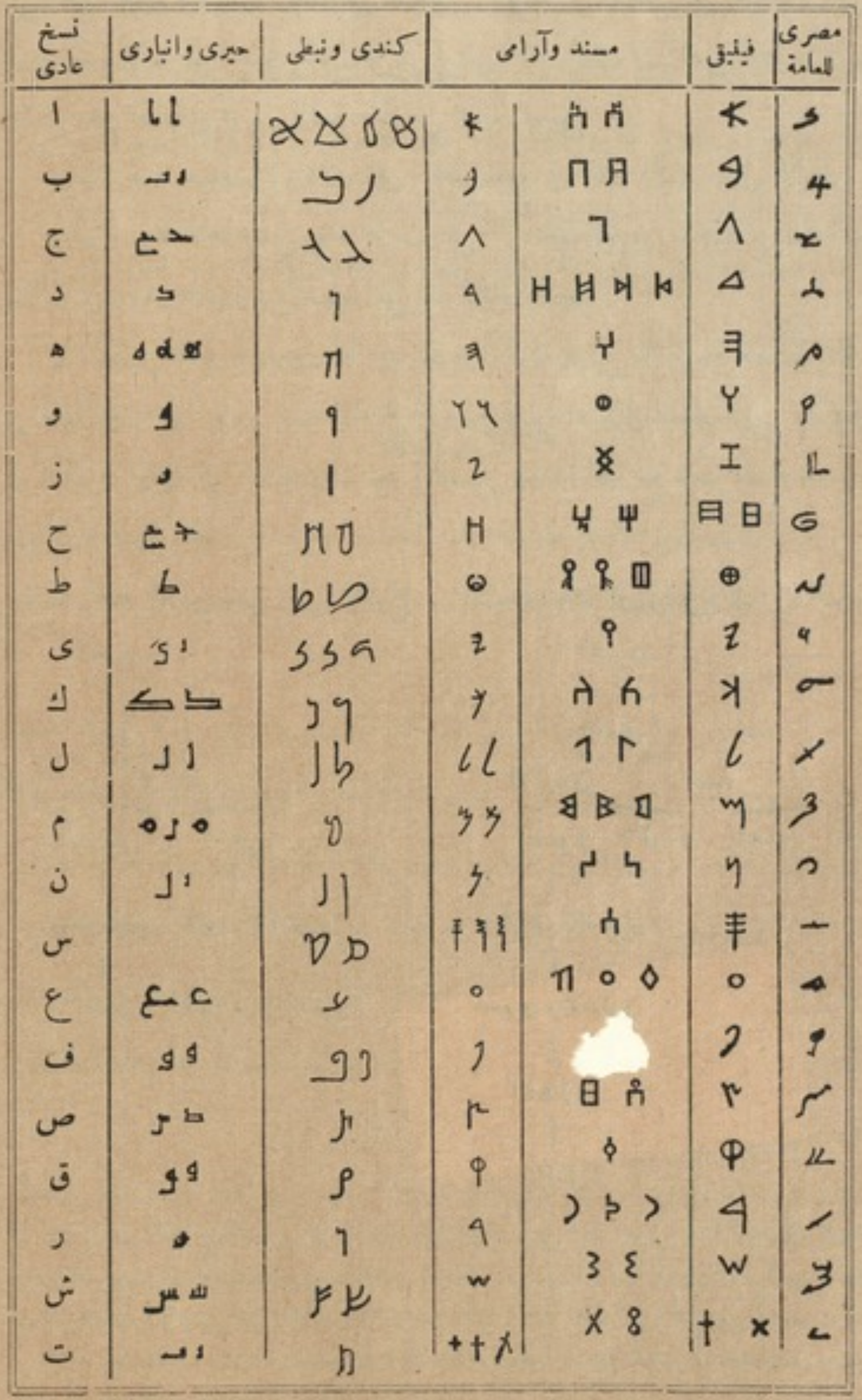

كتابة الرسائل والفنون

أما الكتابة بمعنى انشاء الكتب والرسائل ، فهى لازمة لكل أمة متحضرة ذات حكومة منظَّمة ، ودواوين متعدّدة ، وصناعات متنوعة ، وتجارة رائجة ، وزراعة نامية ، وفنون مختلفة ؛ وقد كان بعض ذلك موفوراً فى ممالك التبابعة جنوباً ، ومأثوراً عن ممالك المناذرة والغساسنة شمالاً ؛ ولذلك استعمل الخط المُسند الحميرى عند الأولين من عهد مديد ، والأنبارى الحيرىّ عند الآخرين ، وانما لم يصل الينا شئ من رسائل تلك الأمم ولا من كتب فنونها ودينها غير ما عُثِر عليه فى بقايا خرائبهم وسدود مياههم و بعض دفائن الأحجار والقبور : لتقادم عهد أهلها وعدم استكمال البحث بعدُ فى بلادها . ولعل الزمانَ يُعثرنا على شئ منها

استعمالها فى الشمال والجنوب

كتاب الجاهلية

ولم يعرّفنا التاريخ أيضاً بأحد من كتاب هذه الصناعة الاَّ بعَدىّ بن زيد العِبَادىّ(١) الذى كان كاتباً ومترجماً عند كسرى

جهل الكتابة فى البدو

أما البدو من سكان أواسط الجزيرة وهم جمهور مضرَ وبعضُ القحطانيين فكانوا أميين، ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الانشائية الأَبعد أن عرفوا الخط آخرَ عصور الجاهلية ، وهو ما نقل عنهم فيه : أنهم كانوا يكتبون فى بدء رسائلهم باسمك اللهمَّ ومن فلان الى فلان ، وأما بعد . ولم تقم لهم دولة بالمعنى السابق الاَّ بقيام الاسلام فهو الذى أفشى فيهم الخط والكتابة

كتابة التدوين والتصنيف

ولماكانت علوم كل أمة (وخاصة اللسانية منها) لها الأثرُ العظيمُ فى تكوين فكر الأديب وخيال الشاعر والبلاء الحسنُ فى تقويم اللسان ، وتوفيرِ مادّة اللغة ، وكانت كتابتها قسماً قائماً بنفسه يسمى كتابة التدوين(٢) والتصنيف(٣) — ناسب أن تُعرّفَ موضوعاتها ويُؤتى على خلاصة نشأتها فى تاريخ الأدب

---

(١) نسبة الى عباد وهم قبائل شتى من العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة

(٢) تدوين الكتاب جعله ديواناً، والديوان مجتمع الصحف ، والكتاب والدفتر ما يكتب فيه

(٣) تصنيف الاشياء جعلها صنوفاً ، وتمييز بعضها من بعض، ومنه تصنيف الكتب أى لانه جمع كل طائفة متشابهة من المسائل فى باب فكان التدوين أعم من التصنيف

علوم العرب وفنونها

العلومُ والصناعاتُ لازمةٌ لحضارة الأمم، متناسبةٌ معها، ومن العرب أهلُ حضارة دلت عليها دولهم العظيمةُ، وقِدَمُ تاريخهم، وآثارُهم الخالدةُ، وهم التابعة فى اليمن، والمناذرةُ والغساسنةُ فى الشمال، واذاً تكون هندسةُ إرواء الأرض وعمارةُ المُدُن، والحسابُ، والطبُّ، والبَيْطَرَةُ، والزراعةُ ونحوُها معروفةً فى الجنوب والشمال مدوّنةً فى الكتب، وان لم يحفظ لنا الدهرُ صوراً منها. أما البدوُ منهم وان كانوا أُميّين يمقتُون الصناعاتِ، وَيَتَنَقَّصُون أهلَها فلا غنى لهم عن تجربة ترشدهم الى ما ينفعهم فى بواديهم المقفرة، ومجاهلهم الطامسة ليعرفوا متى تجودُ السماء، وبمَ يميز الأقرباء من البعداء، فكَسَبهم ذلك علمَ النجوم، والطب الضروريّ، والأنساب، والأخبار، ووصفَ الأرض، والفراسة، والعِيافة، والقيافة، والكهانة، والعِرافة، والزجر، وقرض الشعر

علم النجوم — هو معرفة أحوال الكواكب: من طلوعها، وغروبها، وألوانها، وأنوائها، ومَواضعها، وقرانها، وصورِ أفرادها وجماعاتها، وما يرتبط بها: من حرّ وَبَرد، وأمطار ورياح، واعتدال زمان، ونتاج حيوان، الى غير ذلك: مما تمس اليه حاجتُهم، وتدعو اليه ضرورتهم. وقد كانوا أبرع فى هذا العلم منهم فى كل علم سواه، تعرفه عامتهم[1] قبل خاصتهم، للاهتداء به فى ظلمات البر والبحر، ومعرفة أزمنة الخِصب والمَحْل. وبعضُ معارفهم فيه مستمدٌ من الكَلْدان لاختلاطهم بهم، ولاتفاق اللغتين فى كثير من أسماء الكواكب والبروج؛ ومن أشهرهم فيه بنو حارثة بن كلب، وبنو مرّة بن همام الشيباني

الطب الانساني والحيواني (البيطرة) — وقد عاناه من العرب كثيرون

(١) قال الاصمعى كان شيخ من الاعراب فى خبائه وابنة له بالفناء اذ سمع رعداً فقال ما ترين يا بنية قالت أراها حوّاء قرحاء، كأنها أقراب اتان قراء، ثم سمع راعدة أخرى فقال كيف ترينها قالت أراها جمة الترجاف، متساقطة الاكناف، تتألق بالبرق الولاف، قال هلمى المغرفة انتثى نؤيا

اكتسبوه بحذقهم وتجاربهم ومما نقلوه عن غيرهم، يدل لذلك كثرةُ ما نجده فى لغتهم: من أسماء الأمراض، والأدوية، وأسماء الأعضاء الباطنة والظاهرة وأوصافها المختلفة وأجزائها الدقيقة، وكانوا يعالجون بالعقاقير[1] تارة، وبالعزائم والرُّقَى[2] أخرى، وأطواراً يستعملون الحجامة[3] والكيّ بالنار. ومن أمثالهم (آخر الدواء الكيّ). ومن مشهوريهم الحارثُ بن كَلَدَة الثَّقَفِيّ وابن حِذْيَم التَّيْمِيّ

الانساب — علم تُعرف به القراباتُ التى بين بعض القبائل وبعض فتلحق فروعها بأصولها. وانما دعاهم الى العناية به حاجتُهم الى التناصر بالعصبية، لكثرة حروبهم، وتفرّق قبائلهم: وأنفتهم من أن يكون لغريب عنهم سلطانٌ عليهم، وحبّهم الافتخارَ بأسلافهم، ولذلك كانوا يحفظون أنسابهم، ويُرَوُّونها أبناءهم، ويحافظون عليها جهدَهم وممن اشتهر بمعرفة أنساب العرب: دَغْفَل بن حنظلة الشَّيبانى، وزيدُ بنُ الكيس النَّمَرِيّ، وابن لسان الحُمَّرة

الاخبار والتاريخ والقصص: هى معرفة أحوال السابقين، وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أسلافهم وبعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة، ووقائع أيامهم المشهورة وهى كغيرها من أخبار الأمم القديمة بعضها صحيح وبعضها حديثُ خُرافة. وقد جاءنا منها شئ ليس بالقليل فى شعرهم ونثرهم وأمثالهم. كقصة الفيل، وحرب داحس والغبراء، وحرب البسوس[4]، ويوم[5] ذى قار، وحرب الفِجار

(١) جمع عقار ككتان وعقير كسكيت ما يتداوى به من نبات وغيره
(٢) العزائم جمع عزيمة من عزم الراق على الداء والجن والارواح كأنه أقسم عليها، والرق جمع رقية وهى ما يتلوه الشخص فى ذلك
(٣) صناعة الحجام، والحجم مص الدم من المريض باداة تسمى المحجم
(٤) هى حرب دامت بين بكر وتغلب أربعين سنة، وسببها أن رجلا من قبيلة جرم نزل ضيفا على البسوس التميمية خالة جساس بن مرة البكرى، وللجرمى ناقة أخذت ترعى مع ابل كليب سيد تغلب، وكان جباراً يحمى أرضه أن ترعى فيها ابل غيره فبصر بناقة الجرمى بين ابله فرماها بسهم فى ضرعها فولت تصيح الى فناء صاحبها فاستغاث بأم مثواه البسوس فصاحت واذلاه فانتهز جساس غرة من كليب وقتله غيلة فنشبت الحرب بين القبيلتين
(٥) موضع بقرب الكوفة كان به يوم لبنى شيبان وعجل على الفرس وهو اول يوم انتصف فيه العرب من العجم

وصف الارض

وصف الارض – هو معرفة كل بقعة وما يجاورها وكيف يهتدى اليها ومن قرأ شعر العرب في نسيبهم ، واطلع على وصف أطلالهم [(١)] ودِمَنِهم [(٢)] ومصايفهم ومرابعهم ، وكيف كانوا يحدّدون الحقير منها بحدود قلَّما تُحَدّ به مملكة عظيمة – عرف شدة حِذقهم بمعرفة بلادهم ، مما كان له الفائدة الجُلّى فى امداد علم وصف الأرض (الجغرافية) بمواضع بلادهم وطبائعها

الفراسة

الفراسة – هى الاستدلال بهيئة الانسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله . وقد نبغ فيها من العرب من لا يحصى عددهم، ولهم فى ذلك نوادر شتَّى [(٣)]

القيافة

القيافة – ضرب من الفراسة منشؤه قوة الخيال والحافظة والذكاء : وهى الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها ، أو الاستدلال بهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه ، وربما خصوا النوع الأول باسم العيافة ، وللعرب فى ذلك أمور تكاد تدخل فى عداد المستحيلات ، فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير ، والأحمق والكيِّس ، واذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا الآبن بأبيه والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه ، وعرفوا الأجنبى من بينهم – وممن اشتهر بالقيافة بنو مُدْلِج [(٤)] ، وبنو لِهْب [(٥)] ، ولا يزال هذا العلم باقيًا عند عرب البوادى

الكهانة والعرافة

الكهانة والعرافة – وهما القضاء بالغيب، وربما خُصَّت الكهانة بالأمور المستقبلة والعرافة بالماضية ، وطريقهم فى ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية لما بينهما من المشابهة الخفية، أو المناسبة البعيدة، أو الارتباط الدقيق،

(١) الطلل الشاخص من الاثار (٢) الدمن جمع دمنة وهى آثار الناس وما سودوه بالرماد والسرجين (٣) منها ان اولاد نزار ذهبوا الى الافعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث ابيهم وبينما هم فى الطريق اذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال ان البعير الذى رعى هذا اعور، فقال ربيعة هو أزور ، وقال اياد هو ابتر ، وقال انمار هو شرود وبعد قليل لقيهم رجل ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا فتعلق بهم وذهبوا الى الافعى الجرهمى فقال كيف وصفتموه ولم تروه فقال مضر رأيته يرعى جانبا ويترك آخر فعرفت انه اعور وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الاثر والاخرى فاسدته فعرفت انه ازور، وقال اياد رأيت بعره مجتمعا فعرفت انه ابتر، وقال انمار رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه الى غيره فعرفت انه شرود فقال الجرهمى لصاحب البعير اطلب بعيرك من غيرهم ثم قال لهم أتحتاجون الىّ وانتم كما أرى ؟ (٤) قبيلة من كنانة (٥) بطن من الازد

ويحتاج صاحبها الى كثرة التجارب وحدّة الذكاء وصدق الفِراسة

وللعرب فى الكهّان اعتقاد عريض، لزعمهم أنهم يعلمون الغيبَ، فيرفعون اليهم أمورهم للاستشارة ، ويستقضونهم فى الخصومة ، ويستفسرونهم عن الرُّؤى ، ويستطبُّونهم فى أمراضهم . وممن اشتهر من الكهّان شِقُّ أنمار وسَطِيح الذئبى، ومن الكواهن طَرِيفَةُ [(١)] الخير ، وسَلمى [(٢)] الهمْدانية، ومن العرّافين عراف نجد: الأبلقُ الأسدى ، وعرّاف اليمامة : رَبَاح بن عَجَلة

الزجر

الزجر – وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال والآسترسال فيه . ومن أشهر الزجّارين بنو لِهب وأبو ذؤيب الهُذلىُّ ومُرَّة الأسدى

ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كلبيد بن ربيعة وضابئ بن الحارث فقد قال الأول :

لعَمْرك ما تدرى الطوارقُ [(٣)] بالحَصَى ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ

وقال الثانى :

وما عاجلاتُ الطير تُدنِى من الفتى نجاحًا ولا عن رَيْثِهِنَّ [(٤)] يَخيب
ورُبَّ أمورٍ لا تضيرك ضَيرةً وللقلب من مَخْشاتِهِنَّ [(٥)] وَجيب [(٦)]
ولا خيرَ فيمن لا يُوَطِّن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب [(٧)]

(١) زوج عمرو بن عامر مزيقياء : أحد ملوك اليمن
(٢) بنت سيد همدان
(٣) الطرق بالحصى هو ضرب الحصى بعضه ببعض والتفاؤه للنظر فيه كما يفعل بعض النساء بالودع
(٤) بُطئهن
(٥) مصدر خشى بمعنى خاف
(٦) خفقان (٧) تنزل

النظم

الشعر والشعراء

❊ الشعر ❊

الشعر عند العرب

النظم هو القسم الثانى من قسمى الكلام، وعرَّفه العَروضيون بأنهُ الكلام الموزون المقفَّى قصداً، ويرادفه الشعر عندهم، أما المحققون من الأدباء فيخُصُّون الشعر – بأنهُ الكلام الفصيح الموزون المُقفَّى المُعبِّر غالباً [1] عن صور الخيال البديع. واذ كان الخيال أغلب مادَّته أطلق بعض [2] العرب تجوّزاً [3] لفظ الشعر على كل كلام تضمَّن خيالاً ولو لم يكن موزوناً مقفًّى. وهو يوافق رأى قدماء الإفرنج ومُحدَثيهم فى شعرهم، ورأى المناطقة أيضاً، لأن المنطق مستمدّ من اليونان [4]

مادة الشعر وتأثيره

ولجَرْيه وفق النظـام المُمثَّل فى صورة الوزن والتقفية ، وظهوره فى حُلَل الخيال الرائع، كان تأثيره فى النفس من قبيل إثارة الوِجْدان والشُّعور، بَسْطًا وقَبضًا، وترغيبًا وترهيبًا، لا من قبيل اقناع الفكر بالحجة الدامغة، والبرهان العقلىّ؛ ولذلك يجْمُل أثره فى إثارة العواطف وتصوير أحوال النفس، لا فى الحقائق النظرية؛ ولا ريب أن النفس ترتاع بصور المحسوس الباهر [5] وما انتُزِع منه من الخيال الجَلىّ [6] لخفة مؤْنته

(١) وقد يعبر به عن الحقائق الثابتة من غير مدخل للخيال فيها كآيات الحكم والمواعظ والامثال (٢) فقد قال حسان لابنه (شعر ورب الكعبة) حينما سمعه يصف الحيوان الذى لسعه بقوله « كأنه ملتف فى بردى حبره » ومن هذا تسمية بعض علماء الادب عندنا النثر المسجوع المعتمد على الخيال من مثل مقامات الهمذانى والحريرى، ورسائل القاضى الفاضل، ونسيم الصبا شعراً منثورا . وأما تسمية بعض المعاندين من كفار العرب القرآن شعراً والنبي شاعراً ، فذلك من باب العناد أو الحيرة والدهشة : لانهم كما سموه شعراً سموه سحراً وكهانة وقصصاً لأساطير الاولين (٣) من باب اطلاق الجزء على الكل (٤) ومن هنا يظهر وجه شبهة بعض كتاب عصرنا ممن درس أدب لغة الافرنج فى خلطهم بين مذهب القوم ومذهب العرب فى الشعر الحقيق (٥) يبهره غلبه اما بقوته وشدته واما بحسنه وجماله (٦) أى فى الحسن أو القبح

عليها، واراحته لها من المعاناة والكدّ، فكيف اذا انضم الى ذلك نغمُ الوزن والقافية الشديد الشبه بتأثير الإيقاع [1] والتَّلحين [2] الذى يَطرَب له الحيوانُ فضلاً عن الإنسان

سبب انطباع العرب على الشعر

والعرب بفطرتهم مطبوعون على الشعر: لبداوتهم، وملاءمة بيئتهم لتربية الخيال؛ فالبدوىّ لحرّيته واستقلاله بأمر نفسه، وعدم خضوعه لسيطرة مُذِلَّة، أو لقوانين نظرية، أو سلطان قاهر، يغلِبُ على أحكامه الوِجدانُ، ويُسْلَكُ اليه من طريق الشعور، ومعيشةُ البدوىّ فوق أرض نقيَّة التُّرْبة، مبسوطة الرُّقعة، مَجْلُوَّة الآفاق، وفيرة الوَحْش والطير؛ وفى جوّ صحيح الهواء، وتحت سماء صافية الأديم، ساطعةِ الكواكب، ضاحيةِ الشمس، سافرةِ البدر جَلَت لحِسِّه مناظرَ الوجود، وعوالمَ الشُّهود، فكان لخياله من ذلك مادَّةٌ لا يغور ماؤها، ولا يَنْضُب مَعينُها، فهام بها فى كل وادٍ، وأفاض [3] منها الى كل مراد؛ وكان له من لغته وفصاحةِ لسانه أقوى ساعد، وأكبر معاضد.

مرتبة الشعر فى الوجود

ويَشْعُر الإنسان بطبعه أن الشعر متأخر فى الوجود عن النثر، ضرورةَ تأخر المقيَّد عن المطلق، وان كانت واسطةٌ بين النثر والشعر، فليست إلاَّ السجع، لما فيه من معادلة الفِقَر، والتزام القافية، والميل الى التغنّى به، كما يشاهَدُ ذلك فى صِغار الصبيان؛ فيظن أن مُتَغَنِّيًا بسجع وقع له سجعتان متوازِنتان وزنًا سهلاً (قيل انهُ الرَّجز) فأعجبه ذلك ومضى فيه، وتمّت له قطعة من الشعر، راقَتْ مَنْ سَمِعها، وحاكَوْه فيها، وتغنَّوا بها، فكان من ذلك المقطعات [4] والأراجيز الصغيرةُ، يحْدُون بها الإبل، ويُعَدِّدُون بها المكارم؛ ثم لما تمت ملكة الشعر فيهم، واتسعت أغراضهُ أمامهم، نوَّعوا الأوزان وأطالوا القوافى، وقصَّدُوا القصيد

اختراع الشعر

جهل أولية الشعر

ولبعد العهد بقدماء الحضر من العرب، ومكان الأمية من بَدْوهم، خَفِى علينا (كأكثر الأمم) مبدأُ قول الشعر، وأولُ من قاله، بل لم يبلغنا مما قيل منهُ فى تلك العصور الغابرة والقرون الطويلة الخالية شىء، حتى كان منتصفُ القرن الثانى قبل

(١) الايقاع تبيين الالحان وضبط نسبها (٢) التلحين الصوت المصنوع بكيفية خاصة (٣) اندفع وأسرع (٤) المقطعة ما دون القصيدة من الابيات ، والقصيدة على أرجح الاقوال ما بلغت من سبعة أبيات فصاعدا

عُوجَا على الطلل المُحِيل [١] لَأَنَّنا [٢] نبكى الديارَ كما بكى ابنُ خِذَام [٣]

وقول عنترة : هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم [٤]

وقول زهير : ما أُرانا نقول الاَّ مُعارا أو مُعاداً من لفظنا مكرُورا

يشير الأول الى أن ابن خِذَام وهو رجل من طيءٍ بكى الديار قبله ، ولم يرو الأئمة له شيئاً، ولا سمعوا عنهُ تنويهاً فى غير هذا البيت ؛ ويعدُّ الثانى نفسه مُحْدَثاً قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناسُ منهُ ولم يغادروا له شيئاً وهو (كما يقولون) ممن عاشر امرأ القيس ؛ ويشير زهير الى أن كثيراً من أقوال الشعراء مستعار من غيرهم

كثرة الشعر المروى

ومع قِصَر عهد الشعر الجاهلىّ المروىّ لنا الذى لم يطل أجلُه الى أكثر من قرن ونصف ، وموتِ الكثير من حفظته فى المغازى والفتوح الاسلامية ، ألمَّ الأئمة فيه بشعرٍ كثير من الشعراء ، حتى قيل ان بعضهم [٥] كان يحفظ عشراتِ الألوف من قصائده وأراجيزه ، مما لم يؤثَر عن أمة من الأمم (فيما نعلم)

سبب اكثار العرب من قول الشعر

وما أربى العربُ على غيرهم فى قول الشعر الاَّ لأنهم قوم أميون ، لم يرجعوا فى تدوين حكمتهم، وتخليد مآثرهم، الى رَقْمٍ فى رَقٍّ ، أو نَقْرٍ فى حجر ، فكسبهم ذلك التأنُّقَ فى الكلام، وجودةَ الحفظ ، ومُعاناة الرواية ؛ ولا تَتَمَثَّل هذه الأمور فى أمْثَلَ من الشعر ، فاتخذوه كما قال الجُمَحِيُّ (ديوانَ علمهم ، ومنتهى حكمتهم، به يأخذون وإليهِ يصيرون ،) وأحلوه من الاعتبار فى الغاية ، ومن الرعاية فى الذِّروة ، . وكانت القبيلة يرفعها البيتُ من الشعر ، ويخفضُها الآخر [٦]

(١) المتغير أو الذى أتى عليه الحول (٢) لاننا لغة فى لعلنا (٣) ككتاب شاعر جاهلىّ قديم (٤) تردم الثوب رقعه ، وكلامه وشعره تتبعه حتى أصلحه وسدّ خلله ، أى لم يترك السابق من الشعراء للاحق منهم شيئاً يحتاج الى الاصلاح

(٥) كحماد والاصمعى وخلف وابى عمرو الشيبانى وأبى بكر الخوارزمى وغيرهم

(٦) فمن ذلك فى الجاهلية قصة الاعشى الشاعر مع آل المحلق وسنذكرها بعد . وقصة حسان مع بنى عبد المدان وذلك أنه هجاهم بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فقالوا له والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحيي من ذكر اجسامنا بعد أن كنا نفخر بها

اول ما حفظ من الشعر

الهجرة ، فرُوِىَ لنا منهُ قَلٌّ من كُثْر أدركه رواة اللغة وَدَوَّنُوه قبل أن يَبِيد كما باد سلفُهُ . أما ما نسب من الشعر الى آدم وابليس والملائكة والجن والعرب البائدة ، فهو حديث خرافة مدسوسٌ على أهل الغفلة من الرواة : لسخافة نَسْجه، وركاكة [١] لفظه ، وبَذَاذة [٢] معناه ؛ ولأن لغة هؤلاء غيرُ لغة مضر المنظوم بها هذا الشعر، وانما ساقهم الى ذلك ما رأوْه فى طبائع الناس من ميلهم الى معرفة المجهول ، وشَغَفهم بالغريب ، واسترسالهم فى الخيال

قدماء الشعراء

والشعر الذى صحت روايته منذ أواسط القرن الثانى قبل الهجرة ينتهى أقدمُ مُطوَّلاته الى مُهَلْهِل بن ربيعة ، وأقدم مقطَّعاته الى نَفَر لعلهم لم يبعدوا عنهُ طويلاً، مثل العَنْبَر بن عمرو بن تميم، ودُرَيد بن زيد بن نَهْد – وأعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلَان ، وزُهيَر بن جَنَاب الكلبى ، والأفوه الأوْدى ، وأبو دُوَاد الإيادى

أول من قصد القصائد

وقد رووا أنهُ لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاَّ الأبياتُ يقولها الرجل فى حاجته وأن أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التَّغلَبى فى قتل أخيه كليب، فهو أوّل من رُويتْ له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً ، وتبعهُ الشعراء ، مثل امرىء القيس ، وعلْقَمَة ، وعَبِيد ، ممن أخرجوا لنا الشعر العربىّ فى صورته الحاضرة ؛ والمعقول أن هذه الصورة لم تَتَشَكَّل طَفْرَةً فى تنوّع الأوزان، وطُول القوافى، وتعدّد الأغراض واختلاف الأساليب ، وبراعة الاستعارة ، ورَوْعة التشبيه، ودقة الكناية ، على يد مهلهل وامرئ القيس وطَرَفة وأمثالهم، بل لابدَّ من أن يكون هؤلاء قد سُبِقوا بأقوام نقلوا الشعر من السجع الى الرجز ، ومن المقطعات الى القصائد ، وقالوه فى غرض واحد ، ثم فى أغراض شتَّى ، وهذَّبوه ورقَّقوه ، وجوّدوه ، وهلهلوه [٣]، قبل مهَلْهِل

الشعر قبل امرىء القيس ومهلهل

بِبِضعة قرون ، يشهد لهذا قول امرىء القيس فى شعره :

(١) ضعف (٢) البذاذة سوء الحال ورثاثة الهيئة

(٣) هلهل النساج الثوب نسجه رقيقاً ، ولقب الشاعر بمهلهل لانه أول من رقق الشعر على زعمهم

هذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر ونشأته فى الجاهليــة ، أما ما يتعلق بمادّته وجوهره ، فانه يرجع الى الأمور الآتية :

(أولاً) – أغراضهِ وفنونه. (ثانيًا) – معانيه وأخيلته. (ثالثًا) – ألفاظه وأساليبه (رابعًا) – أوزانه وقوافيه

(١) أغراضه وفنونه

نظم العرب الشعر فى كل ما أدركته حواسهم ، وخطر على قلوبهم ، مما يلائم بيئتهم ، وينتظم مع تنشئتهم ؛ ويضيق المقام عن سرد الكثير من فنون الشعر وأغراضه عندهم ، وانما يجمل الإلمام بأشهرها ، وهى :

النسيب ودواعيه

النسيب – ويسمَّى التشبيب ، والتغزل – وطريقه عند الجاهلية يكون بذكر النساء ومحاسنهن ، وشرح أحوالهن : من ظَعْنِهن[١] واقامتهن ، ووصف الأطلال والديار بعد مغادرتهن ، والتشوّق اليهن بحنين الإبل ، ولمع البروق ولَوْح النّيران[٢] ، وذكر المياه التى نزلن عليها ، والرياض التى حللنها ، ووصف ما بهــا من خُزَامَى[٣] ، وبَهار[٤] ، وأُقْحُوان[٥] ، وعَرَار[٦] . وكانوا لا يَعْدُون النساء اذا تغزلوا ونَسَبوا . وكان للنسيب

فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت ، ثم قال :

وقد كنا نقول اذا رأينا   لذى جسم يعدّ وذى بيان
كأنك أيها المعطى لساناً   وجسماً من بنى عبد المدان

وفى الاسلام قصة الحطيئة مع بنى أنف الناقة ، وقد كانوا يعيرون فى الجاهلية بهذا الاسم حتى قال فيهم الحطيئة :

(قوم هم الانف والاذناب غيرهم   ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا)

فعاد هذا الاسم شرفاً لهم وفخراً فيهم

وقصة جرير مع بنى نمير اشراف قيس وذوا نبها وذلك أنه قال فيهم :

فغض الطرف انك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فما بقى نميرىّ الاّ طأطأ رأسه وانتسب عامريًّا ، بعد ان كان اذا سئل ممن الرجل فخم لفظه ومدّ صوته وقال من بنى نمير

(١) الظعن الرحيل (٢) مصدر لاح بمعنى بدا ولمع (٣) نبت برى زهره أطيب الازهار نفحة (٤) نبت طيب الرائحة زهره أصفر اكبر من زهر البابونج (٥) البابونج البرى (٦) بهار البر

عندهم المقام الأوّل من بين أغراض الشعر ، حتى لو انضم اليه غرض آخر ، قدّم النسيب عليه ، وافتتح به القصيد : لما فيه من لَهْو النفس ، وارتياح الخاطر ، ولأن باعثه الفذَّ[١] هو الحب ، وهو السر فى كل اجتماع انسانىّ . والبدو اكثر الناس حباً لفراغهم وتلاقى قبائلهم المختلفة فى المصايف والمرابع ، فاذا ما افترقوا ذكر كلٌّ أليف إلفه ، وحبيب حِبَّه ، ثم اذا عاودوا تلك الأماكن مرة أخرى ، هاج أشجانهم ، وجدَّد الذكرى فيهم ما يرونه من آثار أحبابهم وأطلال منازلهم

الفخر

الفخر – وهو تَمدُّح المرء بخصال نفسه وقومه ، والتحدّث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عنصرهم ، ووفرة قبيلهم ورفعة حسبهم ونسبهم ، وشهرة شجاعتهم

المدح

المدح – وهو الثناء على ذى شأن بما يستحسن من الأخلاق النفسية : كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة وان هذه الصفات عريقةٌ فيه وفى قومه ؛ وبتعداد محاسنه الخلقية كالجمال وبسطة الجسم ؛ وشاع المدح عند ما ابتُذِل الشعر واتخذه الشعراء مِهْنة ؛ ومن أوائل مدّاحيهم زهير والنابغة والأعشى

الرثاء

الرثاء – وهو تعداد مناقب الميت ، واظهارُ التَّفَجُّع والتَّلَهُّف عليهِ ، واستعظام المصيبة فيه ؛ ومن عادات الجاهلية فى الرثاء كما قال ابن رَشِيق فى العمدة[٢] ضربُ الأمثال بفَنَاء الملوك العظام ، والممالك الكثيرة ، والأمم القوية ، والوُعول[٣] الممتنعة فى قُلَل الجبال ، والأُسود الخادرة[٤] فى الغِياض[٥] ، وبحُمُر الوحش المتصرفة بين القفار ، وبالنسور والعِقبان والحيّات لبأسها وطول أعمارها

الهجاء

الهجاء – هو تعداد مثالب المرء وقَبيله ، ونفيُ المكارم والمحاسن عنهُ ؛ . وكانت العرب فى بدء أمرها لا تُفحش فى هجوها ، وتكتفى بالتهكم بالمهجو والتشكك فى

(١) الفرد (٢) هو الحسن بن رشيق القيروانى من أدباء افريقية توفى سنة ٤٦٣ ﻫ
(٣) جمع وعل وهو تيس الجبل (٤) المستترة (٥) جمع غيضة وهى الاجمة والشجر المجتمع فى مفيض ماء

حقيقة حاله[1]، ثم أقذع[2] فيه بعضَ الأقذاع المحترفون بالشعر، وحكام السفهاء فى ذلك

الاعتذار

الاعتذار – هو دَرْء الشاعر التهمة عنهُ، والترفقُ فى الاحتجاج على براءته منها، واستمالةُ قلب المعتذَر اليهِ، واستعطافُه عليهِ؛ والنابغة فى الجاهلية فارس هذه الحلبة[3]

الوصف

الوصف – هو شرح حال الشئ، وهيئته على ما هو عليه فى الواقع: لاحضاره فى ذهن السامع كأنهُ يراه أو يشعُر بهِ، وهذا هو الأصل الذى جرى عليه اكثر العرب قديمًا: وقد يبالغ فيه، لتهويل أمره، أو تمليحه، أو تشويهه، أو نحو ذلك فيكون منه المقبول والممقوت. ولا سبيل الى حصر ضروب الوصف عند العرب، فانهم وصفوا كل ما رأوه أو عانوه أو خالط نفوسهم:

فوصفوا من الحيوان الإبل، وافتنُّوا فى ذلك بما لم تفقْهم فيه أمة فى وصف نفيس لديها. ومن أبلغ وصاف الإبل طرفةُ – ووصفوا الخيلَ فى ضروب خلقها وأحوال سيْرها. ومن أشهرهم فى ذلك امرؤ القيس وأبو دُوَاد الأيادى – ووصفوا من السباع الأسد، والضبع، والذئب. ومن الوحش الظباء، والأوعال، والحمُر، والبقر؛ ومن الطير الحمائم وبكاءها، والعِقبان والرّخم[4]، والنسور، وغراب البين، والبارحَ منها والسانح[5]؛ ومن الهوام[6]، الحيات، والأفاعى[7]، والصّلال[8]، والعقارب – ومن النبات الكلأ[9]، والعُشْب[10]، والمراعى، والشيح، والقيصوم[11]، والعرار، والخُزامى، والنخيل، والحدائق الملتفة – ومن الاجواء – السُّحب، والأمطار، والرياح

(١) كقول زهير   وما أدرى ولست اخال ادرى   أقوم آل حصن أم نساء
(٢) الخش (٣) جماعة الخيل المتسابقة (٤) الرخم من الطيور الخبائث ولا يؤكل
(٥) السانح الطائر يعرض امامك من اليسار الى اليمين فيوليك ميامنه، والبارح ما يوليك مياسره، ويتفاءل بالثانى ويتشاءم من الاول (٦) جمع هامة وهى كل ما له سم يقتل
(٧) الافعى حية يقال هى رقشاء دقيقة العنق عريضة الرأس لا تزال مستديرة على نفسها ومذكرها افعوان وجمعها الافاعى (٨) جمع صل وهو الحية الدقيقة الصفراء
(٩) الكلأ العشب رطبه ويابسه (١٠) الكلأ الرطب (١١) نبت زهره مرّ جداً

والبرق، والرعد، والسراب[1]، والآل[2] والسماء والنجوم والشمس والقمر وصور الكواكب وألوانها – ومن الأرض الفيافى المقْفِرَة، والشِّعاب[3]، والفِجَاج[4] والجبال والهِضاب[5]، والأحياء، والمنازل، والمرابع، والمصايف؛ وخاصة الديارَ، والاطلال وتعفية[6] الرياح والأمطار لآثارها، والدِّمَن وتشبيهها أحيانًا برَقْم الكتب، وصحائف الرهبان، وبالوشم على ظاهر اليد، وبالثوب الخلق أو المرقم، ونحو ذلك – ومن المياه: السيول ومجاريها والآبارَ وطيَّها[7] والغُدران وعذوبتها – ومن آلات القتال – السيفَ والرُّمح، والدِّرعَ والقوْسَ

ووصفوا من الهيئات والأحوال والصفات – (١) جمالَ الانسان بذكر المقبول عندهم من محاسنه وألوانه وتناسب أعضائه

(٢) الأخلاق والطِّباع وأحوالَ الناس فى سرورهم وغضبهم، وتَهلُّلهم وكآبتهم وشجاعتهم وجبنهم، وخوفهم وأمنهم

(٣) الحركة والانتقال: من الظعن على الإبل، وحال الظعائن[8] وأحداجها[9] وحال الشاعر فى رحلته الى الممدوح

(٤) هيئات القتال والنِّزال، ومبارزة الأبطال، وانعقاد النقع[10] وقعقعة[11] السلاح ونحو ذلك مما لا سبيل الى استقصائه؛ وباب الوصف عند العرب اكبر فنون الشعر

الحكمة والمثل

الحكمة والمثل – وقد تقدَّم تعريفهما؛ واكثر ما تكون أمثالُ العرب وحكمُها مُوجَزَة متضمنة حُكمًا مقبولاً، أو تجربة صحيحة، تمليها عليها طباعها بلا تكلف

(١) السراب ما تراه فى الصحراء نصف النهار كأنه ماء (٢) الآل السراب أو خاص بما فى اول النهار (٣) جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل (٤) جمع فج وهو الطريق الواسع الواضح (٥) الجبال الصغيرة المنبسطة على وجه الارض (٦) محو
(٧) طوى البئر بنى جوانبها بالحجارة (٨) جمع ظعينة وهى المرأة الراحلة فى الهودج
(٩) جمع حدج بالكسر وهو مركب للنساء (١٠) الغبار
(١١) حكاية اصوات السلاح

كتكاف فلاسفة المولَّدين ، ولا اكثارٍ منها حتى يخرج الشعر بها عن بابه المبنيّ على الخيال والأوصاف ، وانمـا يؤتَى بها فى كلامهم كالملح فى الطعام – واكثر شعرائها أمثالاً زهير والنابغة

(٢) معانيهِ وأخيلته

قصدُ الشاعر من شعره الإبانةُ عما يُخالج نفسه من المعانى فى أى غرض من الأغراض السابقة ونحوها ، ومن هذه المعانى ما هو عاديٌّ فى الناس متأَصِّلٌ فى نفوسهم ، فيشترك فيه البدويُّ والحضريُّ والعربيُّ والعجميُّ ، كالأخبار الصادقة ، وأوصاف المشاهدات ، وشرح الوِجدانات كما يمليها الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ؛ ومنها ما هو غريبٌ نادر ، انتزعه الخيال من المَرْئِيَّات البديعة ، والأشكال المنتظمة ، والهيئات المتناسقة ؛ وذلك ما يسمى بالمعنى المختَرَع ؛ وهو فى الفطر السليمة أنمى ، وللأمم المتحضِّرة أطوع ؛ وتتفاضل الشعراء بالإجادة فيه والاكثار منهُ ، واذا قسنا الشعر الجاهلى بهذا المعيار وجدنا معانيه وأخيلته تمتاز بالأمور الآتية :

(١) جلاء المعانى وظهورها ومطابقتها للحقيقة والواقع

(٢) قلة المبالغة والغُلو فيها بما يخرجها عن حدّ العقل ومألوف الطبع

(٣) قلة المعانى الغريبة المَنْزَع، الدقيقة المأخذ، المتجلية فى صور الخيال البديع، والتشبيه الطَّريف ، والاستعارة الجميلة ، والكناية الدقيقة ، وحسن التعليل ، وغير ذلك مما لايهتدى اليه الاَّ بعد التَّعَمُّل وكَدِّ الفكر

(٤) قلة تأنُّقهم فى ترتيب المعانى والأفكار على النظام الذى يقتضيه الطبع أو العقل، بل يرسلونها على ما خَيَّلَتْ نفوسُهم، واستدعتهُ بديهتهم وارتجالهم، فيدخلون معنى فى معنى، وينتقلون من غرض الى آخر اقتضاباً بدون تَحَيُّل ولا تلطُّف، وربما مهد بعضهم لانتقال الذهن بقوله : دع ذا ، وعدِّ عن ذا

(٣) ألفاظه وأساليبه

ولما كانت العرب أُمَمًا بدوية تنظم الشعر بطبعها ، من غير معاناة صناعة ، ولا دراسة علم– غلب على شعرها صراحةُ القول، وقلةُ المواربة فيه، والبعد عن التكلف، وصحة النظم والوفاء بحق المعنى ، أضف الى ذلك الأمور الآتية :

(١) جودة استعمال الألفاظ فى معانيها الموضوعةِ لها : لإحاطة علمهم بلغتهم ومعرفتهم بوجوه دلالتها

(٢) غلبة استعمال الألفاظ الجزْلة

(٣) استعمال الألفاظ الغريبة التى هجرت عنـد المحدثين ، إما لقلة استعمال مدلولها ، أو للاقتصار على مرادف لها أسهلَ منها

(٤) القصد فى استعمال ألفاظ المجاز

(٥) مَقْت استعمال الأعجمى الاَّ ما وقع نادراً على سبيل التمليح والتظرف فى مثل شعر الأعشى

(٦) عدم تعمد المحسّنات البديعية اللفظية مثل الجناس ، والمقابلة ، والمطابقة ، وما شاكلها

(٧) متانة الأسلوب بحسن ايراد المعنى الى النفس من أقرب الطرق اليها وأطرفِها لديها كتجاهل العارف ، ومخاطبة الديار والأطلال

(٨) إيثار الايجاز أو قلة الاسهاب الاَّ اذا دعتِ الحالُ

(٤) أوزانه وقوافيه

الحق أن العرب لم تعرف موازين الشعر بتعلُّم قوانينَ صناعية ، وتعرُّف أصول وضعية، وانما كانت تنظم بطبعها على حسب ما يُهَيِّئُه لها انشادُها وتغنِّيها وحُداؤها، وقد

هدتهم هذه الفطرة الى أوزان أرجعها الخليل[1] الى خمسةَ عشرَ وزناً سمَّاها بحوراً وزاد عليها الأخفش[2] بحراً . وقد اكثروا النظم من بعضها دون بعض ، بل إن بعضهم كان يكثر النظم من بحر دون آخر . وشعر العرب رجزُه وقصيدُه يبنى على قافية واحدة كيفما طال القول .

﴿ الشعراء ﴾

سبب اشتهار الشاعر

شعراء الجاهلية اكثر من أن يُحاط بهم ، ومن جُهل منهم اكثرُ ممن عُرف ؛ وانما اشتهر بعضهم دون بعض : لنُبُوغه ، أو كثرة المرويّ من شعره ، أو قرب عهده من الاسلام زمنِ الرواية ، أو تعصُّبِ عشيرته له ، أو عظم جاهه ، أو اشتهاره بمَنْقَبة أخرى فوق الشعر كالشجاعة والكرم والوفاء واشتراكه بشعره فى حادث عظيم ؛ وهم بعدُ متفاوتون فى القول قلةً وكثرة ، ورداءة واجادةً ، وجفاء ورقة ، وروِيَّةً وارتجالاً.

منزلة الشاعر عند القبيل

وكان للشعراء عند العرب منزلة رفيعة، وحكم نافذ، وسلطان غالب، اذ كانوا ألسنتهم الناطقة بمكارمهم ومفاخرهم ، وأسلحتهم التى يَذُودون بها عن حياض شرفهم، وبهم كانوا يماجدون، وينافرون، ويتفاخرون، وما كانوا يُسَرُّون بشىء أعظمَ من سرورهم بشاعر ينبَغُ فيهم ، قال ابن رشيق فى العمدة : (وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنَّأتها، وصَنَعت الأطعمة وأتت النساء يلعبن بالمزاهر[3] كما يصنعون فى الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان لأنهُ حِماية لاعراضهم، وذَبٌّ عن حياضهم ، وتخليد لمفاخرهم، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يُهَنِّئون الاَّ بغلام يُولَد ، أو شاعر ينبَغ ، أو فرس تُنْتَج)

وكانت طريقة نظم الشعر فى اكثر الأحوال أن يرتجلوه ارتجالاً ، فتأتيهم ألفاظه عفواً، ومعانيه رهواً[4] ؛ كما وقع للحارث بن حِلِّزة، وعمرو بن كلثوم ؛ أما مَن اتخذه منهم

---

(١) هو الخليل بن احمد الفراهيدى النحوى اللغوى مخترع العروض وستأتى ترجمته
(٢) هو سعيد بن مسعدة النحوى تلميذ سيبويه ، وسيبويه تلميذ الخليل
(٣) المزهر كمنبر العود يضرب به (٤) سهلة متتابعة

التكسب بالشعر

صناعة يستدرُّها ، ومكسباً يستمرئه ، ويلتمس به الجوائز ، وينشده فى المحافل والمواقف العظام فانه يُنْحِيَ عليه[1] بالتثقيف والتجويد: والتهذيب والتنقيح، ليجعله كله متشابهاً فى الصنعة متساوياً فى الأحكام ، رقيق الحاشية[2] ، حسن الديباجة[3] مُتَخَيَّرَ الألفاظ ، يصح أن يقال فيه انه المثل الأعلى للشعر الجاهلى ؛ كما ترى ذلك واضحاً فى حَوْليَّات زهير ، واعتذاريَّات النابغة .

وقد غبر الناس دهراً طويلاً لا يقولون الشعر الاَّ فى الأغراض الشريفة والمقاصد النبيلة ، لا يمدحون عظيماً طمعاً فى نَوَاله ، ولا يهجُون شريفاً تشفياً منهُ وانتقاماً، حتى نشأت فيهم فئة امتهنت الشعر وتكسبت به ، ومدحت الملوكَ والأمراء كالنابغة الذُّبيانى وحسان مع النعمان بن المنذر وملوك غسَّان ، وزهير بن أبى سُلمى مع هَرِم بن سنان وأُميَّةَ بن أبى الصَّلْت مع عبد الله بن جُدْعان : أحد أجواد قريش ، والأعشى مع الملوك والسُّوقَة ، حتى قصد به الأعاجمَ ، وجعله مَتْجَراً يتجر به ، فتحامى الشعرَ الأشرافُ ، وآثروا عليه الخطابة .

﴿ طبقات الشعراء ﴾

طبقات الشعراء باعتبار عصورهم أربع :

(١) طبقة الجاهليين .

(٢) طبقة المُخَضْرَمين ، وهم الذين اشتهروا بقول الشعر فى الجاهلية والاسلام .

(٣) طبقة الاسلاميين، وهم الذين نشئوا فى الاسلام ولم تفسد سليقتهم العربية ، وهم شعراء بنى أُمية .

(٤) طبقة المُوَلَّدين، أو المُحْدَثين، وهم الذين نشئوا زمنَ فساد العربية، وامتزاج العرب بالعجم ، ولو كانت أصولهم عربية بحتة ، وذلك من عصر الدولة العباسية الى يومنا هذا .

---

(١) يقبل عليه (٢) حاشية الثوب جانبه وكلام رقيق الحواشى حسن
(٣) الديباج ثوب من الحرير الخالص ويكون عادة منقشاً فيستعار للكلام الحسن المزين فيقولون لهذه القصيدة ديباجة حسنة اذا كانت محبرة منمقة

والشعراء الجاهليون يُقَسَّمون باعتبار شهرتهم فى الشعر للاجادة أو للكثرة الى طبقات كثيرة نذكر منها ثلاثًا [1] :

(١) الطبقة الأولى ، امرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة

(٢) الطبقة الثانية ، الأعشى ، ولبيد ، وطرَفَةُ

(٣) الطبقة الثالثة ، عنترة ، وعُرْوَةُ بن الوَرد ، والنَّمِرُ بن تَوْلب ، ودُرَيْد بن الصِّمَّة ، والمُرَقَّش الاكبر ؛ على أن كثيراً من الفصحاء والأدباء يقدّمون بعض هؤلاء على بعض ويزيدون غيرهم عليهم ، لملاءمة شعرهم لأذواقهم وهوَى نفوسهم

(١) اُمْرُؤُ القَيْس

هو الملك الضِّلّيل [2] أبو الحارث حُنْدُج [3] بن حُجْر الكِنْدِيُّ ، شاعر اليَمانِيَة ، ورأسُ شعراء الجاهلية ، وقائدُهم الى التفنن فى أبواب الشعر وضروبه

وآباؤه من أشراف كِندة وملوكها ، وأُمه فاطمة بنت ربيعة أُخْتُ كُليب ومُهَلْهِل التَّغْلِبِيَّيْن . وكانت بنو أسد من المضرية خاضعةً لملوك كِندة ، وآخر ملك عليهم هو حُجْر أبو امرئ القيس

منشؤه — نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعيَّة أبيه من بنى أسد ، وسلك مسْلَك المترفين من أولاد الملوك يلهو ويلعب ويعاقر [4] الخمر ويغازل الحسان . وزاد على ذلك أنه أنفق وقته فى التشبيب بالنساء والخروج فى ذلك الى حدّ الصراحة فى الفُحْش

خلاعته — منصرفًا عما يأخذ به أمثالُه أنفسَهم من الاعتداد للملك وقيادة الشجعان ، فمقته أبوه لذلك ، وزجره عن اللهو والتشبيب بالنساء ، ولما لم ينجع فيه القولُ طرده عنه وأقصاه ، فالتف عليه بعضُ صعاليك [5] العرب وذُؤْبانهم [6] وشُذّاذهم [7] ، ينزلون المياه وينعَمون

(١) على رأى أبى عبيدة (٢) كسكيت الكثير الضلال وسمى بذلك لانه كان يتهور فى شعره
(٣) أصل الخندج الرملة الطيبة تنبت الوانًا (٤) يلازم ويدمن (٥) فقراء
(٦) لصوصهم وصعاليكهم (٧) الشذاذ الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم (المتشردون)

ويذبحون ويشربون ويَطْرَبون ، وتغنّيهم القِيان [1] ، وإنه لكذلك فى احدى نزلاته بأرض (دَمُّون [2]) يشرب ويلعَب النَّرْد مع رفاقه إذ جاءه نبأ ثَوَران بنى أسد على أبيه وقَتْلِهم له : لأنه كان يعسِف فى حكمه لهم ، ويشتط [3] عليهم فى الإتاوة [4] التى يؤدّونها اليه ، فلم ينزعج امرؤ القيس للخبر خشيةَ أن ينغص على رفاقه عيشهم ، ثم قال (ضيَّعنى صغيراً ، وحمّلنى دمه كبيراً ، لاصَحْوَ اليومَ ولا سُكْرَ غداً ، اليومَ خمْرٌ ، وغداً أمْرٌ) وأخذ يجمع العُدَّة ويستنجد القبائل فى ادراك ثأره ، فكان يجيبه بعضها ويعتذر بعضها ، فنازل بنى أسد وقتل فيهم كثيراً ولم يَشْفِ ذلك من غُلته .

خروجه فى ثأر ابيه — وكانت فى نفس المنذر أحدِ ملوك الحِيرة ، موْجِدَةٌ [5] على آل امرئ القيس لأن الحارث جدَّ امرئ القيس زاحم المَنَاذرة ملوك الحيرة عند كسرى فى النيابة عنه على مُلْك الحيرة ، وقت أن شَجَرَ [6] الخلافُ بين المناذرة وكسرى قُباذ [7] فألَّب المنذرُ على امرئ القيس العربَ : من إياد وبهراء وتَنُوخ ، وأمدّه كسرى أنو شِرْوان بن قُباذ بجيش من الأساورة [8] لرضاه عن آل المنذر ، فلم يكن لأمرئ القيس به طاقة ، وتفرق عنه أصحابه ، فجعل يستجير بالقبائل واحدة بعد واحدة ، وتقع من أجله حروب عديدة ، حتى نزل على السَّمَوْءل فأودعه ابنته ودروعه وسلاحه ، وطلب اليه أن يكتب له الى الحارث بن أبى شِمْر الغسانى بالشام ليوصله الى قيصر ، فلما بلغ قيصرَ استنصره على أعدائه الذين جلهم من شيعة المناذرة التابعين للفُرْس [illegible] الروم فأمده بجيش لم يَفْصِل [9] به عن بلاد الروم حتى بدا [10] لقيصر فاسترجع الجيش ، وقفل امرؤ

موته — القيس راجعًا ، واشتد به فى طريقه علة قروح فمات منها ودُفن بأنْقِرة وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن

شعره — يعتبر امرؤ القيس رأسَ فحول الجاهلية والمقدّم فى الطبقة الأولى من

(١) جمع قينة وهى الامة المغنية (٢) بلدة بحضرموت من اليمن (٣) يجور ويظلم
(٤) الخراج (٥) غضب (٦) شجر بينهم الامر اضطرب (٧) أبو كسرى انو شروان (٨) قوم من العجم [illegible] البصرة كالاحامرة بالكوفة
(٩) لم يخرج (١٠) بدا له فى الامر نشأ له فيه رأى ، فيضمر الفاعل ويفسر بلفظ البداء أو الرأى ، وقد يظهر الفاعل احيانًا

شعرائهم المعروفة أخبارهم، وهو وان كان راوية أبى دواد الإيادى، وخالُه مهلهلاً لم يسبقه على مبلغ علمنا الى طرْق كثير من أبواب الشعر والافاضة فيه أحد، فهو أوّل من أجاد القول فى استيقاف الصحب، وبكاء الديار، وتشبيه النساء بالظباء والمها والبَيض، وفى وصف الخيل بقَيْد الأوابد[1] وترقيق النسيب، وتقريب مآخذ الكلام، وتجويد الاستعارة، وتنويع التشبيه، حتى لَيُظَنُّ أنه المبتكر لذلك؛ ويغلب على شعره التشبيب والوصفُ أيام صَبْوته[2]، وبثُّ الشكوى من الزمان وتنكر[3] الخُلّان زمن محنته — أثره فى الشعر

وقد يُفحش فى تشبيبه بالنساء وتحدُّثه عنهن، ويُشَمُّ من شعره رائحة النبل وتُلمح فيه شارات السيادة والملك: من ذلك قوله

فظل العذارَى يرتمين بلحمها   وشحمٍ كهُدَّاب الدِّمقْس المفتَّل[4]

وقوله: وظل طُهاةُ اللحم من بين منضِجٍ   صفيفَ شِواءٍ أو قديرٍ معجَّلِ[5]

ولو أن ما أسعىَ لأدنى معيشة   كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤَثَّل[6]   وقد يدركُ المجدَ المؤثَّل أمثالى

صورة شعره — وشعر[...]ان اشتمل بشَمْلة البداوة فى جفاء العبارة، وخشونة الألفاظ، وتجهم المعانى، تراه أحياناً يخطر فى حلل من حسن الديباجة، وبديع المعنى، ودقة النسيب، ومقاربة الوصف وسهولة [...]خذ: مما كان منه خَلَفَه أجمل مثال حاكَوْه فى ترقيق شعرهم وحسن تأَتّيهم فى تصوير معانيه

(١) الوحوش، وفرس قيد الاوابد يلحق الوحش لجودته ويمنعه من الفوت بسرعته فكأنها مقيدة له لا تعدو (٢) الصبو[...]ة الفتوة والشباب (٣) التنكر التغير عن حال تسرك الى حال تكرهها (٤) يق العذارى اكثر ا[...]ر يتعاين بترامى لحم ناقته التى عقرها لهن وبشحمها المكتنز الشبيه باهداب الحرير الابيض المفتول (٥) قال هذا البيت بعد ان اصطاد بقر وحش وجلس ينتظر الاكل منه فذكر انه كان معه فى خ[...] الصيد طباخون يطبخون له انواعاً منها الشواء ومنها ما يطبخ فى القدور وذلك غريب فى الصحراء، لا يفعله الا الملوك
(٦) مؤصل

فمن النوع الأول قوله فى وصف محبوبته

واذ هى تمشى كمشْىِ النزيـ   ـف[1] يَصْرَعه بالكثيب البَهَر
برَهْرَهَةٌ رُودةٌ رَخْصَةٌ   كخُرْعوبةِ البانةِ المنفطِر

وقوله فى معلقته:

وفرعٍ[2] يُغَشّى المتنَ أسودُ فاحمٍ   أثيثٌ كقِنْوِ النخلة المتعثْكِلِ
غدائرُه[3] مستشزِرات الى العُلا   تَضِلُّ المَدارى فى مثَنًّى ومرسَلِ
وكشحٍ[4] لطيفٍ كالجديل مخصَّرٍ   وساقٍ كأُنبوب السَّقِىّ المُذَلَّلِ
وتعطو[5] برَخْصٍ غير شَثْنٍ كأنه   أساريع ظَبْىٍ أو مساويكُ إسحِلِ

ومن الثانى قوله:

كأنَّ عيون الوحش حول خِبائنا   وأرحُلِنا الجَزْعُ[6] الذى لم يثقَّبِ

(١) النزف الاستخراج والنزيف المنزوف دمه من جراحة. الصرع الطرح على الارض، الكثيب التل من الرمل، البهر الكلال وانقطاع النفس، البرهرهة الرقيقة الجلد، الرودة الشابة، الرخصة الناعمة، الخرعوبة الغصن، المنفطر المتشقق الذى خرج ورقه. ومعنى البيت الاول انه شبه مشية حبيبته بمشية رجل نزف دمه حتى صار لا يقدر أن يسرع المشى لما أصابه من الضعف خصوصاً اذا كان المكان مما يصعب السير فيه ككثبة الرمال
(٢) الفرع الشعر التام، المتن الظهر، الفاحم الشديد السواد، الاثيث الكثير، القنو العذق (السباطة) المتعثكل الكثير الشماريخ الداخل بعضها فى بعض. يريد تشبيه شعر محبوبته بكباسة النخل الكثيرة الشماريخ
(٣) غدائره ذوائبه، مستشزرات مرتفعات، تضل تغيب، المدارى الامشاط ومفردها مدرى
(٤) الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف. الجديل زمام يتخذ من سيور، المخصر الدقيق الخصر، والانبوب ما بين العقدتين من القصب وغيره، والسقى المذلل يعنى البردى المسقى الملين بالارواء. يريد تشبيه كشح محبوبته بخطام الناقة المتخذ من الجلد، وساقها بنباتة البردى المسقية كثيراً
(٥) العطو التناول، الشثن الغليظ، الاساريع جمع اسروع وهو دود يكون فى البقل والاماكن الندية، وظبي اسم مكان، والاسحل شجرة تدق أغصانها فى استواء. يشبه أنامل محبوبته بهذا الصنف من الدود أو هذا النوع من المساويك
(٦) خرز أسود يخالطه بياض

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْبًا ويابسًا   لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ(١) البالى

أغرَّكِ منى أنَّ حبَّكِ قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعلِ

ولامرئ القيس المطوَّلات والمقطَّعات ، وأشهر مطوَّلاته معلقتُه المضروب بها المثل فى الاشتهار ، وأوّلها :

قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حبيبٍ ومنزلِ   بِسِقط اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ(٢)

فَتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يعفُ رسمُها   لِمَا نسجَتْها من جَنُوبٍ وشَمْأَلِ(٣)

ومنها يصف الليل :

وليلٍ كموج البحر أرخَى سُدُولَه   علىّ بأنواع الهموم لِيَبْتَلِى(٤)

فقلتُ له لمَّا تمطّى(٥) بِصُلْبه   وأردفَ أعجازًا(٦) ونَاءَ(٧) بِكَلْكَلِ(٨)

ألاَ أيُّها الليلُ الطويلُ ألاَ انْجَلِى(٩)   بِصُبْحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمْثَلِ(١٠)

فيالَكَ من ليلٍ كأنَّ نُجُومَه   بكلِّ مُغَارِ(١١) الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ(١٢)

ومنها يصف فرسه :

وقد أغتَدِى والطيرُ فى وُكُنَاتِها(١٣)   بمُنْجَرِدٍ(١٤) قَيْدِ الأوابد(١٥) هَيْكَلِ(١٦)

مِكَرٍّ(١٧) مِفَرٍّ(١٨) مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ معًا   كجُلْمُودِ(١٩) صخرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ

---

(١) اردأ التمر (٢) قال ياقوت قال السكرى الدخول وحومل وتوضح والمقراة مواضع ما بين امرة وأسود العين ، امرة مثل امعة منهل من مناهل حاج البصرة ، وأسود العين جبل بنجد يشرف على طريق البصرة الى مكة

(٣) لم يعف رسمها لم يذهب أثرها ، ونسج الريحين على البقعة اختلافهما عليها جنوباً وشمالا يعجب من عدم عفاء رسمها للسبب الذى من أجله تعفو الرسوم وهو اختلاف الرياح عليها بسفى التراب

(٤) كموج البحر فى توحشه ونكارة أمره ، والمراد بالسدول الظلمات الشبيهة بالستور

(٥) مد ظهره (٦) مآخير (٧) مقلوب نأى بمعنى بعد

(٨) الكلكل الصدر . والمعنى افرط فى الطول (٩) انكشف

(١٠) أفضل ، وذلك لانى أقاسى الهموم نهاراً كما أعانيها ليلاً

(١١) محكم الفتل (١٢) جبل بنجد (١٣) الوكنات أعشاش الطير

(١٤) ماض فى السير (١٥) الوحوش (١٦) طويل

(١٧ — ١٨) الكر الهجوم والفر الهروب وفرس مكر مفر يجيدهما (١٩) الحجر العظيم

ومن شعره يذكر رحلته الى قيصرَ مع صاحبه عمرو بن قَمِيئة الضُّبَعى(١) الشاعر ، وكان امرؤ القيس غرّه فى رحلته وأخفى عليه وجهَ قصده :

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقصرَا   وحَلَّت سُلَيْمَى بَطْنَ ظَبْيٍ فَعَرْعَرا(٢)

فدعْها وسَلِّ الهم عنها بجَسْرَةٍ   ذَمُولٍ اذا صام النهارُ وهجّرا(٣)

عليها فتًى لم تحمِلِ الأرضُ مثلَه   أبرَّ بميثاقٍ وأوفَى وأصْبرا

اذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه   وقَرَّت به العينان بُدِّلتُ آخَرَا(٤)

كذلكَ جَدّى(٥) لا أُصاحِب صاحبا   من الناس الاَّ خانَنى وتغيَّرا

تذكَّرتُ أهلى الصالحين وقد أتت   على جَمَلٍ بنا الركابُ وأعفَرَا(٦)

ولما بدت حَوْرانُ(٧) والآلُ دونَها   نَظَرْتَ فلم تَنْظُرْ بعينيك مَنْظَرَا

تقطَّعَ أسبابُ اللُّبَاناتِ(٨) والهوى   عشيةَ جاوزنا حَماةَ وشَيْزَرا(٩)

بكى صاحبى لما رأى الدربَ(١٠) دُونَه   وأيقَنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرا

فقلتُ له لا تَبْكِ عينُكَ انما   نُحاوِلُ مُلكاً أو نموتَ فنُعذَرَا

ومن أبياته السائرة :

اذا المرء لم يخزُنْ عليه لسانَهُ   فليس على شىء سواه بخزَّانِ

فإنك لم يفخَر عليك كفاخرٍ   ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مغلَّبِ(١١)

وقد طوَّفتُ فى الآفاق حتى   رَضِيتُ من الغنيمة بالإيابِ

---

(١) نسبة الى ضبيعة قبيلة من بكر (٢) جاءك الشوق بعد ماكان تركك . وظبى وعرعر مكانان الاول فى أرض كلب والثانى فى نجد

(٣) الجسرة الناقة الماضية ، والذمول السريعة ، وصام النهار وهجر اشتد حره

(٤) به من عيوب القافية سناد التأسيس

(٥) بختى وحظى (٦) جمل وأعفر موضعان بالشام

(٧) كورة واسعة من أعمال دمشق (٨) الحاجات أى تقطعت الحاجات

(٩) حماة مدينة بالشام بينها وبين شيزر مسيرة يوم ، وقد افتتحها المسلمون سنة ١٧هـ

(١٠) الدرب باب السكة الواسع وكل مدخل الى الروم فهو درب

(١١) المغلوب مراراً

(٢) النابغة الذبيانى

هو النابغة الذُّبيانى أبو أُمامة زيادُبن معاوية: أحدُ فحول شعراء الجاهلية، وزعيمهم بعُكاظ ، وأحسنُهم ديباجةَ لفظ ، وجَلاءَ معنى ، ولُطفَ اعتذار ؛ ولُقِّبَ بالنابغة لنُبُوغه فى الشعر فُجاءة وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير ؛ وهو من أشراف ذُبيان الاَّ أن تكسُّبه بالشعر غَضَّ من شرفه، على أنه لم يتكسب بشعره الاَّ فى مدح ملوك العرب ، وكان من أمره فى ذلك أنه اتصل بملوك الحيرة ومدحهم وطالت صُحبته للنعمان بن المُنذر ، فأدناه منه، واتخذه جليساً ونديماً، ووصله بجوائزه السنية ، ونوقه العصافير[1] ، حتى صار لا يأكلُ ولا يشربُ الاَّ فى صِحاف الذهب والفضة، الى أن وَشَى به عند النعمان أحد بطانته فغضب عليه وهمّ بقتله، فأسرّ اليه بذلك حاجبُه عِصام ، فهرب النابغة الى ملوك غسَّان المنافسين للمناذرة فى مُلْك العرب ، فمدح عمرَو بنَ الحارث الأصغر وأخاه النعمان ؛ غير أن قديم صحبته للنعمان ، وحسنَ صنيع النعمان عنده، ورجاء اظهار براءته، كل ذلك جعله يحنُّ الى معاودة العيش فى ظلاله، فتنصَّل مما رُمى به ، واعتذر اليه بقصائد استلت سَخيمتَه[2] وعطفتْ عليه قلبه، وحل عنده فى منزلته الأولى . وعُمِّر النابغة طويلاً ، ومات قبيل البِعثة

منشؤه وتكسبه بالشعر

* * *

شعره — أكثرُ أهل البَصَر بالشعر على أن النابغة الذبيانىّ من فحول الطبقة الأولى الجاهلية ، بل جعل بعضهم شعره غايةَ المدى الذى بلغه الشعر الجاهلى من الجمال وحسن الرونق ؛ ويَعُدُّه الكثير من الرواة فى أصحاب المعلقات . ويمتاز شعره برَشاقة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وحسن النظم ، وقلة التكلف ، حتى عُدَّ عند المُرَقِّبين من الشعراء كجرير أنه أشعر شعراء الجاهلية . وأغراه تكسُّبُه بالشعر أن يَفْتَنَّ فى ضروب المدح والاستقصاء فيه حتى مدح بالشيء وضدِّه ، فقال من قصيدة يمدح بها النعمان :

شعره

فانك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يَبْدُ منهن كوكبُ

(١) العصافير نوق نجائب كانت للملوك (٢) حقده

وقال من أخرى من اعتذارياته :

فانكَ كالليل الذى هو مُدْركى ... وإن خلتُ أن المنتأى عنك واسع

كما أغراه بلطف الاعتذار واستجلاب الرضا عندما فاته طيّب المكسب . ولعل تقديمه على الشعراء لم يكن من حكم علماء الشعر وحدَهم ، بل يظهر أنه قد شاركهم فيه شعراء الجاهلية أنفسهم، فلأمرٍ ما قدموه عليهم فى عكاظ وجعلوه حكمًا يتناشدون أمامه أشعارهم ، ويقضى لشاعر على شاعر . وله ديوان شعر شرحه البَطَلْيَوْسى[1] وطبع مراراً وان لم يجمع أكثر قوله . ومن أبلغ شعره معلقته التى أولها :

عُوجُوا فَحَيُّوا لنُعْمٍ دِمْنَةَ الدار ... ماذا تُحَيُّون من نُؤْىٍ وأحجار[2]

أقْوَى وأقْفَرَ من نُعْمٍ وغيَّره ... هُوجُ الرياح بهابى التُّرْب مَوَّار[3]

وقفتُ فيها سَرَاةَ اليومِ أسألها ... عن آل نُعْمٍ أمونًا عبْرَ أسفار[4]

فاستعجمت دارُ نُعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذاتُ أخبار

ومن جيد قوله فى الاعتذار :

أتانى (أبيتَ اللعنَ[5]) أنك لُمْتنى ... وتلك التى أهتمُّ[6] منها وأنصَبُ[7]

فبتُّ كأنَّ العائدات[8] فرشن لى ... هَرَاسا[9] به يُعلَى فِراشى ويُقْشَبُ[10]

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنى جنايةً[11] ... لَمُبْلِغُك الواشى[12] أغشُّ واكذب

(١) هو ابن السيد البطليوسى شارح أدب الكاتب لابن قتيبة ، منسوب الى بطليوس مدينة بالاندلس

(٢) عوجوا قفوا، الدمنة ما اجتمع من آثار الديار، النؤى الحفير يكون حول الخباء يمنع المطر

(٣) أقوى وأقفر خلا ، هوج الرياح جمع هوجاء وهى الشديدة ، الهابى الساف ، موّار يجئ ويذهب

(٤) سراة اليوم وسطه ، الامون الناقة التى يؤمن عثارها ، عبر اسفار أى يعبر عليها فيها

(٥) جملة دعائية يخاطبون بها الملوك تحية ، ومعناها أبيت ان تفعل شيئاً تلعن به ، وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام

(٦) أصير لاجلها ذا هم (٧) أتعب وأعيا (٨) الزائرات فى المرض

(٩) شوكاً كأنه حسك (١٠) يخلط (١١) ذنباً (١٢) النمام

ولكننى كنتُ امرأً لىَ جانبٌ(١) ... من الأرض فيه مُستَرادٌ(٢) ومهرَبُ
ملوكٌ(٣) واخوان اذا ما أتيتهم ... أُحَكَّمُ(٤) فى أموالهم وأُقرَّبُ
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترَهم فى شكر ذلك أذنبُوا(٥)
فلا تترُكنّى بالوعيد كأنّنى ... الى الناس مَطْلىٌّ به القارُ(٦) أجربُ
ألم ترَ أن الله أعطاك سَوْرَةً(٧) ... تَرى كلَّ مَلْكٍ دونها يتَذبذبُ(٨)
وأنك شمس والملوك كواكبُ ... اذا طلعت لم يبدُ منهن كوكبُ(٩)
ولستَ بمُستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أىُّ الرجال المُهذَّبُ(١٠)
فان أكُ مظلوماً(١١) فعبدٌ ظلمته ... وان تكُ ذا عُتبى(١٢) فمثلك يُعتِبُ(١٣)

ومن أبياته السائرة:

وأنت كالدهر مَبثوثاً حبائله ... والدهرُ لا ملجأٌ منه ولا هربُ
أضحَتْ خلاءً وأضحى أهلُها احتملوا ... أخنَى عليها الذى أخنَى على لُبَدِ(١٤)
نُبِّئتُ أن أبا قابوسَ(١٥) أوعدنى ... ولا قَرار على زأرٍ من الأسد
فلو كفَّنى اليمينُ بغتْكَ خونا ... لأفردت اليمينَ عن الشمال

---

(١) الجانب الناحية وأراد به الشام (٢) موضع يتردد فيه لطلب الرزق
(٣) بدل من مستراد ومهرب أو مبتدأ بتقدير فيه ملوك (٤) اتصرف كيف أشاء
(٥) قال الاصمعى كما فعلت أنت بقوم قربتهم واكرمتهم فتركوا الملوك ولزموك فلم ترَ ذلك ذنبا عليهم (٦) القطران (٧) منزلة رفيعة وشرفا (٨) يضطرب
(٩) اراد بهذا البيت والذى قبله تسلية النعمان على ما حصل منه من مدحه لآل جفنة
(١٠) تلمه تصلحه ، والشعث الفساد ، المهذب المنق من العيوب ، يعتذر بذلك عن زلته أو المعنى أى الرجال يكون مبرأ من العيوب فان قطعت اخوانك بذنب لم يبق لك أخ
(١١) جعل غضبه ظلما لأنه عن غير موجب (١٢) رضا (١٣) يرضى
(١٤) اسم لآخر ما هلك من نسور لقمان السبعة التى وهب الله له عمراً يطول بطول أعمارها فطال عمر هذا النسر حتى قيل طال الأمد على لبد ، وأخنى عليه أهلكه ويريد بالذى اخنى عليها الزمان وحوادثه
(١٥) أصل القابوس الرجل الجميل الوجه الحسن اللون وابو قابوس كنية النعمان بن المنذر أحد ملوك العرب

(٣) زُهير بن أبى سُلمى

هو زُهَير بن أبى سُلمى ربيعة بن رياح المزَنىّ ، ثالثُ فحول الطبقة الأولى من الجاهلية ، وأعفُّهم قولاً ، وأوجزُهم لفظاً ، وأغزرُهم حكمةً ، واكثرهم تهذيباً لشعره

منشؤه نشأ فى غَطَفَان وان كان نسبُه فى مُزَينةَ ، من بيت جُلّ أهله شعراء : رجالاً ونساء ، واكثر ما استفاد حكمتَه وشعرَه وأدبَه من خال أبيه بَشامةَ بن الغَدير أحد أشراف غطَفان ، وكان بشامةُ هذا مُقعَداً حازمًا شاعراً مُجيداً ، يرجعون اليه فى مُعضِل أمورهم ويقسِمُون له من غنائمهم كأفضلهم فشب زهير متخلقًا ببعض صفاته وارثًا عنه شعرَه ، ولزم أيضاً أوسَ بن حَجَر زوجَ أُمه ، وكان شاعرَ مُضر فى زمانه فروى عنه الشعر ثم ظهر عليه وأخمله . واختص زهيرٌ بمدح هَرِم بن سنان الذُّبيانى المُرّى ،

مدحه لهرم فمدحه بمدائح خَلَّدت اسمَهُ أبدَ الدهر(١) حتى ضُرب بمدحه فيه المثل كما يقول البوصيرى فى بُردته

ولم أُرِدْ زَهرة الدنيا التى اقتطفت ... يدَا زُهَيرٍ بما أثنَى على هَرِم

وأولُ ما أعجَبه من أمره وحبَّبَ اليه مدحَه حُسنُ سعيه هو والحارث بن عوف فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء ، بتحمُّلهما ديات القتلى التى بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وقال فى ذلك قصيدته احدى المعلقات السبع التى أوّلها

أمِنْ أمّ أوفَى(٢) دِمنةٌ(٣) لم تَكلَّم ... بحَوْمانةِ الدُّرّاج فالمتثلَّم(٤)

ثم تابع مدحه كما تابع هَرِم عطاءه حتى حلف ألاَّ يمدحه زهير الاَّ أعطاه ، ولا يسأله الاَّ أعطاه ، ولا يسلِّم عليه الاَّ أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زُهير

---

(١) قال عمر بن الخطاب لبعض وُلد هرم أنشدنى بعض مدح زهير أباك فأنشده فقال عمر ان كان ليحسن فيكم القول ، قال ونحن والله ان كنا لنحسن له العطاء ، قال قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . وقال رضى الله عنه لابن زهير ما فعلت الحلل التى كساها هرم أباك قال ابلاها الدهر قال لكن الحلل التى كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر
(٢) امرأة زهير (٣) ما اسودّ من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرها
(٤) حومانة الدرّاج ماء بنجد على الطريق التى بين البصرة ومكة ، والمتثلم موضع قريب منه

منه ، فكان اذا رآه فى ملأ قال : أَنعِمُوا صباحاً غير هرِم وخيرَكم استثنيت

وكان زُهَير سيداً كثير المال حليماً معروفاً بالوَرَع مُتَدَيِّناً مُؤمِناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله :

فلا تكتُمنَّ اللهَ ما فى نفوسكم   ليخفَى ومهما يُكتَمِ اللهُ يَعلمِ
يُؤخَّرْ فيُوضَعْ فى كتاب فيُدَّخَر   ليوم الحساب أو يُعجَّلْ فيُنقَمِ

وعُمِّرَ زهير ومات قبل البعثة بسنة

***

شعره شعره – لا خلاف بين أئمة الشعر ونَقَدَته فى أن زُهيراً أحدُ ثلاثة الفحول المقدَّمين فى الجاهلية على من سواهم ، وإن كثيراً منهم ليُفضلونه على صاحبيه : امرىء القيس ، والنابغة وحُجتُهم فى ذلك أنه يمتاز عنهم بالمزايا الآتية :

الموازنة بينه وبين امرىء القيس والنابغة

أولاً – حُسْن الايجاز وحذف فضول الكلام[1] وحشوه بحيث يودِع اللفظ اليسير المعنى الكثير . كقوله : فمايكُ من خيرأتَوْه فانما   توارثه آباءُ آبائهم قبلُ

ثانياً – إجادة المدح وتجنب الكذب فيه ، فلا يمدح الرجلَ الاّ بما عُرِف من أخلاقه وصفاته[2] كقوله

على مكثريهم رِزْقُ من يعتريهم   وعند المُقِلِّين السماحةُ والبذلُ

ثالثاً – تجنب التعقيد اللفظىّ والمعنوىّ، والبعد من حُوشىّ الكلام وغريبه[3] كقوله

ولو أن حمداً يُخلِد الناسَ أُخلِدوا   ولكنّ حمد الناس ليس بمُخلِد

(١) سأل معاوية الاحنف بن قيس من اشعر الشعراء قال زهير ، قال وكيف ، قال الق عن المادحين فضول الكلام ، قال مثل ماذا ، قال مثل قوله (فما يك من خير البيت)

(٢) قال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبى حارثة من قوله (على مكثريهم البيت) أن لا يملك امور الناس (يعنى الخلافة) ثم قال ما ترك منهم زهير غنيا ولا فقيراً الاّ وصفه ومدحه

(٣) قال ابن عباس قال لى عمر بن الخطاب هل تروى لشاعر الشعراء قلت ومن هو ؟ قال الذى يقول (ولو أن حمدا البيت) قلت ذاك زهير قال فذاك شاعر الشعراء ، قلت وبم كان شاعر الشعراء قال : لأنه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشىّ الشعر ولم يمدح احداً الاّ بما فيه . يعاظل بين الكلام يداخل فيه ويعقده . وحوشىّ الكلام وحشيه وغريبه

رابعاً – قلة السُّخْف والهَذَر[1] فى كلامه . ولذلك كان شعره عفيفاً . يقلّ فيه الهجاء ولقد هجا قوماً فأوجع ثم ندم على ما صنع .

خامساً – الإكثار من الأمثال والحكم بما لم يفُقْه فيه شاعر جاهلىّ وبما فتح به باب الحكم والأمثال فى الشعر العربى ، فكان كلامُه الدرب الذى سلكه الشعراء لبُلوغ الحكمة : أمثال صالح بن عبد القُدُّوس[2] وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرّى[3] من المولَّدين . ومن حكمه فى معلقته قوله :

وأعلمُ ما فى اليوم والأمسِ قبلَه   ولكنَّنى عن علم ما فى غدٍ عَمِ
رأيتُ المَنايا خَبطَ عشواء[4] من تُصِبْ   تُمِتْه ومن تُخطِىءْ يُعمَّر فيهرَمِ
ومن يجعلِ المعروفَ من دون عِرْضِه   يَفِرْه[5] ومن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتَمِ
ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضلِه   على قومه يُستَغْنَ عنـه ويُذمَمِ
ومن يُوفِ لا يُذمَم ومن يُهدَ قلبُه   الى مُطْمَئِنِّ البر لا يتَجَمجَمِ[6]
ومن هاب أسبابَ المنـايا ينَلْنه   وإن يرقَ أسبابَ السماء بسُلَّمِ
ومن يجعل المعروفَ فى غير أهلِه   يكنْ حمدُه ذماً عليـه ويَندَمِ
ومن لم يَذُدْ[7] عن حوضه بسلاحه   يُهدَّمْ ومن لا يظلِمِ الناسَ يُظلَمِ[8]
ومهما تكنْ عند امرىءٍ من خَليقةٍ[9]   وإن خالهـا تخفَى على الناس تُعلَمِ

رويّة زهير وكان زهير صاحب رويَّة وتَعَمُّل وتهذيب لما يقول ، ولا سيما مطوَّلاتُه ، حتى قيل انه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ، ويهذِّبها فى أربعة أشهر ، ويَعرِضها على

(١) السخف فى الكلام رداءته . الهذر الكثير الردىء أو سقط الكلام

(٢) من تابعى شعراء الدولة العباسية قتله المهدى لاتهامه بالزندقة

(٣) ستأتى تراجمهم ، وهم من شعراء الدولة العباسية

(٤) الخبط الضرب باليد ، والعشواء الناقة التى لا تبصر ليلا ، يريد أن المنية كالناقة العشواء تسير على غير هدى فتصيب الناس على غير نسق معروف أو ترتيب محدود

(٥) يصنه ويحفظه   (٦) يتزلزل ويضطرب   (٧) يدفع ويكف

(٨) من انقبض عن الناس وكف يده عن الامتداد اليهم رأوه مهينا ضعيفا فاستطالوا عليه وظلموه   (٩) طبيعة

خواصه فى أربعة أشهر، فلا يظهرها الاّ بعد حوْل ، ولذلك يُسمون بعض مطوّلاته الحوليات . ومما سبق فيه غيره قوله يمدح هرِمًا :

قد جعل المُبْتَغون الخيرَ فى هَرِم ... والسائلون الى أبوابه طُرُقا (١)
من يلق يومًا على عِلاَّته هرِما ... يلق السماحةَ منه والندى خُلقا (٢)
لو نال حيٌّ من الدنيا بمَكرُمةٍ ... أُفقَ السماء لنالت كفُّه الأُفقا

ومن أجود مديحه قوله :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وُجوهُهُم ... وأندية ينتابُها القولُ والفعلُ (٣)
وان جئتهم أُلفيتَ حولَ بيوتِهم ... مجالسَ قد يُشفَى بأحلامها الجهلُ
على مكثريهم رِزقُ من يعتريهم ... وعند المُقلّين السماحةُ والبذلُ (٤)
سعى بعدهم قومٌ لكى يدركوهم ... فلم يفعلوا ولم يُليموا (٥) ولم يألوا (٦)
فما كان من خير أتَوْهُ فانما ... توارثه آباءُ آبائهم قبلُ
وهل يُنْبِتُ الخطّيَّ الاَّ وشيجُهُ ... وتُغْرَسُ الاّ فى منابتها النخلُ (٧)

وقوله : وأبيضَ (٨) فياضٍ (٩) يداه غمامةٌ ... على مُعْتَفيه (١٠) ماتُغِبّ (١١) فواضِلُه
أخى ثقةٍ لا يُهلك الخمرُ ماله ... ولكنَّه قد يُهلك المالَ نائلُه
تراه اذا ما جئتَه متهلِّلاً ... كأنك تُعطيه الذى أنت سائلُه

(١) المبتغون الطالبون ، فى هرم عند هرم او منه ، جعل طلاب المعروف عند هرم طرقا الى ابوابه لكثرة ترددهم عليه وقصدهم اليه (٢) على علاته اى ان تلقه على قلة مال وعدم تجده سمحا كريما فكيف به وهو على غير تلك الحال

(٣) جمع مقامة وهى الجماعة يجتمعون فى مجلس، والاندية المجالس والانتياب القصد الى الموضع والحلول به (اى يبث فيها الجميل من القول ويعمل به)

(٤) مكثريهم اغنيائهم يعتريهم يقصدهم اى ان فقراءهم يسمحون ويبذلون جهد طاقتهم واغنياؤهم يكفون من يقصدهم (٥) يقعوا فى اللوم (٦) يقصروا

(٧) الخطىّ الرمح نسبة الى الخط وهى جزيرة فى البحرين ترفأ اليها السفن . والوشيج شجر الرماح واحده وشيجة ، اى لا تليت القناة الا فى شجرها ، ولا تغرس النخل الا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد انه لا يلد الكرام الا الكرام

(٨) نقى من العيوب (٩) كثير العطاء (١٠) الطالب لمعروفه

(١١) اى لا تأتى فى الغبّ (والغبّ أن تأتى يوما وتنقطع آخر) بل هى دائمة لا تنقطع

(٤) عنترة العبسى

هو عنترة بنُ عمرو بن شدّاد العبسى أحد فُرسان العرب وأغربتِها (١) وأجوادِها وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة

منشؤه ونسبه

وكانت أمُّه أمَةً حبشية تسمى زُبَيْبَةَ ، وأبوه من سادات بنى عَبْس وكان من عادات العرب ألاّ تُلْحِق ابن الأمة بنسبها ، بل تجعله فى عِداد العبيد ولذلك كان عنترة عند أبيهِ منبوذاً بين عُبدانهِ ، يَرْعى له إبلَه وخيلَه ، فربأ بنفسه عن خِصال العَبيد ، ومارسَ الفُروسية ومَهَر فيها ، فشبَّ فارسًا شجاعًا هُمَامًا ، وكان يكره من أبيه استعبادَه له وعدمَ الحاقه به ، حتى أغار بعضُ العرب على عبس واستاقوا ابلهم ، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترةُ لاستنقاذ الابل ، فقال له أبوه : كُرَّ يا عنترةُ . فقال : العبدُ لا يُحْسن الكرّ ، انما يُحسن الحِلابَ والصَّر (٢) ، فقال كُرَّ وأنت حُر ، فقاتل قتالاً شديداً حتى هزَم القومَ واستنقذ الابل ، فاستلحقه أبوه .

شجاعته

ومن ذلك الوقت ظهر اسمُه بين فُرسان العرب وساداتها وخاض مع عبس اكثر وقائعها . وخاصةً حربَ داحس والغَبْراء ، حتى أصبح فارس حومتها ، وحامى بَيْضَتِها ، وحتى ضُرِب به المثل فى الشَّجاعة والاقدام . قيل له يومًا أنت أشجعُ العرب وأشدُّها ، قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا فى الناس ، قال . كنت أُقْدِم اذا رأيت الإقدام عزْما ، وأُحْجِم اذا رأيت الاحجام حزما ، ولا أدخلُ موضعًا لا أرى لى منه مَخْرَجًا ، وكنت أعتَمِد الضعيفَ الجبانَ فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلبُ الشجاع فأُثنّى عليه فأقتلُه . وطال عمر عنترةَ حتى ضعُفَ جسمه وعجز عن شن الغارات ومات قبيل البعثة

⁂

شعره

شعره — لم يشتهر عنترة أوّل أمره بشعر غير البيتين والثلاثة ، وانما غلبت عليه الفروسية مكتفيًا بها حتى عيَّره يومًا بعض قومه بسواده وأنه لا يقول الشعر ، فاحتج

(١) اغربة العرب سودانهم والاغربة فى الجاهلية عنترة وخفاف بن ندبة وابو عمير بن الحباب وسليك بن السلكة (٢) الحلاب الحلب، والصر شد ضرع الناقة

لسواده بخُلُقه وشجاعته ، واحتج لفصاحته بنظم معلقته المشهورة التى كانت تسمى المُذَهَّبَةَ أيضًا وأوّلها :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ ... أم هل عرفتَ الدارَ بعد توَهُّمِ (١)

وقد ضمنها خصالَه ومكارم قومه . وحسنَ دفاعه عنهم ووفرة جُوده ، معرجًا فيها على أوصاف أمور شتَّى ، وهى من أجمل المعلقات وأسهلها لفظًا وأشدّها حماسة وفخرًا وأكثرُ ما فى سيرته الموضوعة فى زمن الفاطميين ، وما فى الديوان المنسوب اليه المستخرج من هذه السيرة منحولٌ له لا يعتدّ به

ومن قوله فى معلقته

لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمعهم ... يتَذَامرون (٢) كررتُ غيرَ مُذَمَّمِ

يدعون عنترَ والرماحُ كأنَّها ... أشطان (٣) بئر فى لَبَان (٤) الأدْهمِ (٥)

ما زلت أرميهم بثُغرة (٦) نحره ... ولَبانِهِ حتى تَسَرْبَلَ بالدم

فازوَرَّ (٧) من وَقع القنا بلَبانه ... وشكا الىَّ بعَبْرَة وتَحَمْحُمِ (٨)

لو كان يَدْرى ما المحاورةُ اشتكى ... ولكان لو علِم الكلامَ مُكلِّمِى

ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقمَها ... قِيلُ الفوارس وَيْكَ (٩) عنترُ أقدِمِ

والخيلُ تقتحمُ الخَبَارَ (١٠) عوابسا ... من بين شَيْظَمَةٍ (١١) وأجْرَدَ (١٢) شَيْظَمِ

ومنها

أثنى علىّ بما علمتِ فإننى ... سَمْحٌ مُخالطتى اذا لم أظْلَمِ

فاذا ظُلمتُ فانَّ ظلمى باسل ... مُرٌّ مَذاقتُه كطعم العَلْقَمِ

(١) تردم الرجل ثوبه رقعه و (أم) بمعنى بل والتوهم التفرس ، والمعنى لم يترك الشعراء لى شيئا اصلحه ، ثم خاطب نفسه قائلا هل عرفت دار محبوبتك بعد شدة بحثك عنها
(٢) يحض بعضهم بعضا على القتال (٣) الحبال التى يستقى بها (٤) اللبان الصدر
(٥) الحصان الاسود (٦) اعلى نحره (٧) مال (٨) العبرة تردد البكاء فى الصدر ، والتحمحم من صهيل الفرس ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له
(٩) وى كلة يقصد منها التعجب والكاف للخطاب (١٠) الارض اللينة
(١١) الفرس الطويل (١٢) الاجرد القصير الشعر الرقيقه

ومن جيد قوله :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنى الحتوفَ (١) كأننى ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزِلِ

فأجبتها ان المنيةَ مَنْهَلٌ (٢) ... لا بد أن أُسْقى بكأس المَنْهَلِ

فاقْنَىْ (٣) حياءك (لا أبالك (٤)) واعلمى ... أنى امرؤٌ سأموتُ ان لم أُقتَلِ

ان المنيةَ لو تُمَثَّلُ مُثِّلَتْ ... مِثْلى اذا نزلوا بضنك (٥) المَنْزِل

انى امرؤ من خير عبسٍ منصبًا ... شَطرى (٦) ، وأحمى سائرى بالمُنْصُل (٧)

واذا الكتيبة (٨) أحجمت (٩) وتلاحظت (١٠) ... أُلفيتُ خيرًا من مُعِمٍّ مُخْوَلِ (١١)

والخيلُ تَعلمُ والفوارسُ أننى ... فرّقتُ جمعهمُ بضربة فَيْصَلِ

والخيلُ ساهمةٌ (١٢) الوُجوه كأنما ... تُسقَى فوارسُها نَقيعَ الحَنظلِ

ولقد أبيتُ على الطَّوَى (١٣) وأظَلُّه ... حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

ومن إفراطه قوله :

وأنا المنية فى المواطن كلِّها ... والطعنُ منى سابق الآجال

(٥) عمرو بن كلثوم

هو أبو الأسود عَمْرو بن كلثوم بن مالك التغلَبى سيّد تغلِب وفارسها وأحد فُتّاك العرب وشعرائها المشهرين بقصيدة واحدة ، والمجيدين للفخر . وأمُّه ليلى بنت مهلهل أخى كليب ، نشأ عمرو فى قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية شجاعًا هُمامًا خطيبًا جامعًا لخصال الشرف ، وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفرًا فى كثير من أيامهم ؛ واكثر ما كانت فتن تغلب وحربها مع أختها بكر بن وائل بسبب

(١) الحتف الموت (٢) مشرب (٣) الزمى (٤) كلة يراد بها التنبيه والاعلام لا الجفاء والشدة (٥) ضيق (٦) نصفى (٧) السيف (٨) الطائفة من الجيش (٩) تأخرت عن الاقدام (١٠) نظر بعضهم بعضا يؤخر عينه من شدة الهول (١١) كريم الاعمام والاخوال (١٢) متغيرة عابسة (١٣) الجوع

منشوه

الحرب المشئومة المشهورة بحرب البسوس ، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر . ولم تمض مدَّة يسيرة بعد الصلح حتى حدث بين وجوه القبيلتين مُلَاحاة ومُشَاحَّة فى مجلس عمرو بن هند قام أثناءها شاعرُ بكر الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُرى وأنشد قصيدته المشهورة ، وما فرغ منها حتى ظهر لعمرو ابن كُلثوم أنَّ هوى الملك مع بكر ، فانصرف ابن كلثوم وفى نفسه ما فيها ، ثم خطر فى نفس ابن هند أن يكسِر من أَنَفَةِ تَغْلِبَ بإِذْلَال سيدِها وهو عمرو بن كُلْثُوم ، فدعاه وأُمَّه ليلى بنتَ مُهَلْهِل ، وأغْرَى هنداً أمَّه أن تَسْتَخدِمَهـا فى قضاء أمر ، فصاحت ليلى واذُلَّاه ، فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه ، ثم رحل تَوًّا الى بلاده بالجزيرة وأنشد معلقته التى أوّلها :

ألَاهُبِّى بصَحْنِك[1] فاصْبَحِينا[2]   ولا تُبْقِى خُمورَ الأنْدَرِينا[3]

يصف فيها حديثه مع ابن هند ، ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة ، ثم كان يخطب بها فى عكاظ وغيرها ، وحفظها بنو تغلب وأكثروا من روايتها . ومات عمرو ابن كلثوم قبل الاسلام بنحو نصف قَرْن

***

شعره — كان عمرو بن كلثوم من عظماء الجاهلية وأشرافهم وفُرسانهم الذين شغلتهم الرياسة وخوض الحروب عن أن يُفيضوا فى الشعر ويطرقوا أكثر أبوابه ، كدأبِ من يتَّخِذون الشعرَ مِهنةً وتجارة ، ولذلك لم يشتهر الاّ بمعلقته الواحدة التى قامت له مقام الشعر الوفير : لحسن لفظها ، وانسجام عبارتها ، وعُلو فخرها ، ونَبالة مقْصِدها ، ولولا أنه افتخر فيها وعدَّدَ مآثر قومه ما قالها ؛ ورويت له مقطَّعات لم يخرج بها عن أغراض معلقته ؛ ولعل شهرته بالخَطابة لا تقل عن شهرته بالشعر   شعره

ومن سامِى فَخره فى معلقته

وقد عَلِم القبـائلُ مِن مَعَدّ   اذا قُبَب بأبطَحها[4] بُنِينـا

(١) الصحن القدح العظيم (٢) اسقينا الصبوح وهو ما اصبح عندهم من الشراب
(٣) قرية بالشام (٤) الابطح والبطحاء مسيل واسع فيه دقاق الحصا

بأنّا المُطْعِمون اذا قدَرنا   وأنّا المُهلِكون اذا ابْتُلِينا
وأنّا المانعون لمـا أرَدْنا   وأنا النازلون بحيث شِينـا
وأنّا التّاركون اذا سَخِطنـا   وأنّا الآخذون اذا رَضِينـا[1]
ونَشرَبُ ان وردنا الماء صَفْوا   ويشربُ غيرُنا كَدِرا وطينـا
اذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً[2]   أبَيْنا أن نُقِرَّ الذلَّ فينـا
لنا الدنيا ومن أمسى عليهـا   ونبطِش حين نبطِش قادرينـا
بُغاةً ظالمين وما ظُلِمنـا   ولكنّا سنبدأ ظالمينـا
ملأنا البَرَّ حتى ضاق عنـا   ونحن البحرَ نملؤه سَفِينـا
اذا بلغ الرضيعُ لنـا فِطاما   تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدينـا

وقال يتوعد عمرو بن أبى حجر الغسانى

ألَا فاعلم (أبيتَ اللعنَ) أنّا   على عَمْد سنأتى ما نُريد
تَعَلَّمْ أن محمَلَنا ثقيـل   وأن زِياد[3] كُبَّتِنا[4] شديدُ
وأنا ليس حىٌّ من مَعَدّ   يوازننا اذا لُبِس الحـديد

(٦) طرفة بن العبد

منشؤه   هو عمْرو بن العبد البكرىّ أقصرُ فحول الجاهلية عُمراً ، وأجودهم طويلةً وأوصفهم للناقة ، مات أبوه وهو صغير ، وَوَلِىَ أمرَه أعمامُه ومال الى البَطالة واللهو والأخذ بأسباب الصَّبْوةِ والفُتُوَّةِ وقولِ الشِّعرِ والوقوعِ به فى أعراض الناس ، حتى هجا قومه وأهله ، وحتى هجا عمرو بن هند ملك العرب على الحيرة ، مع انه كان يَتَطَلَّبُ معروفه وجُودَه ، فبلغ عمْرَو بن هند هجاه طرفة له ، فاضطغنها عليه ، حتى اذا ما جاءه هو وخاله المتلمس يتعرضان لفضله — وكان قدْ بلغه عن المتلمّس مثلُ ما بلغه

(١) لا نقبل عطايا من غضبنا عليه ونقبل هدايا من رضينا عنه (٢) اولاهم ذلا
(٣) دفاع (٤) جماعتنا

عن طرفة – أظهر لهما البشاشة والوداد ليُؤَمِّنهما وأمر لكل منهما بجائزة وكتب لهما كتابين وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه ، وبينا هما فى الطريق ارتاب المتلمس فى صحيفته فعرّج على غلام يقرؤها له (ومضى طرفة) فاذا فى الصحيفة الأمر بقتله ، فألقى الصحيفة وأراد أن يلحق طرفة فلم يدركه ، وفرّ الى ملوك غسّان ، وذهب طرفة الى عامل البحرين وقتل هناك وعُمره نحو ست وعشرين سنة

***

شعر

شعره – قال طرفة الشعر وهو صبى فَنَبغ فيه حتى عُدَّ من الفحول ولم ينيِّف على العشرين ، وزاد عليهم بقصيدته الطويلة التى وصف فيها الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً وصفاً لم يسبقه اليه أحد ، وتعد معلقته من أجود المعلقات واكثرها غريباً وأغزرها معنًى ، ورُوِى له غيرها من الشعر ولكنه قليل بالنسبة لشهرته وربما دل هذا على أن الرواة قد جهلوا اكثره

ويُجيد طرفةُ الوصف فى شعره مقتصراً فيه على بيان الحقيقة بعيداً عن الغلو والاغراق، وكذلك كان هجاؤه على شدَّة وقعه ؛ ومطلع معلقته

لِخَوْلَةَ(1) أطلالٌ بِبُرْقَةِ(2) ثَهْمَدِ(3) ... تَلُوح(4) كباقى الوَشْمِ(5) فى ظاهر اليد

ومنها

رأيتُ بنى غَبْرَاءَ(6) لا يُنْكِرونَنى ... ولا أهلُ هاذاكَ الطِّرافِ(7) المُمَدَّدِ

ألا أيها ذا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الوَغى(8) ... وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مُخْلِدِى

فان كنتَ لا تسطيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِى ... فدعْنى أُبادِرْها بما مَلَكَتْ يدى

الى أن قال

أرى الموتَ يَعْتَامُ(9) الكرامَ ويصطفى ... عَقِيلَةَ(10) مالِ الفاحش المُتَشَدِّدِ

---

(1) اسم محبوبته (2) البرقة مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى
(3) موضع فى ديار بنى عامر (4) تلوح تلمع
(5) النقش على اليد وغيرها بالنيلج وهو المسمى الان (بالدق)
(6) الغبراء الارض والمراد الفقراء (7) البيت من الادم
(8) الا أيها الانسان الذى يلومنى على حضور الحرب وحضور اللذات هل تخلدنى ان كففت عنهما (9) يختار (10) كرام المال

أرى العيشَ كَنْزاً ناقصاً كلَّ ليلة ... وما تَنْقُصِ الأيامُ والدهرُ ينفَدِ

لَعَمْرُكَ إن الموت (ما أخطأ الفتى) ... لكالطِّوَلِ(1) المُرْخَى وثِنْياه(2) باليدِ

متى ما يشأ يوماً يَقُدْه لحَتْفِه ... ومن يكُ فى حبلِ المنيـة يَنْقَدِ

ومن أبياته السائرة

وظُلْمُ ذوى القربى أشدُّ مَضاضةً ... على المرء من وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

أرى الموتَ أعدادَ(3) النفوسِ ولا أرى ... بعيداً غداً ، ما أقربَ اليومَ من غـد !

ستُبْدِى لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُه ... لا تَرَكَ اللهُ له واضِحَه(4)

كلُّهُمُ أَرْوَغُ(5) من ثعلبٍ ... ما أشبهَ الليلةَ بالبارِحَه !

قد يَبْعَثُ الأمرُ الصغيرُ كبيرَه ... حتى تَظَلَّ له الدماءُ تَصَبَّبُ

وأعلمُ علماً ليس بالظن أنه ... اذا ذَلَّ مَوْلَى المرء فهو ذليلُ

وإن لسانَ المرء ما لم يكنْ له ... حَصَاةٌ(6) على عَوْراتِه لدليلُ

ومن قوله يفتخر

نحن فى المَشْتَاةِ(7) ندعو الجَفَلَى(8) ... لا تَرَى الآدِبَ(9) فينا يَنْتَقِرْ(10)

---

(1) الطول الحبل الذى يطوّل للدابة فترعى فيه
(2) الثنى الطرف والجمع أثناء ، والمعنى اقسم بحياتك أن الموت مدة مجاوزته للفتى بمنزلة حبل طول للدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه ، فكما ان الدابة لا تفلت ما دام صاحبها آخذاً بطرفى طولها فكذلك الانسان لا يهرب من الموت
(3) جمع عدد ، أى لكل انسان ميتة فاذا ذهبت النفوس ذهبت ميتهم كلها ، او جمع عد بالكسر وهو الماء الذى لا تنقطع مادته وكل احد يرده (4) الواضحة الاسنان تبدو عند الضحك (5) راغ الثعلب ذهب يمنة ويسرة فى سرعة خديعة فهو لا يستقر فى جهة
(6) يقال فلان ذو حصاة وأصاة أى عقل ورأى ، والمعنى اذا لم يكن مع اللسان عقل يحجزه عن بسطه فيما لا يجب ، دل اللسان على عيب صاحبه بما يلفظ به من عور الكلام
(7) اى زمن الشتاء والبرد وهو أشد الزمان عندهم لما فيه من المحل والجدب
(8) الدعوة العامة الى الطعام (9) الذى يدعو الى المأدبة
(10) يدعو النقرى وهى الدعوة الخاصة

حين قال الناس في مجلسهم ... أقُتارٌ(١) ذاك أم ريح قُطُر(٢)
بجفانٍ تعترى(٣) نادينا ... من سديفٍ(٤) حين هاج الصِّنَّبر(٥)
كالجوابي(٦) لا تني(٧) مترعةً(٨) ... لقرى(٩) الأضياف أو للمُحْتَضِر(١٠)
ثم لا يُخزَن فينا لحمُها ... انما يُخزَن لحم المدَّخِر
ولقد تعلم بكرٌ أننا ... آفةُ الجُزْرِ مساميح يُسُر(١١)
ولقد تعلم بكر أننا ... فاضلو الرأى وفى الرَّوْع وُقُر(١٢)
يكشفون الضرَّ عن ذى ضُرِّهم ... ويُبِرُّون على الآبى المُبِر(١٣)
فُضُلٌ أحلامُهم عن جارهم ... رُحُبُ الأذرع بالخير أُمُر(١٤)
ذُلُق في غارةٍ مسفوحة ... ولدى البأس حماةٌ ما نفُر(١٥)
نُمسِك الخيلَ على مكروهها ... حين لا يُمسِكها الا الصُّبُر(١٦)

(٧) أعشى قيس

منشؤه وتكسبه بالشعر هو أبو بَصير مَيْمُونُ الأعشى بنُ قيس بنِ جَندلٍ القيْسى ، رابعُ فحول الجاهلية ، وأمدحهم للملوك ، وأوصفُهم للخمر ، وأغزرهم شعراً ، وأكثرُهم عَروضاً وافتناناً ، وطوالاً جياداً ؛ وينتهى نسبُه الى بكر بن وائل ؛ وكان من أهل اليمامة ، يسكن قرية

(١) ريح شواء (٢) العود الذى يتبخر به (٣) تلم وتأتى نادينا
(٤) شحم السنام (٥) اشد ما يكون من البرد (٦) جمع جابية وهى الحوض العظيم
(٧) لاتفتر بل هى لا تزال (٨) مملوءة (٩) لاكرام الاضياف
(١٠) النازلين معنا على الماء
(١١) الجزر جمع جزور والمساميح الاسخياء واليسر الداخلون فى الميسر والمفرد يسور
(١٢) جمع وقور أى لا تتزعزع (١٣) أبر عليه غلبه، والآبى الممتنع ، والمبر الغالب ، أى يغلبون الغالبين للناس (١٤) جمع أمور وهو الكثير الأمر
(١٥) أى مسرعون الى الغارة متقدمون فيها واصله من ذلق السيف اذا كان يخرج من غمده ، ومسفوحة مصبوبة
(١٦) أى نمسك الخيل على ما تلقاه من شدة الحرب وجهدها ولا نهزم ، وانما ذكر مكروه الخيل لأنها اذا اصابها مكروه فى الحرب فهم أجدران يصيبهم

منها تُسمَّى مَنْفُوحة . ونشأ فى بدء أمره راويةً لخاله المُسَيَّب بن عَلَس أحدِ الشعراء المُقِلّين المُجيدين . وكان الأعشى يُطْرِى شعرَه ويأخذُ منه ، حتى اذا جاد شعره، ونبُه شأنه، قصد الملوكَ والأجواد ، وطوّف اليهم الآفاق ، وَأقاصى البُلدَان مادحاً لهم مُستَجْدِياً عطاياهم وهو أوّل من صرَّح فى شعره ، بالسؤال وطلب الحاجة ، فوضع ذلك من شانه ، وكان الشعراء قبله يمدحون ولا يسألون ، وكان يَنْتَاب بالمديح **ممدوحوه** بنى عبد المَدَان ملوكَ نَجْران وأساقِفَتَها ، يُقيم عندهم ما يشاء ، يشرب الخمرَ ويسمع الغناء ، ويأخذ عنهم بعض آرائهم فى العقائد ، فجاد لذلك وصفُه للخمر ، وظهر بعض معتقدهم فى كلامه ، كما كان ينتاب ملوك الحيرة وخاصةً الاسودَ أخا النعمان بن المنذر ، وما زال هذا شأنَه، حتى طمع فى جوائز كسرى، فرحل اليه يمدحه بالشعر العربىّ ، فأجزَل عطاءه وان لم يرُقْ عنده شعرُه ، لسوء ترجمته له

وعمِىَ الأعشى ، وطال عمره ، حتى كان الاسلامُ وعظُم أمرُ النبى صلى الله عليه وسلم بين العرب ، فأعدَّ له قصيدةً يمدحه بها ، وقصده بالحجاز ، فلقيه كفارُ قُريش وصدّوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء ، ويرجعَ الى بلده : لتَخَوُّفِهم أثر شعره ففعل ؛ ولما قرُب من اليمامة سقط عن ناقته فدُقت عنقه ومات ، ودفن ببلدته منفوحة باليمامة

* *

صورة شعره شعره – يُعَدُّ الأعشى عند الكثيرين رابعاً لثلاثة الفحول : امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وان كان يمتازُ عنهم بغزارة شعره ، وكثرة ما روى له من الطوال الجياد ، ونظمِه من اكثر أعاريض الشعر وضروبه ، وتفنُّنه فى كل فن من أغراضه ، واشتهر من بينهم بالمبالغة فى وصف الخمر ، حتى قيل : أشعر الناس امرؤ القيس اذا ركِب ، وزهير اذا رغِب ، والنابغة اذا رهِب ، والأعشى اذا طرب . ولشعره طَلَاوة ورَوْعة ، ليست لكثير من شعر غيره من القدماء . ولقوَّة طبعه وجَلَبَة شعره سُمِّىَ صَنَّاجة(١) العرب حتى ليُخَيَّل اليك اذا أنشدت شعره أن آخر ينشِد معك ،

(١) وقيل سمى صناجة لذكره الصنج فى شعره وهى آلة موسيقية (العمدة)

اثر شعره

وللجلالة شعر الأعشى فى صدور العرب ، وسرعة طيرانه بين قبائلهم كان يرفع الوضيعَ الخامل ، ويخفض الشريف النابه ، ومن الذين رفعهم شعر الأعشى المحلَّق [1] . وقد كان أبا ثمان بنات عوَانس : رغبت عن خِطبتهنَّ الرجالُ لفقرهنَّ . فاستضافه على فقره ، فمدحــه الأعشى ونوَّه بذكره فى عكاظ ، فلم يمضِ عام حتى لم تبق جارية منهنَّ الَّا وهى زوج لسيد كريم ، وكان الأعشى يتظرَّف فى شعره ، ويتملَّح بذكر بعض أسماء الآنية والأزهار باللغة الفارسية، إعلانًا منه أنه دخل بلاد القوم، وجالسهم وصدر عن ملوكهم . وعده بعضهم من أصحاب المعلقات ، وذكر قصيدته التى يمدح بها الاسود الكِندى ومطلعها :

استعماله للالفاظ الاعجمية

ما بكاء الكبير بالأطلال	وسؤالى وما تردُّ سؤالى

ومن جيد شعره قصيدتُه التى أعدَّها ليُنشدها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدحه فيها فلم يفزْ بذلك وأوَّلها

ألم تَغتَمِضْ عيناك ليلةَ أرمَدا [2]	وبتَّ كما باتَ السليمُ [3] مُسَهَّدا [4]
وما ذاك من عشقِ النساء وانما	تناسيتَ قبل اليوم خُلَّةَ [5] مَهْدَدا [6]
ولكن أرَى الدهرَ الذى هو خائن	اذا أصلحتْ كفَّاىَ عاد فأفسدا
شبابٌ وشَيْبٌ وافتقــار وثروة	فلله هذا الدهر كيف تردَّدا [7]

ومنها يتحدَّث عن ناقته ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم

فآليت لا أرْثِى لها من كَلالة [8]	ولا من حَفًى [9] حتى تُلاقى محمدا
متى ما تُناخى عند باب ابن هاشم	تُراحى [10] وتلقَىْ من فواضله ندى
نبىٌّ يرَى ما لا يرَوْن وذِكرُه	أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا [11]
له صدقات ما تُغِب [12] ونائل	وليس عطــاء اليوم يمنعه غدا

---

(١) سمى كذلك لأن فرساً عضه فصار موضع عضته كالحلقة
(٢) رجل أرمد به رمد فى عينيه (٣) الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلاً
(٤) لا ينام (٥) صداقة (٦) اسم محبوبته (٧) تغير (٨) تعب
(٩) رقة القدم (١٠) تستريحى (١١) اغار دخل الغور وهو كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، وانجد دخل النجد وهو ضدّ الغور (١٢) تنقطع

وقصيدته فى مدح المحلَّق أوَّلها

أرِقتُ [1] وماهذا السُّهادُ المُؤرِّق؟	وما بىَ من سُقْم وما بى تَعَشُّق

ومنها :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة	الى ضوء نار فى اليَفاع [2] تَحَرَّق
تُشَبُّ لمِقْرُورَين [3] يصْطَلِيانها [4]	وبات على النار الندى [5] والمحلَّق
رضيعَىْ لِبانٍ ثدىَ أُمٍّ تقاسما	بأسْحمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرَّق [6]
ترى الجودَ يجرى ظاهراً فوق وجهه	كما زان متنَ الهِنْدُوانىِّ رونقُ
يداه يدا صدقٍ فكفٌّ مبيدةٌ [7]	وكفٌّ اذا ما ضُنَّ بالمال تنفقُ

ومن أبياته السائرة

عُلِّقتهـا عرضًا وعلِقتْ رجُلاً	غيرى وعلِّق أُخرى ذلك الرجل
كناطحٍ صخرةً يومًا ليُوهنَهـا	فلم يَضِرْها وأوهَى قرنَهُ الوَعِلُ

وقال يعتذر الى اوس بن لام [8] عن هجائه اياه :

وانى على ما كان منى لنادمٌ	وانى الى أوسِ بن لامٍ لتائب
وانى الى أوسٍ ليقبل عِذْرتى [9]	ويصفحَ عنى (ما حَييتُ) لراغب
فهبْ لى حياتى فالحيــاة لقائم	بشكرك فيها خيرُ ما أنت واهب
سأمحو بمدحٍ فيك اذ أنا صادقٌ	كتابَ هجاء سار اذ أنا كاذب

(٨) الحارث بن حِلِّزة

هو الحارث بن حِلِّزة اليشكرىّ البَكرىّ أحدُ أصحاب المعلَّقات ، والمشهورين بالواحدات ، والمجيدين على البديهــة والارتجال ، والمضروبِ بهم المثَل فى الحماسة

---

(١) سهرت (٢) التل (٣) اصابهما البرد (٤) يستدفئان بها (٥) الكرم
(٦) بأسحم داج يريد ليلاً شديد السواد ، والمعنى ان الكرم والمحلق رضعا من ثدى واحد وتعاهدا على أنهما لا يفترقان أبداً (٧) متلفة (٨) بنو لام من طيء (٩) عُذرى

والافتخار ، ويتصل نسبه الى بكر بن وائل . وكان فيها بمنزلة عمرو بن كلثوم فى تغلب . ولم يؤثر عنه غيرُ قطع يسيرة و قصيدتهِ المعلقة التي مطلعها :

آذنَتْنا (١) ببَيْنِها (٢) أسماء رُبَّ ثاوٍ (٣) يُمَلُّ منه الثَّواء

سبب ارتجال المعلقة — وكان من أمر هذه المعلقة أن عمرَو بن هند أحدَ ملوك الحيرة أصلح بين بكر وتغلبَ بعد حربهم المشهورة بحرب البسوس . وأخذ من كلا الفريقين رهائنَ من أبنائهم ليكف بعضُهم عن بعض ، وليُقيدَ منها للمعتدَى عليه من المعتَدِي ، فحدث أن سرّح الملك ركبًا من تغلب فى بعض حاجتهِ ، فزعمت تغلبُ أن الركبَ نزلوا على ماء لبكر ، فأجلوهم عنـه ، وحملوهم على المفازة فماتوا عطشًا ، وتزعم بكر أنهم سقَوْهم وأرشدوهم الطريق فتاهوا وضلوا وهلكوا ، وذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو بن هند ، وكانت ضِلَعُهُ مع تغلِب ، فهاج ذلك الحارثَ بنَ حلّزة وكان فى المجلس

اثر شعره — مستوراً عن الملك بستارة لما فيه من البرص ، فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً يفتخر فيها بقومه وفعالهم ، وحسن بلائهم عند الملك وعظم أيامهم معه ، فما أتمَّ قصيدته حتى انقلب الملك الى جانب البكريين واستدنى الحارث ورفع الستر بينه وبينه حتى صار معه فى مجلسه . وعُمِّر الحارث طويلاً حتى قيل : انه أنشد هذه القصيدة وعمره خمس وثلاثون ومائة سنة

* * *

وصف شعره — شعره – أكثرُ الرواة ونَقَدَة الشعر مُعْجَبون بارتجال الحارث بن حلّزة قصيدتَهُ على طولها وإحكام نظمها ، وكثرة غريبها ، وتعدُّد فنونها ، واشتمالها على كثير من أيام العرب ووقائعها

ومن قوله فيها وهو أوجزُ ما قيل فى وصف التأهُّب للارتحال وأصدقهُ وأوضحهُ تصويراً للحقيقة :

(١) أعلمتنا (٢) فراقها (٣) مقيم

أجمعـوا أمرَهم عِشاءً فلمّـا أصبحوا أصبحت لهم ضَوْضاء (١)
من مُنادٍ ومن مُجيبٍ ومن تَصْـهالِ خيل خلالَ ذاك رُغاء (٢)

ومن قوله فيها :

لا يُقيم العزيزُ بالبلد السَّهْـلِ ولا ينفعُ الذليلَ النَّجاء (٣)
ليس يُنْجى مُوائلاً (٤) من حِذار رأسُ طَوْد وحَرَّةٌ رَجْلاء (٥)

ومن قوله فى غير المعلقة :

مَن حاكمٌ بيني وبيـن الدهر مال علىَّ عَمْدا
أودَى بسادتنا وقـد تركوا لنا حَلَقًا (٦) وجُرْدا (٧)
خيلى وفارسها وربِّ م أبيك كان أعزَّ فَقْـدا
فلو آن ما يأوى الىَّ م أصاب من ثَهْلانَ (٨) هَدَّا
فضعى قناعَكِ (٩) ان ريب الدهر قـد أفنى مَعَدَّا
فلَكَم رأيت معاشِراً قـد جمَّعوا مالاً ووُلْدا
وهمُ رَباب حائر (١٠) لا يُسْمِع الآذانَ رعدا
فعش بجَدِّ لا يضِرْ كَ النُّوكُ (١١) مالاقيت جَدًا (١٢)
والعيش خـير فى ظلا ل النُّوكِ ممن عاش كدًّا

ومن قوله :

ان السعيد له فى غيره عظة وفى التجارب تحكيمٌ ومُعتبَر

---

(١) الضوضاء اختلاط الاصوات (٢) الرغاء صوت البعير (٣) الاسراع فى السير
(٤) وأل هرب وفزع كوائل (٥) الحرة الارض ذات الحجارة السوداء النخرة والرجلاء الغليظة الشديدة التي يترجل فيها يريد ان الشركان شاملاً لم يسلم منه العزيز ولا الذليل ، وان الهارب منهم لم ينجه تحصنه بالجبل ولا بالحرة الغليظة الشديدة
(٦) سلاحاً (٧) خيلاً (٨) جبل لبنى نمير (٩) القناع ما تستر به المرأة رأسها
(١٠) سحاب أبيض لم يتجه جهة (١١) الحمق (١٢) حظا

(٩) لبيد بن ربيعة

هو أبو عَقيل لبيدُ بن ربيعة العامريّ ، أحد أشراف الشعراء المجيدين ، والقوَّاد الفُرسان المعمَّرين ، والأجواد العريقين ، والحكماء المحنَّكين ، وهو من بنى عامر بن صَعْصَعةَ احدى بطون هوازن من مضر ، وأمُّهُ عَبْسية . نشأ لبيد جواداً شجاعاً فاتكًا ، أما الجود فورثه عن أبيه الملقب بربيعةِ المعتَرّين ، وأما الشجاعةُ والفتكُ فهما خصلتا قبيلته اذ كان عمُّهُ ملاعبُ الأسنَّة أحدَ فُرسان مضرَ فى الجاهلية ، وكان بين قبيلته وبين بنى عبس أخواله عداوةٌ شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان بن المنذر ، وعلى العبسيين الربيعُ بن زياد ، وعلى العامريين ملاعبُ الأسنة ، وكان الربيع مقرَّبًا عنــد النعمان يؤاكله وينادمه ، فأوغر صدرَه على العامريين ، وعدَّد معايبَهم ومخازيَهم ، فلما دخل وفدُهم على النعمان غض منه وأعرض عنه ، فَشَقَّ ذلك عليهم وخرجوا غضابًا يتذاكرون فى أمرهم مع الملك ، ولبيد يومئذٍ صغير يسرح إبلهم ويرعاها ، فسألهم عن خطبهم ، فاحتقروه لصغره ، فألحَّ حتى أشركوه معهم ، فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غداً عند النعمان أسوأ انتقام : بهجاء لا يجالسه بعده ولا يؤاكله ، فكان ذلك ، ومقت النعمانُ الربيعَ ولم يقبل له عذراً ولم يجتمع به بعدُ ، وأكرم العامريين وقضى حوائجهم ، فكان هذا أوّلَ ما اشتهرَ به لبيد ، ثم قال بعد ذلك المقطَّعات والمطوَّلات ، وشهد النابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن حين سمع معلَّقته التى أوَّلها :

عفَتِ الديارُ محلُّها فمُقامُهـــا ... بِمِنًى تأبَّدَ غَولُها فرِجامُها[1]

ومن حوادث فتكه ان الحارث الأعرجَ الغسَّانى أرسل مائة من الفتيان الفُتَّاك على رأسهم لبيد ، ليغتالوا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، فذهبوا اليه وأظهروا انهم

منشؤه

سبب قوله الشعر

(١) الديار فى الاصل ما حُلّ فيها لايام معدودة ، والمقام ما طالت الاقامة به ، ومنى موضع بنجد غير منى مكة ، تأبد توحش ، الغول ما انهبط من الارض ، والرجام واحده رجمة وهى الهضاب وقيل الغول والرجام موضعان

أتوه داخلين فى طاعته ، فأدناهم اليه ، ولما صادفوا منه غِرَّةً قتلوه وهربوا ، فتبعهم جنود المنذر وقتلوا كثيراً منهم وفرَّ الباقى وفيهم لبيد ، ولما ظهر الاسلام وأقبلت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم جاء لبيد فى وفد بنى عامر وأسلم وعاد الى بلاده وحسن اسلامه ، وتنسك وحفظ القرآن كله وهجر الشعر حتى لم يروَ له فى الاسلام غير بيت واحد وهو[1] :

اسلامه وهجره للشعر

ما عاتب الحرَّ الكريمَ كنفسه ... والمرء يصلحه الجليسُ الصالح

وبعد أن فتحت الأمصار ذهب الى الكوفة زمن عمر بن الخطّاب واختارها دار اقامة . ومن أحاديث جوده أنه نذر فى الجاهلية (ألَّا تهب الصَّبا الا اطعم) وألزم ذلك نفسه فى الاسلام ، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح على مسجد قومه بالكوفة فهبت الصَّبا والوليد بن عقبة والى الكوفة على المنبر ، ولبيد يومئذٍ قليل المال ، فحرَّض فى خطبته الناسَ أن يعينوه على مروءته ففعلوا ، وبعث هو اليه مائة بكرة ، فشكرته ابنة لبيد عن أبيها على ذلك بشعر جميل ، وما زال بالكوفة حتى مات فى أوائل خلافة معاوية سنة احدى وأربعين من الهجرة ، ومن ذلك تعلم أنه من كبار المعمَّرين ، وقد قيل إنه عاش ثلاثين ومائة سنة

***

وصف شعره

شعره — انما جعلنا لبيداً فى فحول الجاهلية وان عُمّر فى الاسلام أكثر من أربعين سنة : لأنه كما قدَّمنا لم يكن شاعراً فى الاسلام ، بل لم يصح عنه فيه الَّا بيت واحد ، وقال لبيد الشعر ونبغ فيه وهو غلام ، وجرى فيه على سَنَن الأشراف والفُرسان : كعنترة وعمرو بن كلثوم ، فلم يجعله مورد كسب ، ولذلك ترى فى شعره ولاسيما معلقته نَبالة الفخر والتحدّث بالفتوة والنجدة والكرَم وإيواء الجار وعزَّة القبيل ، ويُشابه علُوّ همته جزالة لفظه ، وفخامة عبارته ، ودقة معانيــه ، وشرف مقاصده ، وقلة اللغو فى قوله ، وكثرة اشتماله على عقائد الايمان والحكمة الصادقة ،

(١) وقيل هو : الحمـــــد لله اذ لم يأتنى أجلى ... حتى اكتسيتُ من الاسلام سربالا

والموعظة الحسنة . وقد ثبت فى الصحيحين شهادةُ النبى صلى الله عليه وسلم له بقوله أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمةُ لبيد (ألا كل شىء ما خلا الله باطل) . وهو ممن يجيد الرثاء من الجاهليين ، ويأتى فيه بأبدع الحكم والأمثال التى تذهب الأحزان ، وتسلى الهموم وتهوّن على النفس ألم المصيبة ، وعبارته فيه سهلة تخلص الى النفس بلا عائق من غرابة فى لفظ ، أو تعقيد فى معنى

ومن جيد شعره قوله فى معلقته مفتخراً بفعاله وقوله وقومه :

انَّا اذا التقت المجامع لم يزل	منا لِزَازُ عظيمة جَشَّامُهـا (١)
ومقسِّمٌ يعطى العشيرةَ حقَّها	ومُغَذْمِرٌ لحقوقها هضَّامُهـا (٢)
فضلاً وذو كرم يعين على الندى	سَمْحٌ كَسُوبُ رغائبٍ غَنَّامُها (٣)
من معشر سَنَّت لهم آباؤهم	ولكل قوم سنَّة وإمامُهـا
لا يَطْبَعون ولا يبور فَعالُهم	اذ لا تميل مع الهوَى أحلامُها (٤)
فاقنع بما قَسَمَ المليكُ فانما	قسم الخلائقَ بيننا علاَّمُهـا
واذا الأمانةُ قُسِّمت فى معشرٍ	أوفَى بأوفرِ حظنا قسَّامُهـا
فبنى لنا بيتًا رفيعًا سمكُهُ	فسما اليه كهلُها وغلامُهـا
وهمُ السُعاة اذا العشيرة أُفْظِعَت	وهمُ فوارسها وهمْ حكَّامُها (٥)
وهمُ ربيعٌ للمُجـاور فيهمُ	والمُرمِلاتِ اذا تطاوَل عامُها (٦)

---

(١) رجل لزاز الخصوم يصلح لأن يلز بهم أى يقرن ليغلبهم ويقهرهم ، جشم الامر كسمع تكلفه على مشقة وجشام مبالغة منه أى لا تخلو المجامع من رجل منا يتحلى بقمع الخصوم ويتكلف الخصام

(٢) الغذمرة الغضب ، والهضم الظلم يريد منا الذى يقسم الغنائم فيوفر على العشائر حقوقها ويتغضب عند اضاعة شىء منها ويهضم حقوق عشيرته اذا ظلمت وجارت

(٣) الرغائب جمع رغيبة وهى العطاء الكثير ، والأمر المرغوب فيه ، وفضلاً أى يفعل ذلك تفضلاً (٤) الطبع تدنس العرض وتلطخه ، والبوار الفساد ، والاحلام العقول

(٥) أفظعت أصيبت بأمر فظيع (٦) ارمل القوم نفد زادهم اى هم لمن جاورهم وللنساء اللاتى نفدت ازوادهن بمنزلة الربيع لعموم نفعهم واحيائهم اياهم بجودهم

وهمُ العشيرة أن يُبَطِّئَ حاسدٌ	أو أن يميل مع العدوّ لئامُها (١)

وقال يرثى أخاه أربد :

بَلِينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ	وتبقى الديار بعدنا والمصانعُ (٢)
وقد كنتُ فى أكناف جارِ مَضِنَّة	ففارقنى جارٌ بأربدَ نافعُ (٣)
فلا جَزَعٌ ان فرَّق الدهر بيننا	فكل امرئٍ يومًا به الدهر فاجعُ
وما الناس الاَّ كالديار وأهلهـا	بها يوم حلُّوها وراحوا بلاقعُ (٤)
وما المرء الاَّ كالشهاب وضوئه	يحور (٥) رماداً بعد اذ هو ساطعُ
وما المال والأهلون الاَّ ودائعٌ	ولا بدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ
وما الناس الاَّ عاملان : فعامل	يتبّر (٦) ما يبنى وآخر رافعُ
فمنهمْ سعيد آخذ بنصيبـه	ومنهمْ شقىٌّ بالمعيشة قانعُ

ومنه قوله فى النعمان يرثيه :

ألا تسألان المرء ماذا يحـاولُ	أنحبٌ فيُقْضَى أم ضلال وباطلُ (٧)
أرى الناس لا يدرون ما قدرُ أمرهم	بلى كل ذى لبٍّ الى الله واسلُ (٨)
ألا كل شىء ما خلا اللهَ باطل	وكل نعيم لا محالة زائلُ (٩)
وكل أُناس سوف تدخل بينهم	دُوَيهيةٌ تصفرُّ منها الأناملُ (١٠)

---

(١) هم متعاضدون كراهيـة ان يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض او ان يميل لئامهم الى الاعداء (٢) المبانى من القصور والحصون (٣) اكناف ظلال ، جار مضنة يضن به ويتنافس فيه ، بأربد اى هو اربد (٤) البلقع الارض القفر والجمع بلاقع

(٥) يرجع (٦) يهلك ويهدم

(٧) السؤال بمعنى الاستفهام ، والمحاولة استعمال الحيلة ، والنحب النذر – اسألوا هذا الحريص على الدنيا عما هو فيه اهو نذر نذره على نفسه فلا بد من فعله ام هو ضلال وباطل من امره

(٨) الواسل الطالب والراغب الى الله – ارى الناس لا يعرفون ماهم فيه من خطر الدنيا وسرعة زوالها فالعاقل من يتوسل الى الله بالطاعة والعمل الصالح

(٩) كل شىء غير الله تعالى زائل وفائت ومضمحل ليس له دوام

(١٠) التصغير للتعظيم والمراد الموت ، والمقصود من الانامل الاظفار لأن صفرتها لا تكون الا بالموت

وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه — اذا كُشِّفت عند الإله الحصائلُ(١)

اذا المرء أسرى ليلة خال أنه — قضى عاملاً والمرء ما دام عاملُ(٢)

فقولا له ان كان يَقسم أمره — ألمَّا يعظْكَ الدهرُ، أمُّكَ هابلُ(٣)

فتعلَمَ أن لا أنت مدركُ ما مضى — ولا أنت مما تحذَرُ النفس وائلُ(٤)

فان أنت لم ينفعك علمك فانتسب — لعلك تهديك القرون الأوائلُ(٥)

فان لم تجد من دون عدنان والداً — ودون مَعَدّ فلْتَزَعْكَ العواذلُ(٦)

الرواية والرواة

قد علمنا مما تقدم أن عامة المرويّ من كلام العرب شعرها ونثرها وأخبارها معزوّ الى أهل البدو الأميين، ولذلك لم يصل الينا كتابٌ يجمع بين دَفَّتيه الكثير منها، الاَّ ما رُوِى عن هشام بن الكلبى من أنه استخرج أخبار ملوك الحيرة من بعض صحفهم، والاَّ ما قيل من حديث الطُّنوج(٧) التى عثر عليها المختار الثَّقفِي تحت قصر النعمان بالحيرة؛ وما رُوِى لنا من كلام فصَحاء العرب ليس الاَّ النزر اليسير بوجوه مختلفة: من نقص وزيادة، وتقديم وتأخير، ووضع لفظ موضع آخر، اذ لا يعقل ان الناس كيفما قويت ملكة الحفظ فيهم (كما هو شأنها فى الأمة العربية) يضبطون كل ما يسمعونه طبق أصله بلا تغيير ولا تبديل، ولو كان هذا الأمر ممكناً لغنِيت أمة به عن الكتابة ولن تغنَى، وبالطبع لا يحفظ هذه الوديعة الاَّ أهل الحِفاظ

(١) جمع حصيلة والمراد الحسنات والسيئات

(٢) اذا سهر المرء فى عمل ظن انه فرغ منه، وهو ما عاش يعرض له مثل ذلك

(٣) يقسم يدبر، هبلته أمه ثكلته (٤) فتعلم بالنصب جواب النفى، ووائل من وألت النفس بمعنى نجت والموئل المنجى

(٥) ان لم تنتفع بعلمك فانتسب وقل اين فلان بن فلان فانك لا ترى احداً بقى، املك تهديك وترشدك هذه القرون الخالية

(٦) تزعك تكفك، العواذل هنا الحوادث، وعدنان جده الاعلى — يقول لم يبق لك أب حى الى عدنان فكف عن الطمع فى الحياة (٧) الكراريس ولا واحد لها

عليها والاعتداد بها، وهم الشعراء والمتأدبون وأرباب الأحساب والمفاخر، فقد كان امرؤ القيس راوية أبى دُوَاد الإيادى، وزُهير راوية أوس بن حجر، والأعشى راوية المسيَّب بن علَس

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رواة الناس للاشعار وعلماؤهم بالأنساب وهم: مَخْرَمَةُ بن نَوْفَل، وأبو الجَهْم بن حُذَيْفَة، وحُوَيطِب بن عبد العُزَّى، وعَقِيلُ بن أبى طالب

العصر الثانى

عصر صدر الإسلام، ويشمل بنى أُمَيَّة(١)

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

ملخص حالة اللغة فى الجاهلية

كانتِ العربُ فى أُخريات جاهليَّتها بحسب أرضِها أُمَمًا بدويَّةً، وقبائلَ رحَّالة، ليس لها من وسائل العُمران وأسباب الرَّخاء ما يحمِلُها على تبَحُّرٍ فى علم، أو تبَصُّر فى دين، أو تفنُّن فى تجارة، أو تأنُّق فى زراعة، أو تدبُّر فى سياسة؛ وكانت من التدابُرِ والتقاطع والتصاوُل(٢) على حال لم تقتصِر على سكان القَفْرِ والوَبَر، بل عمَّت المدُن والمَدَر، وعلى وَفْق ذلك كانت اللغة العربية لا تعدُو أغراضَ المعيشة البدوية ووصفَ مرافقها، وإثارةَ المنازعات والمشاحنات، إلاَّ أن رُوحاً من الله تَنَسَّمَ(٣) بين أرجائها فأيقظها من رقدتها، ونبَّهها لضرورة التعاوُن على الخير فى

(١) خلفاء بنى امية هم:

١: معاوية بن ابى سفيان (٤١ — ٦٠)
٢: يزيد بن معاوية (٦٠ - ٦٤)
٣: معاوية بن يزيد (٦٤ — ٦٤)
٤: مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥)
٥: عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦)
٦: الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦)
٧: سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩)
٨: عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١)
٩: يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥)
١٠: هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥)
١١: الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ — ١٢٦)
١٢: يزيد بن الوليد الاول (١٢٦ — ١٢٦)
١٣: مروان الجعدى (١٢٧ — ١٣٢)

(٢) التواثب والمهاجة (٣) تنفس

معاشها ولغتها وجماعتها ، فظهر ذلك بيّنًا فى الأسواق التجارية اللغوية الاجتماعية ، وفى الإذعان فيها الى حكومة الأشراف والفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما ، مما هيأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحد ، فكان ذلك إيذانًا من الله بإظهار الإسلام فيهم ، وما ألفت نفوسهم هذا النمط الجديد الاَّ وقد جاء النبى الكريم لاَّمًّا لشَعْثهم ، موحّدًا لكلمتهم ، مهذِّبًا لطباعهم ، منشئًا لهم تنشئة جديدة ، مبينًا طريق الحق ، وجادّة الصواب ، بشريعة عظيمة ، تتمثل فى كلام الله وكلام رسوله ، فكان من نتيجة ذلك أن أُسِّسَتْ لهم جامعة قومية ملية وملك كبيرٌ

أثر الاسلام فى اللغة

وبالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأنصاره ، وتفهُّمهم شريعتَهُ وكلامَهُ ثمَّ خُضوعهم بعدُ لزَعامة[1] قومه وخُلَفائه وولاتهم وأعوانهم وأنصارهم ، وفتوحهم تحت ألويتهم ممالكَ الأكاسرة والقياصرة وغيرها ، من جبال البرانس[2] الى الهند والصين ومخالطتهم أهلها بالجوار والمصاهرة ، حدث فى حياتهم الفكرية واللسانية ما يمكن اجماله فى الأمور الآتية :

الأوَّل – شيوعُ اللغة القرشية ثم توَحُّدُ لغات العرب ، وتمثُّلُها جميعها فى لغة قريش ، واندماج سائر اللهجات العربية فيها . وبعض أسباب هذا يرجع الى ما قبل الإسلام بتأثير الأسواق والحج وحكومة قريش ، وأكثرها يرجع الى نزول القرآن بلغتهم ، وظهور ذلك الداعى العظيم منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على أيديهم ؛ اذ كانوا هم القائمين بأمر الإسلام بعد فتح مكة ، ومنهم كان الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش ورجالات الدولة وأصحاب الحل والعقد ، الذين تألفت منهم عصبيّة[3] العرب فى الإسلام ، وكان لهم الغَلَبُ على كل قبائله وأممه ؛ وبحكم الضرورة تكون لغتهم هى اللغةَ الرسمية بين كل القبائل . واذا علمنا ان أكثر رجال الدولة العربية من السُلالات المُضَرية ، وهم أولاد عم قريش ، علمنا بسهولة وجهَ انتحال أكثر

(١) رياسة (٢) جنوبى فرنسا
(٣) العصبية تناصر العشيرة والقبيلة بعضها لبعض والمراد هنا القوة

العرب لغة قريش فى زمن قليل . أما ما كان باقياً من لغة حِمْيَر فلم يكن متميّزاً عن لغة قريش بأمر جوهرىّ فى إعراب أو أُسلوب أو تصريف ، بل كان باختلاف بعض الألفاظ فى دلالتها على المعانى المتحدة ؛ فمثلاً الشَّناتِر ، بلغة حمير الأصابع بلغة قريش ؛ والكُتَع عند حمير الذئب عنـد قريش ؛ وأنطى فى كلام حمير أعطى فى كلام قريش . الى غير ذلك مما له نظائرُ بين لغات بعض قبائل مُضَر أنفسهـا ولغاتِ بعضِها الآخر ؛ فمثلاً السُّدفةُ الظلمةُ عند تميم ، والضوء عند قيس وهكذا . ولذلك لم تتخلف لغة حمير عن اللَّحاق بأخواتها من لغات العرب واندماجها فى لغة قريش

الثانى – انتشار اللغة العربية فى ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح والمغازى [1] وهجرة قبائل البدو اليها ، واستيطانهم لها ، واختلاطهم بأهلها ، وتقرُّب هؤلاء الأعاجم اليهم بتعلُّم لغتهم والدخول فى دينهم المستمدّ من القرآن العربى المبين

الثالث – اتساع أغراض اللغة بسلوكها منهجاً [2] دينياً ، واتباعها خُطة نظامية تقتضيها حالُ الملك وسكنى الحضر وتتَّضح فيما يأتى :

(١) تفهُّم العقائد الدينية التى جاء بها الإسلام : من اثبات وجود الخالق ، وتوحيد ذاته ، وتقديس صفاته ؛ ومن الإيمان بالبَعث والنُّشور والثواب والعقاب وغير ذلك ، مما لم يكن يفقَهُ بعضَه الَّا بعضُ خاصة الجاهلية ، وأصبح بعد الإسلام الشغلَ الشاغلَ لجميعهم بل للأمة الإسلامية جمعاء

(٢) تفهُّم الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان ، والكافلة لحسن معيشة المرء فى منزله ، ومعاملته للناس والسلطان

(٣) استعمالُها فى ضبط أُمور الملك ونظام العُمران ، ونشر الأمان والعدل ، وفيما تستدعيه مَرافق أهل الحضر والأمصار

(٤) وضع مبادئ بعض العلوم، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية

الرابع – ارتقاء المعانى والتصورات ، ويظهر ذلك فى الأمور الآتية :

---

(١) الغزوات (٢) المنهج الطريق .

(١) اتساع مادّة المعانى باتساع مادّة المشاهدات والمعقولات

(٢) حسن نظامها ومُراعاةُ الوفاق بينها : لارتقاء الفكر وتثقيفه بالنظر الصحيح فى أُمور الدين والملك والاقتباسِ من حضارةِ الفرس والروم ، وتنوّعِ صُوَرِ الخيال وروعة جماله تبعاً لتنوّع المرئيات الجميلة التى انتزع منها

الخامس – تغير الألفاظ والأساليب بما يأتى

(١) تهذيب ألفاظ اللغـة بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة فى مجانبة حُوشىّ الألفاظ الذى ينبو عنه السمعُ ويمجه الذوق السليم

(٢) التوسع فى دلالة الألفاظ : باخراجها من معنى الى معنى بينه وبين الأوّل مناسبة ، ومن ذلك الألفاظُ التى استعملها الشارع فى غير معناها الأصلى : كالصلاة والصيام والزكاة ، والمؤمن والكافر والفاسق والمنافق وغير ذلك ، والألفاظُ التى استعملت فى نظام الملك ومصطلحات العلوم والصناعات التى عرفت فى ذلك العصر

(٣) موت ألفاظ حظر الشارع استعمال مدلولاتهـا وأعاض منها غيرها كالمِرباع [1] والنَّشيطة [2] والفُضول [3] وكِمْ صباحاً ، وعِمْ ظلاماً

(٤) دخول كثير من الألفاظ الأعجمية فى الكلام وخاصةً العامىّ منه وتسمى الكلمة حينئذٍ معرَّبة [4]

(٥) التأنق فى صوغ الأساليب والتفنن فى أنواعها وإحكام نظمها ، ووصولها فى البلاغة الى غايتها : لانبعاث روح القرآن الكريم فى قلوب المتكلمين بها وسلوكهم

---

(١) المرباع ربع الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها

(٢) ماكانوا يغنمونه عفواً فى طريقهم الى غارة مقصودة

(٣) الفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمه على الغزاة كفرس ونحوه ويعطى لفارس الغارة أيضاً قال الشاعر العربى

لك المرباع فينـا والصفـايا وحكمك والنشيطة والفضول

(٤) التعريب من حق العرب الذين يصح منهم الوضع وقد انقضى عصرهم فلا حق لنا فيه ، واذا احتجنا الى وضع اسماء لمسميات لم تعرفها العرب ، وجب أن نأخذها من الفاظ العربية المهجورة القابلة للتصريف والخفيفة على السمع بشرط أن يكون بين المعنيين مناسبة ما ، ويسمى هذا بالوضع العرفى أو الاصطلاحى وهو قياس عند علماء اللغة لأنه مبنى على المجاز

سبيله فى البيان وحسن الأداء ، مؤثرين الايجاز على الاسهاب فى أكثر المواضع ، الى أن تقاصرت دونه أفهامُ الناشئين فى الحضر من العرب والمستعربين من العجم آخرَ هذا العصر ، فأصبح للاسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الإيجاز

السادس – ظهور اللحن فى الكلام بين المستعربين : من الموالى ، وأبناء العرب من الفتيات ، وبعض العرب المُكثرين من معاشرة الأعاجم

ولما كان معظم هذه التغيرات يرجع الى القرآن الكريم والحديث النبوى ، ناسب أن نذكر قُلاًّ من كُثْر مما ينبغى أن يقال فيهما

القرآن الكريم وأثره فى اللغة

القرآن (كتابٌ أُحْكِمت آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لَدُنْ حكيم خبير) فيه آيات بينات ، ودلائل واضحات ، وأخبار صادقة ، ومواعظ رائقة ، وشرائع راقية ، وآداب عالية ، بعبارات تأخذ بالألباب ، وأساليب ليس لأحد من البشر بالغًا ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتى بمثلها ، أو يفكر فى محاكاتها . فهو آية الله الدائمة ، وحجته الخالدة ، (لاَ يأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ) أنزله الله على رسوله ليُبلّغه قومَه وهم فحول البلاغة ، وأمراء الكلام ، وأُباة الضيم ، وأرباب الأَنَفة والحَمِيَّة ، فبهرهم بيانُه ، وأذهلهم افتتانُه ، فاهتدى به من صح نظرُه واستَحْصَفَ[1] عقله ، ولطُف ذَوْقُه ، وصَدَّعنه[2] أهلُ العِناد والمكابرة واللَّجاج[3] فتحدّاهم[4] أن يأتوا بمثله فنكصوا[5] ، ثم بعشر سور مثله فعجزوا ، ثم بسورة من مثله فانقطعوا[6] ، فحق عليهم اعجازه[7] قال تعالى (قلْ لئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على

(١) استحكم (٢) أعرض عنه (٣) الخصومة (٤) تحدى الرجل خصمه باراه ونازعه الغلبة فى الشىء (٥) احجموا (٦) انقطع فى المحاجة غلب وسكت بهرا وانقطعت حجته

(٧) اجمع المسلمون على أن القرآن معجز ، وسلكوا الى بيان اعجازه طرقاً شتى ، ونشير هنا الى نقطة من بحر مما قالوه ، فهو معجز — اعجاز القرءان

أولاً — من جهة اغراضه ومقاصده — فتجده فى كل غرض وموضوع غاية فى الابانة والجلاء ، ونهاية فى الاصابة واطراد الاحكام : فمن تشريع خالد ، وتهذيب بارع ، وتعليم جامع ،

أنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القرءان لا يأتون بمثله ولَوْ كان بَعْضُهُمْ لبعضٍ ظهيراً)[1]

وقد علمت مما تقدم فى حالة اللغة ما كان له من الأثر البين فى توحيد اللغة ونشرها وترقيتها من حيثُ أغراضُها ، ومعانيها ، وألفاظها ، وأُسلوبُها ؛ ونزيد هنا أنه قد أثَّر فيها ما لم يُؤثِّره أىُّ كتاب سماوياً كان أو غير سماوىّ فى اللغة التى كان بها ، اذ ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلاً ، وصانها من كل ما يُشوِّه خَلْقَها ، ويذوى[2] غَضَارتها[3] ، فاصبحت وهى اللغة الحيَّة الخالدة من بين اللغات القديمة التى انطمست آثارها ، وصارت فى عِداد اللغات التاريخية الأَثَرِيَّة ؛ وأنه قد أحدثَ فيها علوماً جمَّة وفنوناً شتَّى لولاه لم تخطُر على قلب ، ولم يَخُطَّها قلم : منهـا اللغةُ ، والنحو ، والصرف ، والاشتقاق ، والمعانى ، والبديع ، والبيان ، والأدب ، والرسم ، والقراءات ، والتفسير ، والأصول ، والتوحيد ، والفقه

نظم القرءان — ونظمُ القرءان من نوع النثر وان لم يجر على مألوف العرب فى نثرها المُرْسَل

وأدب بالغ ، وارشاد شامل ، وقصص واعظ ، ومثل سائر ، وحكمة بالغة ، ووعد وعيد ، واخبار بمغيب ، الى غير ذلك من الاغراض والمقاصد

وقد كان لفحول البلاغة لا يبرّز احدهم الاّ فى فن واحد من انواع القول فمن يبرع فى الخطابة لا ينبغ فى الشعر ، ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ، ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ، ولأمر ما ضربوا المثل بامرئ القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب ، والنابغة اذا رهب

ثانياً — من جهة الفاظه واساليبه — فلا تجد منه الا عذوبة فى اللفظ ، ودماثة فى الاساليب ، وتجاذباً فى التراكيب ، ليس فيها وحشى متنافر ، ولا سوقىّ مبتذل ، ولا تعبير عويص ، ولا فواصل متعملة ، على شيوع ذلك فى كلام المفلقين واهل الحيطة المتروّين ، حتى انك لترى الجملة المقتبسة منه فى كلام افصح الفصحاء منهم تفرعه جمالاً ، وتشمله نوراً ، وتكسوه روعة وجلالة ، الى اجمال فى خطاب الخاصة ، وتفصيل فى تفهيم العامة ، وتكنية للعربى ، وتصريح للاعجمىّ ، وغير هذا مما يقصر عن احصائه الالمام ، ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام

ثالثاً — من جهة معانيه — فانك تجدها من غير معين العرب الذى منه يستقون : لاطراد صدقها وقرب تناولها ، واطمئنان النفوس اليها ، وابتكارها البديع على غير مثال معهود : من حجج باهرة ، وبرهانات قاطعة ، وأحكام مسلمة ، وتشبيهات رائعة ، على تمازج وتواصل ، وبراءة من التقاطع والتدابر ، وهو فى جملته نزهة النفوس وشفاء الصدور ، وهو الكتاب الخالد الذى لا تبديل لكلماته ، ولا ناسخ لاحكامه ولا ناقض ، انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

(١) مساعداً ومعيناً (٢) يذبل (٣) غضارة النبات والعيش نضارته

وسجعها المُلْتَزَم ، بل هو آيات وفواصِلُ يَشهد الذوق السليمُ بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعًا ، وطوراً تكون مُوازنةً وازدواجًا ، وأحيانًا لا تكون هذا ولا ذاك

وفى القرءان الكريم من الحكم والأمثال وجوامع الكلم ما كان به هدايةُ الحكيم ، وارشاد الأديب – فمنها

طائفة من الآيات الكريمة

أتأمُرُونَ الناسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكم – وعَسَى أن تكرَهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تُحبُّوا شيئًا وهو شرٌّ لكم – ولا تأكلوا أموالَكُمْ بينَكُمْ بالباطلِ وتُدلُوا بها الى الحكَّام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون – كَمْ من فِئةٍ قليلةٍ غَلَبَتْ فِئةً كثيرةً باذْنِ اللهِ واللهُ مع الصابرينَ – قولٌ معروفٌ ومَغْفِرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعُها أذًى – لَا يكلِّفُ اللهُ نفسًا الاَّ وُسْعَها – لَنْ تنالوا البرَّ حتى تُنفقوا مما تُحبُّون – ولَو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لَانْفَضُّوا من حولك – إن ينصرْكُمُ اللهُ فلا غالبَ لكم وإن يخذُلْكم فمَنْ ذا الذى ينصرُكم من بعده – ولْيَخْشَ الذين لوْ تركوا من خَلفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافًا خافوا عليهم فَلْيتَّقوا اللهَ ولْيقولوا قولاً سَدِيداً – من يعملْ سُوءًا يُجزَ به ولا يجدْ له منْ دُونِ اللهِ وليًّا ولا نصيرا – ما على الرسولِ الاَّ البلاغ – قُلْ لا يَستوى الخبيثُ والطَّيِّبُ – لكل نبإٍ مستقَرٌّ – ما على المحسنين من سَبيل – إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقَوْمٍ حتى يغيِّروا ما بأنفُسهم – لكل أجَلٍ كتاب – ولاَ تجعلْ يدكَ مغلولةً الى عُنُقِكَ ولا تبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ ملومًا محسورا – قلْ كلٌّ يعملُ على شاكلته – للهِ الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ – ما جعل اللهُ لرجل من قلبين فى جوْفه – وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون – ولا يَحِيقُ المكرُ السيِّئُ إلاَّ بأهله – قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون – هل جزاءُ الإحسانِ الاَّ الإحسانُ – فاعتبروا يا أُولى الأبصار – تحْسَبُهم جميعًا وقلوبهم شتَّى

جمع القرآن وكتابته

قد نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنَجَّمًا على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال فى بِضع وعشرين سنة ، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر

كُتَّابَ وحيه بكتابة ما يُنَزَّل ، فكانوا يكتبونه بين يديه فى عُسُبٍ[١] أو لِخافٍ[٢] أو أكتافٍ[٣] ، وهو يرشدهم الى موضع كل آية من السورة التى ينبغى أن تكون فيها ؛ وفى صحيح البخارىّ أن جبريلَ كان يُعارِض[٤] النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام مرة ، وأنه عارضه به مرتين فى العام الذى تُوفِّى فيه ؛ وفى الإتقان[٥] للسيوطى أن زيد بن ثابت أكبر كتَّاب الوحى ، شهد العَرْضة الأخيرة التى بُيِّن فيها ما نُسِخ وما بقِى ، وكتبها للرسول صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه ؛ ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمع القرآن ، وولاه عثمان كتابة المصاحف

وتوفى رسول الله والقرآن كله مكتوب ، وفى صدور الصحابة محفوظ ، وإن لم يتفقوا فى حفظه وترتيبه لأسباب شتَّى . ولما رأى عُمر رضى الله عنه أن القتل قد استحرَّ[٦] بالحفاظ فى وقعة اليمامة[٧] حتى قُتِل منهم سبعمائة ، أشفق من ضياع القرآن ، فذهب الى أبى بكر وأخبره الخبرَ ، وبعد أخذ وردٍّ اتفقا على جمع القرآن وكتابته ، وعهدا بذلك الى زيد بن ثابت ، فجمعه من العُسُب واللخاف والأكتاف والصدور وكتبه صُحُفًا ، فكانت تلك الصحف عند أبى بكر حياتَه ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند أم المؤمنين حفصةَ بنت عمر

وفى مدة عثمان كثُرت الفتوح وانتشر القراء فى الأمصار وقرءوا القرآن بلغاتهم على تعدُّدِها ، وأدَّى ذلك الى تخطئة بعضهم بعضًا ، فخشِىَ عثمان تفاقم[٨] الأمر ، فأمر زيد بن ثابت ، وعبدَ الله بن الزبير ، وسعيدَ بن العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث ابن هشام ، فنسخوا تلك الصحف فى مصحف واحد مرتب السور ، واقتُصِر فيه من جميع اللغات على لغة قريش لنزوله بلغتهم

---

(١) السعف الذى لم ينبت عليه الخوص من الجريد (٢) حجارة بيض رقاق (٣) مفردها كتف وهو عظم اللوح من الحيوان (٤) يقابله ويصنع معه مثل ما يصنع فى القراءة (٥) كتاب للسيوطى خاص بعلوم القرآن (٦) اشتد (٧) وهى الواقعة التى قتل فيها خالد بن الوليد مسيلمة المتنبي الكذاب (٨) تعاظم

الحديث النبوىّ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصحَ الناس وأبينهم وأحكمهم، وكانت حياته كلها هداية ونوراً، وأفعاله وأقواله جميعها مَدَدا يستمد منه الخلق سَدَادهم ورشادهم فى معاشهم ومعادهم؛ ولهذا حَرَص المسلمون على حفظ ذلك الأثر العظيم حرصاً لم توفَّق الى مثله أمة فى حفظ آثار رسولها؛ فجمعوا من كلامه ووصف أفعاله وأحواله الأسفارَ الضِّخام، ووَعَوْا منها فى صدورهم ما لا يدخل تحت حصر. وكلامُه صلى الله عليه وسلم منزَّه عن اللغو والباطل، وانما كان فى توضيح قرءان، أو تقرير حُكْم، أو ارشاد الى خير، أو تنفير من شر؛ أو فى حكمة ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم – بعبارة هى فى الفصاحة والبلاغة والايجاز والبيان بالدرجة الثانية بعد القرآن، ولذلك كان تأثيرها فى اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى، ولا سيما حِكَمُه وجوامع كلمه التى هى القدوة الحسنة للأديب، والحلية التى يزدان بها كلام الكاتب والخطيب

طائفة من الاحاديث الشريفة

فمن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم

انما الأعمالُ بالنيات، وانما لكل امرئ ما نَوَى – المؤمن للمؤمن كالبُنْيان يشُدّ بعضه بعضاً – اليد العُليا خير من اليد السُّفلى وابدأ بمن تعول [١] – يد الله مع الجماعة. كلٌّ ميسَّر لما خُلِق له – دَعْ مايَرِيبك [٢] الى ما لايَرِيبُك – الناس كلهم سَواسِيَة كأسنان المشط – وقوله يخاطب الأنصار انكم لتقِلُّون عند الطمع، وتكثُرُون عند الفزَع – ان أحبكم الىَّ وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسِنكم أخلاقاً الموطَّئون [٣] اكنافا الذين يألفون ويُؤْلَفون؛ وان أبغضكم الىَّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثَّرثارون [٤] المتشدِّقون [٥] المتفيهقون [٦]. ومن عجائب تمثيله وروائع كلمه قوله صلى الله عليه وسلم

(١) تكفل (٢) يجملك شاكا فيه لست على بينة من أمره
(٣) المهدة جوانبهم أى السهلة أخلاقهم
(٤) الثرثار المهذار والصياح
(٥) المتشدق الذى يلوى شدقه للتفصح
(٦) المتنطع فى كلامه المتوسع فيه كأنه يملأ به فمه

إن قوماً ركبوا فى سفينة فاقتسموا، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعَه بفأس فقالوا له ما تصنع؟ قال هو مكانى اصنع فيه ما شئت، فان أخذوا على يده نجا ونَجَوْا، وان تركوه هلك وهلكُوا

النــثر

لغة التخاطب — الخطابة — الكتابة

لغة التخاطب

كانت لغة التخاطب فى مبدإ الاسلام بين العرب الخُلَّص والموالى النابتين فيهم هى العربية الفصيحة المعْربة، وكانت لغة الموالى الطارئين عليهم تقرُب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حَسَب طول لُبثهم فيهم أو قصر مُقامهم عندهم؛ ولذلك أُثِر عمن دخل فى الاسلام حينئذٍ من غير العرب (وكانت إقامتـه بينهم غير كافية لنسخ عُجمته جُملةً) أنهم كانوا يميلون فى كلامهم العربى الى أسلوب لغتهم الأولى ومخارج حروفها وإن لم يقع منهم اللحن، أو وقع قليلاً، فقد رُوِىَ أن بلالاً [١] كان يرتضخُ [٢] لكنةً حبشية، وسلمان [٣] لكنة فارسية، وصُهَيباً [٤] لكنة رومية؛ وأن رجلاً لحن أمام النبى صلى الله عليه وسلم فقال: أرْشِدوا أخاكم فقد ضَلَّ

أثر الفتوح فى لغة التخاطب

ولما فتح المسلمون الأمصار، وكثر عندهم سبيُ الأعاجم وأسرى الحروب، ودخل فى الاسلام منهم ألوف الالوف، وأصبحوا لهم اخواناً وشركاء فى الدين، وتم بينهم التزاوج والتناسُل، نشأ للعرب ذرّية من الفتيات الأعجميات اختلطت عليهم ملكةُ العربية، لتلقيهم عن آبائهم عربية فصيحة، وعن أُمهاتهم خليطاً منها ومن الأعجمية، وكذلك كان الشأن فى المتعرّبين من الأعاجم، اذ أصبحت لهم لغة تخاطب عربية

(١) هو بلال بن رباح الحبشى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم
(٢) ينزع الى العجم فى ألفاظ من ألفاظهم (٣) هو سلمان بن الاسلام فارسىّ أسلم وصحب رسول الله ومحض المسلمين النصح (٤) صهيب بن سنان عربى الاصل سباه الروم وهو صغير ثم عاد الى العرب وأسلم وصحب رسول الله وبقيت فى لسانه لكنة رومية

مشوبة بشيء من اللحن والكلمات الدخيلة وغير ذلك من أنواع التغيير والتبديل والتصحيف والتحريف. أما العرب أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم في جزيرتهم مثل ما كانت عليه في جاهليتهم. أما سُكّان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم كثيراً بالمعاملة والتسوّق (١) لم تخلُ لغتهم من لحن أو هُجْنة. والخاصة منهم تشدّدوا في المحافظة على سلائقهم وتحاموا التزوج بالأعجميات وبالغوا في تربية أبنائهم على إلف الملكة العربية، فكانوا يرسلونهم الى البادية ليرتاضوا على الفصاحة، وينشئوا نشأة الأعراب الفصحاء، أو يُحضرون لهم المؤدّبين والمعلمين من أفصح الناس وأعلمهم: ليخرّجوهم في الإعراب واللّسَن؛ كذلك كان يفعل خلفاء بني أمية وأمراؤهم اقتداء بكبيرهم معاوية بن أبي سفيان في تربية ابنه يزيد؛ ومَن لحن من خلفاء بني أمية وأمرائهم وأشراف العرب في زمانهم ولو مرةً عدّوا ذلك عليه عاراً لايمحى، وسُبّةً لا تزول؛ ومن هؤلاء اللحّانين عُبيد الله (٢) بن زياد والوليدُ (٣) بن عبد الملك وخالد القسري (٤) مع أن بعضهم كان من أبلغ الناس وأبينهم

ومن هنا تعلم السر في تسرُّع القوم الى وضع النحو وتدوينه والشكل والاعجام

الخطابة في هذا العصر

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم في أيّ أُمة: إما دعوةً دينية وإما دعوةً سياسية، وكانت تلك الدّعوة تستدعي ألسنة قوّالةً من أهلها لتأييدها ونشرها، وألسنة من أعدائها وخصومها لادحاضها والصّدِّ عنها، وذلك لا يكون الاّ بمخاطبة الجماعات وأصحاب النَّجَدات في الحَفْل والمنتديات، والحج والمواسم والأسواق، ومواطن

---

(١) تسوق القوم اذا باعوا واشتروا في السوق

(٢) كان والياً على العراق في مدة معاوية ويزيد ابنه وكانت أمه فارسية

(٣) هو الخليفة الأموي أشفق عليه أبوه أن يرسله الى البادية فتربى في المصر وتعلم العربية بالصناعة فعرض لكلامه بعض اللحن (٤) هو خالد بن عبد الله القسري والي العراق من قبل الخليفة هشام وكانت أمه نصرانية وكان من أبلغ الناس وأخطبهم وعد عليه بعض اللحن

الزحف ومَقْدَم الوفود ونحو ذلك - كان ظهور الاسلام بالأمر الجَلَل والشأنِ الخطير، والدعوةِ العظمى التي لم يُعْهد لها من قبلُ في العالم مثيل، من أهم الحوادث التي أنشطَت الألسُن من عُقُلها، وأثارت الخطابة من مكمَنِها، وأغرَتِ العقولَ بإحكامها والافتنان فيها، واختلاب النفوس بسحر بيانها، فوق ما كانت عليه في جاهليتها. فكان العملُ الأكبرُ لصاحب الدعوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باديءَ أمره غيرَ تبليغ القرآن وارداً من طريق الخطابة، ولأمرٍ ما جعلها الشارع شعارَ كل امام في حَفْلٍ دينيّ أو سياسي كالجمعة والعيدين وموسم الحج الأكبر، ويوم الصف، وكل أمر جامع لنشر فضيلة، أو نهي عن رذيلة، أو إعلان نصر، أو تأكيد وصية، الى غير ذلك من الأمور ذوات البال؛ ولذلك كان دُعاةُ النبي صلى الله عليه وسلم ورسلُه الى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه، ثم خلفاؤه من بعده وعمّالهم كلُّهم خطباء مصاقع (١)، ولُسْنا (٢) مَقَاوِل (٣)، أعانهم على ذلك أنهم كانوا يخطبون عرباً مثلَهم، للفصاحة عندهم هِزّة (٤) في النفس وروعة في الفؤاد؛ وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذى لا ينهَض باعباء الخطابة، ولا سيما الدينية، لشرحها الحقائق وقَرْعها الأسماع بالحجج العقلية والوِجدانية، وترغيبها في الثواب وترهيبها من العقاب؛ ولخلوها عن قيود الوزن والقافية؛ ولأنها تقال بعبارات تفهمها الخاصة والعامة: من الجندي الصغير الى القائد الكبير؛ وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مَدَد أيّما مدد، ولما حدثت الفتنة بين المسلمين (أو الحرب الأهلية كما يقولون) بعد مقتل عثمان، وافترقوا الى عراقيين بزَعامةِ عليّ، وشاميين بزعامة معاوية، ولكل منهم دعوة يؤيّدها ورغبةٌ يُناضل عنها في تلك الحرب الشَّعواء، التي لم يُنْكب الاسلام بمثلها، ظهر من كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم، ولا يشَق غُبارهم؛ وعلى رأس العراقيين شيخُ الخطباء

أسباب رقى الخطابة

---

(١) جمع مصقع كمنبر البليغ أو العالي الصوت أو من لا يرتج عليه في كلامه ولا يتتعتع

(٢) جمع لسان البليغ المتكلم من القوم

(٣) جمع مقول كمنبر مثل سابقه

(٤) الهزة النشاط والارتياح

وفحلُ البلغاء عليُّ بن أبي طالب ، وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبي سفيان ؛ وما انتهت هذه الحرب حتى تشعبت الفتنُ والآراء والمذاهب والنِّحل ، وتفرّق المسلمون الى شيعة[1] وخوارج[2] وجَماعيّة[3] وتفرع من هؤلاء الطوائف فروع شتَّى ، كل يبذُل وُسعه فى نشر مذهبه ، ويدفع عنه بقائم سيفه، ولم يعدَم كل طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتها بما أوتوا من البلاغة فى الخطابة والفصاحة والبيان

مميزات الخطابة

وتمتاز الخطابة فى صدر الاسلام عنها فى الجاهلية بأشياء :

الأول – سلوكها طريقاً دينياً فى مثل خطب الجمع والعيدين والحج والارشاد والتعليم ونحو ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة الدينية

الثانى – اتباعها خُطة سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتأثيل المُلك والسلطان؛ وما وقع للعرب فى الجاهلية من هذا القبيل فى بعض منازعاتهم فليس بذى شأن كبير، اذا قيس بنظيره فى الاسلام

الثالث – قوة تأثيرها ووصولها الى قَرارة النفوس، وامتلاكُها للوجدان والشعور بما رقق القلوب القاسية ، وأسال الأعين الجامدة

الرابع – صفاء ألفاظها ، وسهولة عباراتها ، ومتانة أساليبها ، وتجنبها سجع الكُهّان ، وقلة القصد فيها الى سرد الحِكَم القصيرة الدقيقة بمناسبة وغير مناسبة، كما كانت تفعل خطباء الجاهلية

الخامس – بداءتها بحمد الله والثناء عليه

السادس – محاكاتها أسلوب القرآن فى الاقناع ، واستمدادُها من آياته ، حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شىء منه

السابع – تنوعها بين الإيجاز والاسهاب حتى حُكِى أن منها ما استغرق نصف

(١) الشيعة هم شيعة على رضى الله وانصاره وانصار أهل بيته،وتغالى بعضهم فى حبه وتفضيله الى حد ممقوت ديناً (٢) هم قوم خرجوا فى اول أمرهم على أمير المؤمنين على واستحلوا قتاله لرضاه بأمر التحكيم فى الخلافة بينه وبين معاوية ثم خرجوا بعده على بنى أمية وبنى العباس
(٣) هم الجمهور الاعظم المستجيبون لدعوة بنى أمية والخلفاء المعقودة لهم البيعة العامة من اكثر المسلمين

نهار[1] ، ومنها ما لم يزد على فِقَرات معدودات[2] . وقصارى الكلام أن الخطابة وصلت فى هذا العصر الى أرقى ما وصلت اليه فى اللسان العربى حتى ممن يُعَدُّ عليهم اللحن ، ولم تَسْعد العربيةُ بكثرة خطباء ووفرة خُطَب مثل ما سعِدت به فى هذا الصدر الأول ، اذ كان القوم ورؤساؤهم عرباً خُلَّصًا ، يسمَعون القول فيتبعون أحسنه

عادات العرب فى الخطابة

ولم يخرج الخطباء عن مألوفهم من اعتِجار[3] العمامة والاشتمال[4] بالرداء واختصار المِخصَرة[5] والخطبةِ من قيام ، الاّ ما روى عن الوليد بن عبد الملك : من أنه كان يخطب جالسًا ، وربما كان له عذر فى طبيعته ، أو أنه كان يرى ان الغرض من الوقوف هو الاشراف على السامعين ، وذلك قد حصل بتعلية بنى أمية درجات المنابر

الخطباء

ليس فى عصور أدب اللغة عصرٌ أحفلُ بالخطباء المعروفين نسبًا وقولاً وعملاً من هذا العصر : اذ كانت الخَطابة فيه سَلِسةَ القياد على خلفائه وزُعمائه : لفطرتهم العربية وتمكّنهم من الفصاحة والبيان ، وانطباعهم على أساليب القران ، واتساع مداركهم . ولهذا نكتفى بذكر الخطباء من الخلفاء الراشدين وبعضِ وُلاة المسلمين وفصحاء الناس : لأن الخطابة اذ ذاك كانت من أعظم أعمال الامامة والولاية

(١) كخطبة سحبان وائل التى خطبها بحضرة معاوية يوم ان حضر وفد خراسان
(٢) مثل خطبة خطيب الازد حين بعث الحجاج خطباء من الاحماس الى عبد الملك وهى — قد علمت العرب أنا حىّ فعال ، ولسنا بحى مقال ، وانا نجزى بفعلنا ، عند احسن قولهم، ان السيوف لتعرف اكفنا ، وان الموت ليستعذب ارواحنا، وقد علمت الحرب الزبون انا نقرع جماحها ، ونحلب صراها
(٣) لف العمامة دون التلحى
(٤) اشتمل بالثوب اداره على جسده كله
(٥) كمكنسة ما يتوكأ عليها وما يأخذه الملك يشير به اذا خاطب ، والخطيب اذا خطب ، واختصر المخصرة اخذها

أبو بكر الصديق — رضى الله عنه

هو أبو بكر عبد الله عتيق[1] بن أبي قُحافة عثمان صاحبُ رسول الله ، وأوّل خليفة له فى الاسلام ، وخطيبُ يوم السقيفة

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مُرَّةَ بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله لسنتين وبضعة أشهر ، ونشأ من أكرم قريش خُلُقًا ، وأرجحهم حلمًا ، وأسماهم يداً وأشدّهم عِفَّة . وكان أعلمهم بالانساب وأيام العرب ومفاخرها . صحِبَ رسولَ الله قبل النبوة . وكان أوّلَ من آمن به من الرجال وصدَّقَه فى كل ما جاء به : ولذلك سمى الصدّيق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معـه الى المدينة مُؤْثِراً صُحْبته على كل أهله وولده ، وشهِد معه أكثر الغزَوات ؛ وما زال يُنفق ماله وقوَّتَه فى مُعاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، واختلفت العرب وارتدت عن الاسلام ومنعت الزكاة الّا أهل المدينـة ومكة وثقيف بالطائف ، فجرد عليهم الجيوش حتى قمَعهم ، وجمع العرب على الاسلام وساقهم توًّا الى فتح ممالك كسرى وقيصر ، وما مات الّا وجيوشُه تَهزِم جيوش الفرس والروم ، وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكانت وفاته سنة ١٣ ﻫ ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال

وكان رحمه الله فصيحًا بليغًا ، خطيبًا مُفَوَّهًا ، حاضِرَ البديهة ، قوىّ الحجة ، شديد التأثير ، يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة : وذلك انه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونه خليفةً له عليهم : فأبت الأنصارُ الّا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش الّا أن يكون منهم ، واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة[2] لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفة

(١) هو لقب لأبى بكر لقب به لجماله أو لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له أنت عتيق من النار

(٢) ويظن انها خطبة طويلة لم يبق فى حفظ الرواة منها الا اليسير ، ومن وصفها ما قاله عمر رضى الله عنه وقد كنت زوّرت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر ، وقد كنت اداري منه بعض الحد وكان هو اوقر منى واحلم ، فلما اردت ان اتكلم قال على رسلك فكرهت ان اعصيه فقام لحمد الله واثنى عليه فما ترك شيئاً كنت زَوَّرت فى نفسى ان اتكلم به لو تكلمت الا قد جاء به او باحسن منه

خطبته يوم السقيفة

حمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناسُ نحن المهاجرون ، وأوّلُ الناس إسلامًا ، وأكرمهم أحسابًا ، وأوسَطُهم داراً ، وأحسنُهم وجوهًا ، وأكثرُ الناس ولادةً فى العرب وأمسُّهم رحِمًا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقُدِّمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى (وَٱلسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار : اخوانُنا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفئ[1] ، وانصارُنا على العدوّ ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تَدين العرب الّا لهذا الحى من قريش ، فلا تَنْفَسُوا[3] على اخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله

وخطب حين بايع الناس البيعة العامة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! انى قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم ، فان رأيتمونى على حق فأعينونى ، وان رأيتمونى على باطل فسدّدونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فاذا عصيتُه فلا طاعـة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيفُ حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوىّ حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

عمر بن الخطاب — رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين أبو حفص عمرُ بن الخطاب القرشى ، ثانى خليفـة لرسول الله وأوّل من تسمى من الخلفاء بأمير المؤمنين ، وأوّل من أرخ بالتاريخ الهجرى ، ومصَّر الأمصار ، ودوّن الدواوين

ولد رضى الله عنهُ بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثَ عشرةَ سنةً . وكان فى الجاهلية من كبار قريش وزعمائها ، فكان يَسْفر بينها وبين قبائل العرب فى

(٢) الفنيمة والخراج (٣) نفس عليه خيراً حسده عليه ، ولم يره له اهلاً (اساس)

الحروب والمفاخرات ونحوها ، وكان شجاعًا صنديداً ، وحازمًا أيّداً ، وكان فى مبدإ الدعوة الى الاسلام من أكبر أعداء الرسول ، ثم هداه الله فأسلم ، وأعز الله به دينه وحضر مع رسول الله الغزوات كلها ، ثم لما قُبض أعان أبا بكر على تولية الخلافة ، ولما أحس أبو بكر بالموت عهِد بها اليه، فقام باعبائها خير قيام ، وأتم بحزمه وعزمه وسياسته وكياسته وزهده وعفته وحرصه على مصلحة المسلمين جميعَ ما شرع فيه أبو بكر : من فتح ممالكَ كسرى وقيصر

وقتله غيلةً غلامٌ مجوسىّ هو الشقىّ أبو لؤلؤةَ عبدُ المغيرة بن شُعبةَ : لأنه لم ينصفه على زعمه فى تخفيض ما يدفعه لسيده من أجرة عمله . وكان قتله سنة ٢٣ هـ ومدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام

وكان رحمه الله من أبين الناس منطقًا، وأبلغهم عبارة ، وأكثرهم صوابًا وحكمة وأرواهم للشعر ، وأنقدهم له ،

ومن خطبه خطبته إذ ولى الخلافة[1]

صعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : يأيها الناس ! انى داع فأمّنوا ، اللهم انى غليظ فليّنى لأهل طاعتك بموافقة الحق ، ابتغاء وجهك والدارِ الآخرة، وارزقنى الغلظة والشدّة على أعدائك وأهل الدّعارة[2] والنّفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم اللهمّ انى شحيح فسخّنى فى نوائب المعروف، قصداً من غير سَرَف ولا تبذير ولا رياء ولا سُمعة، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدارَ الآخرةَ، اللهمّ ارزقنى خَفضَ الجناح ولينَ الجانب للمؤمنين، اللهمّ انى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكرَ الموت فى كل حين ، اللهمّ انى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزُقنى النشاطَ فيها، والقوةَ عليها بالنية الحسنةِ التى لاتكون الاّ بعزتك وتوفيقك، اللهمّ ثبّتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك، والحياء منك ، وارزقنى الخشوعَ فيما يُرْضيك عنى ، والمحاسبةَ لنفسى ، واصلاح الساعات ، والحذرَ من الشُبُهات ، اللهمّ ارزقنى

(١) من العقد الفريد (٢) الخبث والفجور

التفكر والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهمَ له، والمعرفةَ بمعانيه، والنظر فى عجائبه والعملَ بذلك ما بقيتُ ، إنك على كل شىء قدير

ومن خطبه فى ذم الدنيا :

انما الدنيا أمل مُخْتَرَم[1] وأجل مُنْتَقِض[2] ، وبلاغ الى دارِ غيرها ، وسَيْرٌ الى الموت ليس فيه تعريج[3] فرحم الله امرأً فكّر فى أمره ، ونصح لنفسه ، وراقب ربّه واستقال ذنبه ، بئس الجارُ الغنىّ يأخذُك بما لا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعذِرك، إياكم والبِطنةَ فانها مَكْسَلَة عن الصلاةِ، ومَفْسَدة للجسم ، ومؤدّيةٌ الى السُّقم، وعليكم بالقصد فى قُوتِكم ، فهو أبعد من السَّرَف، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، وإن العبد لن يهلك حتى يُؤْثِرَ[4] شهوته على دينه

عثمان بن عفان — رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفّان القرشىُّ الأُموىّ، ثالث الخلفاء الراشدين، وموجد نُسَخ القرآن المبين. ولد فى السنة السادسة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمن فى السابقين الأوّلين، وبذل ما له الكثير فى تأييد الاسلام ومعونة المجاهدين، وشهد مغازىَ رسول الله كلَّها الاَّ بدراً . وقد كان عمر قبل وفاته عهد بالخلافة الى ستة هو منهم تنتخب الأمةُ أحدهم خليفة، فانتخبوا عثمان، فأكمل مغازىَ عمر . ومضت على خلافته ست سنين لم يحدُث عليه فيها شغَب ، ثم ثار عليه بعض الأعراب النازلين بمصر والعراق ، بحجة أنه يوثر أقرباءه بولاية الأقاليم ، غير ناظرين الى كفاءتهم ، ولا الى وثوق الخليفة بهم ، ونصحِهم له . فحاصروه فى داره بالمدينة وتسوّروها عليه وقتلوه وهو يتلو القرآن فى المصحف سنة ٣٣ هـ فكان قتله سبب الفرقة بين المسلمين واجترائهم على مقام الخلافة وقتل الخلفاء والخروج عليهم . ومدة خلافته اثنتا عشرة سنة الاّ اثنى عشر يومًا

وكان رحمه الله من بلغاء الخلفاء، وأوجزهم لفظًا وأجزلهم معنى ، وأسهلهم عبارة

(١) منقطع غير محقق (٢) غير مبرم (٣) اقامة (٤) يقدم

من جرّاء ذلك الفتنةُ العظمى بين المسلمين وافتراقُهم الى طائفتين . فتحاربوا مدّة من غير أن يستتب الأمر لعليّ أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً غيلةً بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ . وكانت مدّة خلافته خمس سنين الاّ ثلاثة أشهر

وكان رحمه الله أفصحَ الناس بعد رسول الله ، وأكثرهم علماً وزُهداً وشدّةً فى الحق ، وهو امام الخطباء من العرب على الاطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخطبه كثيرة – منها خطبته كرم الله وجهه بعد التحكيم وهى :

الحمد لله وان أتى الدهر بالخَطْب الفادح (١) ، والحَدَث الجَلَل (٢) ، وأشهد أن لا اله الاّ الله وحده لاشريك له ليس معه اله غيرُه ، وان محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله . أما بعد فان معصية الناصح الشفيق العالم المجرّب تُورث الحيرة وتُعقِب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة (٣) أمرى ، ونخلت لكم مخزونَ رأيى ، لو كان يطاع لقصير أمر (٤) ، فأبيتم علىّ إباء المخالفين الجُفاة ، والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصحُ بنصحه ، وضنّ الزّند بقدحه ، فكنت واياكم كما قال أخو هوازن (٥)

أمرتهمُ أمرى بمُنْعَرج اللوى   فلم يستبينوا النصح الاّ ضُحَى الغد

ومن خطبة له حين خاطبه العباس وأبو سفيان فى أن يبايعا له بالخلافة

أيها الناس شُقُّوا أمواج الفتن بِسُفُن النجاة ، وعرّجوا (٦) عن طريق المنافره ، وضعوا عن تيجان المفاخره ، أفلح من نهض بجناح (٧) ، أو استسلم فأراح ، هذا ماء آجن (٨) ولقمة يَغَصّ بها آكلها ، ومجتنى الثمرة لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه ، فان اقل يقولوا حَرَص على الملك ، وان أسكت يقولوا جَزِع من الموت ، هيهات بعد اللّتيّا (٩) والتى ، والله لَابنُ أبى طالب آنسُ بالموت من الطفل بثدى أمه ، بل اندمجت

(١) من فدحه الدّين أثقله (٢) العظيم (٣) أى حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبى موسى الاشعرى (٤) هو مولى جذيمة الابرش ، وكان حاذقاً ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة فخالفه وقصدها اجابة لدعوتها الى زواجه فقتلته فقال قصير (لا يطاع لقصير أمر) فذهبت مثلاً (٥) هو دريد بن الصمة

(٦) ميلوا (٧) أى بمساعد ومعين (٨) متغير الطعم واللون

(٩) يضرب مثلاً لمن خاض الشدائد والمصاعب صغيرها وكبيرها

ومن خطبه خطبته بعد أن بويع وهى بعد الحمد والثناء

أما بعد فانى قد حُمّلت وقد قبلت ، ألا وإنى متّبع ولستُ بمُبتدع ، ألا وان لكم علىّ بعد كتاب الله عز وجل وسُنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ثلاثًا : اتباعَ من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسَنَنْتُمْ ، وسَنّ سُنَّة أهل الخير فيما لم تَسُنّوا عن ملأ ، والكفّ الاّ فيما استوجبتم ؛ ألا وان الدنيا خضِرة قد شُهِّيت الى الناس ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها فانها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة الاّ من تركها

ومن خطبه أيضاً وهى آخر خطبة خطبها

أما بعد فان الله عز وجل انما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرةَ ولم يعطِكموها لتركنوا اليها ، ان الدنيا تفنى والآخرة تبقى ، فلا تُبطِرنّكم الفانية ، ولا تَشْغَلَنّكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يفنَى ، فان الدنيا منقطِعة ، وان المصير الى الله ، اتقوا الله عز وجل فان تقواه جُنّة من بأسه ووسيلة عنده ، واحذروا من الله الغِيَر ، والزموا جماعتكم لا تصيروا أحزابًا (واذكُرُوا نِعمَةَ الله عَلَيكُمْ اذ كُنتُم أعدَاء فألّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ فأصْبَحتُمْ بِنِعْمتِهِ إخوانًا)

على بن أبى طالب – كرم الله وجهه

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علىّ بن أبى طالب ، وابن عم رسول الله ، وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين ، وامام الخطباء من المسلمين

ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أوّل من آمن من الصبيان . وكان شجاعًا لا يُشقّ له غبار ، أيدا جَليدا . شهد الغزوات كلها مع النبى الاّ غزوة تَبُوكَ ، وأبلى فى نُصرة رسول الله ما لم يُبْلِه أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز وامتنع من بيعته معاويةُ وأهلُ الشام شيعةُ بنى أمية غضباً منهم لمقتل عثمان وقلة عناية علىّ بالبحث عن معرفة القتَلة على حَسَب اعتقادهم . فحدث

على مكنون علم لو بُحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرْشِيَةَ(١) فى الطَّوِىّ(٢) البعيدة

سحبان وائل

هو سحبان بن زُفر بن إياد الوائلى، الخطيب المِصْقَع، المضروب به المثل فى البلاغة والبيان . نشأ فى الجاهلية بين قبيلة وائل احدى قبائل ربيعة . ولما ظهر الاسلام أسلم وتقلبت به الأحوال حتى التحق بمعاوية رضى الله عنه ، فكان يُعِدُّه للملمات، و يتوكأ عليه عند المفاخرة : لقوة عارضته وسُرْعة خاطره

قدم على معاوية وفدٌ من خُراسان وفيهم سعيد بن عثمان بن عفّان، فطلب سَحْبان فلم يجده فى منزله، فاقتُضِب من ناحية اقتضاباً وأُدخل عليه . فقال له معاوية تكلم فقال: أحضروا لى عصاً – قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ – قال: ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه – فضحك معاوية وأمر له باحضارها ؛ فلما وصلت اليه رَكَلَهَا(٣) فلم تَرُقْ فى نظره فطلب عصاه فأخذها، ثم خطب من صلاة الظهر الى أن حانت صلاةُ العصر، ما تنحنح ، ولا سَعَلَ ، ولا توقف، ولا تَلَـكَّأَ، ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى منه شىء ، فما زالت تلك حالَه حتى دَهِش منه الحاضرون، فأشار اليه معاوية بيده، فأشار اليه سحبانُ لا تقطَعْ علىَّ كلامى – فقال معاوية : الصلاة قال هى أمامك ، نحن فى صلاة وتحميد، ووعد ووعيد – فقال معاوية : أنت أخطبُ العرب – قال سحبان والعجم والجن والانس

وكان سحبانُ اذا خطب يَسِيل عرقاً ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ ﻫ

ومما يؤثر من خطبه قوله(٤)

إن الدنيا دارُ بَلاَغ ، والآخرةَ دارُ قرار ، أيها الناس خذوا من دار ممرِّكم لدار

---

(١) جمع رشاء وهو الحبل (٢) البئر المطوية بالحجارة أى المبنية بها

(٣) ركل الشىء برجله رفسه والمراد هنا خبرها ليعرف صلابتها

(٤) ونسبها القالى فى الامالى لبعض الاعراب فى صدر بنى العباس . ولعل السر فى عدم تدوين خطبه انه كان يميل الى الاطالة التى يعجز الرواة معها عن الحفظ، على انها لم تكن سياسية والقوم فى هذا العصر مغرمون بالسياسة

مقرِّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأَخْرِجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرُج منها أبدانكم، ففيها حَيِيتم ، ولغيرها خُلِقتم، ان الرجل اذا هلك، قال الناس ما ترك ؟ وقال الملائكة ما قدَّم ؟ ، قدِّموا بعضاً يكون لكم ولا تُخَلِّفوا كُلاًّ يكون عليكم

زياد بن أبيه

هو أحد دهاة العرب وساستها ، وخطبائها وقادتها

نسبه وحياته

المأثور أنه قلَّما وقع البغاء فى الجاهلية من غير الإماء ، ومنهن سُمَيَّةُ أمَةُ الحارث بن كَلَدَةَ الثَّقَفىّ طبيب العرب ، وقد قرَنها بعبد له رومىّ يدعى عُبَيداً ، فولدت سمية زياداً على فراش عبيـد هذا فى السنة الأولى من الهجرة ، فنشأ غلاماً فصيحاً ، شجاعاً داهياً، قارئاً كاتباً ، فما افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عرف منه ذلك فاستكتبه أبو موسى الأشعرى والى البصرة من قبَل عمر ، (رضى الله عنه) فأظهر من الحذق وحِدّة الذكاء وبُعدالغور ما جعل أمير المؤمنين يقول عند ما عزله عن عمله (انه لم يعزله لعجز ولا لخيانة ، وانما كره أن يَحمِلَ على الناس فضلَ عقله) غير أن ذلك لم يكن ليصُدَّه عن استكفائه بعضَ مَهامِّ أُموره ، فكان فى جميعها مرضىَّ المقام، محمودَ الأثر ، حتى قال فيه عمرو بن العاص (لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه !)

ولما رأى أبو سفيان بنُ حرب بعـد اسلامه حصافة عقل زياد ، وحسن بلائه وفصاحة لسانه، أسرَّ الى بعض قريش ومنهم علىّ (كرّم الله وجهه) بأن زياداً ابنه اشتملت عليه سُميةُ منه وهو مشرك ، ولكنه لم يستلحقه علانية أنفة من العار، وخشية من عمر

ولما ولِىَ أمير المؤمنين علىّ الخلافة اضطربت عليه فارس ، فاستشار الناس فيمن

يكفيه أمرها ، فأشار بعضهم بزياد ، فسار الى فارس بجمع كثير ، فتمكن بخداعه ودهائه من إيقاع النفور والشقاق بين رؤساء المشاغبين ، وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم ، ولم يلقَ منهم حربًا ولا كيداً ، وبقى يتولى لعلىّ الأعمال حتى قتل علىّ ، فخافه معاوية واهتم له كثيراً ، فأرسل اليه المغيرةَ بن شُعْبة يتلطف له ويستقدمه ، فقدم عليه فادّعاه أخًا له ، واستلحقه بنسب أبيه أبى سفيان بشهادة شهود فى محضر من الناس ، وصار يسمى زياد بن أبى سفيان بدل زياد ابن عبيد ، والمتورّعون يسمونه (ابن سُمية أو ابن أبيه)

وولاّه معاوية البَصرة وخُراسان وسِجِستان ثم جمع له الهند والبحرين وعُمَان ، ثم ضم اليه الكوفة ، فأصبح بذلك واليًا على العراقين ، وهو أوّل من جُمع له بينهما ؛ فسار فى الناس سيرة لم بها الشعث ، وأقام المعوَج ، وكبَح الفتنة ، واشتطّ فى العقوبة ، وأخذ بالظِّنة ، وعاقب على الشبهة ، حتى أكّد الملك لمعاوية ، وحتى شمِل خوفُهُ جميع الناس ، فأمِن بعضهم بعضًا

وكان الشىء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتى صاحبه فيأخذه ، بل كان لا يغلق أحد بابه ، وكان زياد يقول : (لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه) . وكان مكتوبًا فى مجلسه عنوانُ سياسته وهى (الشدّة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى باحسانه ، والمسىء يعاقب باساءته)

أما فصاحته فيكفيك فى وصفها ما رواه الجاحظ عن الشعبى قال : (ما سمعت متكلمًا على منبر قط تكلم فأحسن الاَّ أحببت أن يسكت خوفًا من أن يسىء الاَّ زياداً ، فانه كلما اكثرَ كان أجود كلامًا) وتوفى بالكوفة فى رمضان سنة ٥٣ هـ

ومن خطبه البليغة خطبته حين قدم الى البصرة وهى[١] :

أما بعدُ فان الجهالة الجهلاء والضَّلالة العمياء ، والغَيَّ الموفىَ بأهله على النار ما فيه سُفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم : من الأمور التى ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها

(١) كما فى صبح الاعشى وتروى فى البيان والتبيين والطبرى والعقد الفريد بروايات مختلفة

الكبير ؛ كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يزُول . إنه ليس منكم إلاَّ مَنْ طرَفت عينَه الدنيا ، وسدَّت مسامعَـهُ الشهوات ، واْختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الاسلام الحَدَث الذى لم تُسبقوا إليه : من ترْكِكم الضعيفَ يُقْهَر ، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تُنصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاة يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار ! قرَّبتم القرابة ! وباعدتم الدين ؛ تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون على النُّكر . كل امرئٍ منكم يردّ عن سفيهه ، صُنْعَ من لا يخاف عقابًا ولا يرجو مَعاداً . فلم يزَل بهم ما ترَوْن من قيامكم دُونَهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوسًا فى مكانس الرِّيَب ، حرام علىَّ الطعام والشراب حتى أضعَ هذه المواخير بالأرض هدْمًا وإحراقًا انى رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلُح إلاَّ بما صَلح به أوّله : لينٌ فى غير ضَعف ، وشدّة فى غير عُنف ، وإنى لأقسم بالله لآخذنَّ الولىَّ بالموْلى ، والمقيمَ بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقولَ « انجُ سَعْدُ فقد هلَكَ سَعيد » أو تستقيم لى قَناتُـكم . إن كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلَّتْ لكم معصيتى ؛ وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ فجعلتُ ذلك دَبْرَ أذنى وتحت قَدَمى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغضى لم اكشف له قناعًا ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يُبْدِيَ لى صَفْحتَـه ، فاذا فعل ذلك لم أُناظره ، فاستأنفوا أُموركم وأعينوا على أنفسكم ، فربَّ مبتئس بقدومنا سيُسَر ، ومسرور بقدومنا سيَبتئِس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسةً ، وعنكم ذَادةً ، نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا ، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا ، فاستوجِبوا عدلنا وفَيْئَنا بمناصحتكم لنا

الحجاج

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثَّقفى، رجلُ ثقيف، وأحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحكامها، ومُوَطِّدُ ملك بنى أمية، وأحدُ البلغاء والخطباء المصاقع ولد سنة ٤١ ﻫ وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف موطنِ ثقيف، ثم لحق برَوْح بن زِنْباع الجُذامى أحدِ أعوان عبد الملك بن مَرْوان فكان فى شُرْطته ثم صار رئيسها[1]

وأوّل ما اشتهر من أمره قيادته الجيشَ الذى وُجِّهَ لقتال عبد الله بن الزبير فسار اليه وحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه، فولاّه عبد الملك العراقَ، وكان كلُّه ناراً ملتهبة بفتنة الشّيعة والخوارج، فاستعمل من الشدّة والقسوة وسفك الدماء وارهاب الأُمة ما لم يُسْمَع بمثله، وجدَّد الملك لبنى أمية، وكان عاقبة أمره أمرين عظيمين: أولها يُمدَح عليه: وهو جمع أشتات المسلمين تحت راية واحدة هى راية الخليفة العربى الأُموى، وثانيهما يُذَم به: وهو إذلال الأمة العربية اذلالاً لم تعهَدْه

(١) وأول ما عرف من كفايته أن عبد الملك بن مروان شكا ما رأى من انحلال العسكر وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله حين توجه الى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عند ما عصى عليه - فقال له رَوْح بن زنباع يا أمير المؤمنين ان فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج بن يوسف - قال فانا قد قلدناه ذلك فكان لا يقدر احد ان يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون - فقال لهم ما منعكم ان ترحلوا برحيل أمير المؤمنين - فقالوا له انزل يا ابن . . . فكل معنا - فقال هيهات ذهب ما هنالك ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فاحرقت بالنار فدخل روح بن زنباع على عبد الملك ابن مروان باكياً فقال له ما لك - فقال يا أمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى - قال علىَّ به فلما دخل عليه قال ما حملك على ما فعلت قال ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين - قال ومن فعله قال أنت والله فعلت انما يدى يدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين ان يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له فأخلف لروح بن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج فى منزلته وكان ذلك اول ما أعجب عبد الملك منه

منذ خُلقت بما قتل من نَخْوتها، وسلب من حريتها، وأخرس من ألسنتها فدخلت بعده فى طَوْر خُضُوع وامتثال للحكام المستبدِّين أكمل بقيته نصراء الدولة العباسية من الأعاجم

وخدم الحجاج بولايته عبدَ الملك بن مروان، وابنيه الوليد وسليمان، حتى كان ملكه ما بين الشام والصين، ومات سنة ٩٥ ﻫ فى عهد سليمان فى مدينة واسط[1] التى بناها بالعراق

وكان الحجاج آية فى البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة. قال الأصمعى: أربعة لم يلحنوا فى جدّ ولا هزل: الشّعبى، وعبد الملك بن مروان، والحجاج[2] ابن يوسف، وابن القِرِّيَّة[3]، والحجاج أفصحهم، وقال مالك بن دينار: ما رأيت أحداً أبين من الحجاج، إنه كان ليرقى المنبر فيذكر احسانه الى أهل العراق، وصفحه عنهم واساءتهم اليه، انى لأحسَبه صادقاً وأظنهم كاذبين

ومن مآثره ما يأتى لك من اهتمامه بوضع النُّقط والشكل للمصحف وغيره، ونسخه عدة مصاحفَ من مصاحف عثمان، وارسالها الى بقية الأمصار

ومن خطبه المشهورة خطبته لما قدم أميراً على العراق فانه دخل المسجد مُعْتَمًّا بعمامة قد غطَّى بها أكثرَ وجهه مُتقلِّداً سيفاً مُتنكِّباً[4] قوساً يؤمُّ المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعِد المِنبر فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض قَبَح الله

(١) بلد بالعراق (٢) زعم بعضهم أن الحجاج قد أخطأ ونسب له ما يأتى: قال الحجاج للشعبي كم عطاءك فى السنة قال ألفين قال ويحك كم عطاؤك قال ألفان - قال وكيف لحنت أولا - قال لحن الامير فلحنت فلما أعرب أعربت، ولم اكن ليلحن الامير فاعرب انا عليه فاكون كالمقرع له والمستطيل عليه بفضل القول. وروى ايضا ان الحجاج قال ليحيي بن يعمر أتسمعنى ألحن قال فى حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك اشنع ثم قال له ما هو قال تقول (قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله) فتقرأ احب بالرفع قال الحجاج لا جرم انك لا تسمع لى لحنا بعد هذا ثم الحقه بخراسان

(٣) هو ايوب بن يزيد والقرية امه (٤) تنكبت القوس القيتها على منكبي

بنى أمية حيث تَستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عُمَير بن ضابئ البُرجمى : ألاَ أحصِبهُ لكم – فقالوا : أمْهِل حتى ننظر ، فلما رأى عيونَ الناسِ اليه، حَسَر اللِّثام عن فيه ونهض ثم قال :

أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ثم قال : يأهل الكوفة انى لأرى رءوساً قد أينَعَتْ وحان قِطافها، وانى لَصاحبها، وكأنى أنظر الى الدماء بين العمائم واللِّحى ، ثم قال :

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدِّى زِيَمْ[1] قد لَفَّها[2] الليلُ بسوَّاقٍ حُطَم[3]
ليس براعى إبل ولا غَنَمْ ولا بجزَّار على ظَهْرِ وَضَمْ[4]
قد لَفَّها الليـلُ بعَصْلَبِىّ[5] أرْوَعَ[6] خرَّاجٍ من الدَّوِّىّ[7]
مُهاجرٍ ليس بأعرابىّ
قد شمَّرت عن ساقها فشُدُّوا وجَدَّت الحربُ بكم فجِدُّوا
والقَوْسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ[8] مِثْلُ ذِراعِ البَكْرِ[9] أو أشَدُّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدُّ

انى والله يأهل العراق ما يُقَعْقَع لى بالشِّنان[10] ، ولا يُغمز جانبى كتغماز التين ولقد فُرِرت[11] عن ذكاء، وفُتِّشت عن تجربة ، وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نَثَرَ كنانته[12] بين يديه فعجَم[13] عيدانها فوجدنى أمرَّها[14] عُوداً وأصلبها مَكْسِراً فرماكم بى لأنكم طالما أوْضَعْتُم[15] فى الفِتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله

(١) اسم فرس أو ناقة (٢) جمعها
(٣) لا يبقى من السير شيئاً (٤) كل ما قطع عليه اللحم (٥) شديد
(٦) ذكى (٧) الدو الصحراء اى خراج من كل عماء شديدة، والداوية الصحراء المتسعة التى تسمع لها دوياً بالليل (٨) شديد (٩) الفتى من الابل
(١٠) الشنان جمع شن وهو الجلد اليابس فاذا قعقع به أى ضرب نفرت الابل منه ، يضرب ذلك مثلاً لنفسه (١١) فر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وعن الأمر بحث عنه
(١٢) الكنانة جعبة السهام من جلد (١٣) عضها لينظر ايها اصلب (١٤) اقواها
(١٥) الايضاع ضرب من السير

لأحْزِمنَّكم حزم السَّلَمة[1] ، ولأضربنَّكم ضرب غرائب[2] الابل ، فانكم لكأهلِ قريةٍ كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رِزْقُها رغَداً من كل مكان فكفَرَتْ بأنْعُم الله فأذاقها الله لباسَ الجُوع والخَوْف بما كانوا يَصْنعون . وانى والله ما أقول الاَّ وَفَيْت ، ولا أهُمّ الاَّ أمْضيت ، ولا أخلُق[3] الاَّ فَرَيت[4] . وان أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم أعطياتِكم وأنْ أوجِّهكم لمحاربة عدوِّكم مع المُهلَّب[5] بن أبى صُفْرة، وانى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الاَّ ضربت عنقه

---

(١) نوع من الشجر ، وذلك لأن الاشجار تعصب أغصانها ثم تختبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان
(٢) وهى تضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الحوض أشد الضرب
(٣) أقدّر
(٤) قطعت
(٥) هو أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة الأزدى البصرى قائد قواد الأمويين ومبيد الخوارج ومبتدع الركب الحديد
ولد بالبصرة ونشأ بها وظهر أمره فى مقاتلة الخوارج مدة الحجاج وقد أبلى فى مقاتلتهم هو واولاده اعظم بلاء حتى طهر البصرة منهم فنسبت اليه فقيل بصرة المهلب
وولاه الحجاج خراسان فأقام بها حتى مات سنة ٨٢هـ على ما رواه الطبرى
وله كلمات مأثورة منها : الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة —— لو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فىّ غداً اذا مت —— يابنىّ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم

الكتابة

للكتابة كما أسلفنا معنيان : خطيَّة وانشائية

الكتابة الخطية

كان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدإ ظهور الاسلام هو الخط الأنبارى الحيرى ، المسمى بعد انتقاله الى الحجاز بالحجازى ، وهو أصل النسخ ؛ وكان يكتب به النزرُ اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصَّة ، وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود ، فلما انتصر النبى صلى الله عليه وسلم على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب ، فقبل الفداء من أمِّيِّهم وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينــة ، فانتشرت الكتابة بين المسلمين، وحض النبى على تعلُّمها، وتمكن أمرها بعد فتح مكة واجتماع شَمل المهاجرين منها والانصار، فما تمَّ نزول القرآن حتى كان لرسول الله اكثر من أربعين كاتباً

ومن أشهر كُتَّاب الصحابة النفر الأربعة الذين كتبوا المصاحف لعثمان وهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، ولما فتح المسلمون الممالك ومصروا الامصار ونزلت جَمْهَرة الكُتَّاب منهم الكوفة ، عنُوا بتجويد الخط العربى وهَندسةِ أشكاله وتمطيط عَراقاته (كاساته) ، حتى صار خطُّ أهل الكوفة ممتازاً بشكله عن الخط الحجازى ، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفى) ، وبه كانت تُكتبُ المصاحفُ المجوَّدةُ الخط ، وحِلَى القصور والمساجد ، وسِكَك النقود ، وبقى الحِجَازِىُّ مستعملاً فى المكاتبات العادية، ثم حدث فى الكوفى أنواع بعد هذا العصر نذكرها بعد

وكان الصحابةُ وتابعُوهم من بنى أمية يكتبون بلا اعجام (١) ولا شكل الاَّ قليلاً ، اعتماداً منهم على معرفة المكتوب اليهم باللغة واكتفائهم بالرمز القليل فى قراءة اللفظ، فلما فسَد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف فى الألسنة وفى قراءة القرآن ، أشْفقَ المسلمون على تحريف كَلِم الكتاب الكريم ، فوضع أبو الاسود الدُّؤلِيّ علامات فى المصاحف بصبغ مخالف ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، والكسرة نقطة أسفله ، والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجعل التنوين نقطتين ، وكان ذلك فى خلافة معاوية

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يعمَر بأمر الحجاج نَقْطَ الاعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام ، وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان، ثم شاع فى الناس بعدَ . كما ترى ذلك واضحاً فى النماذج الآتية :

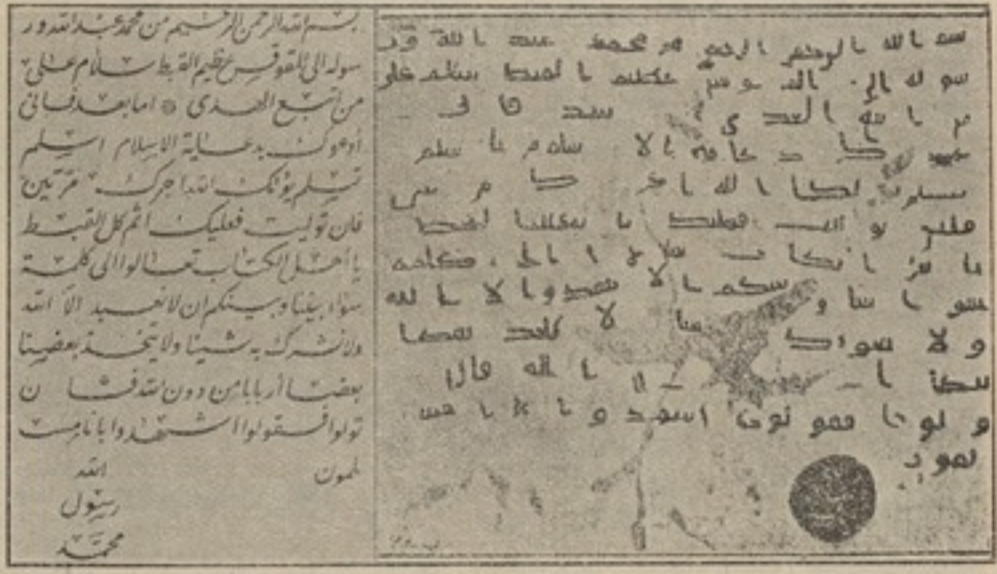

صورة كتاب النبى عليه الصلاة والسلام الى المقوقس عظيم القبط

(١) لعل الاعجام بالنقط لتمييز الحروف سابق هذا العهد الا انه لم يكن ملتزما وربما لم يكن شاملا لجميع ما اعجمه نصر ويحيى

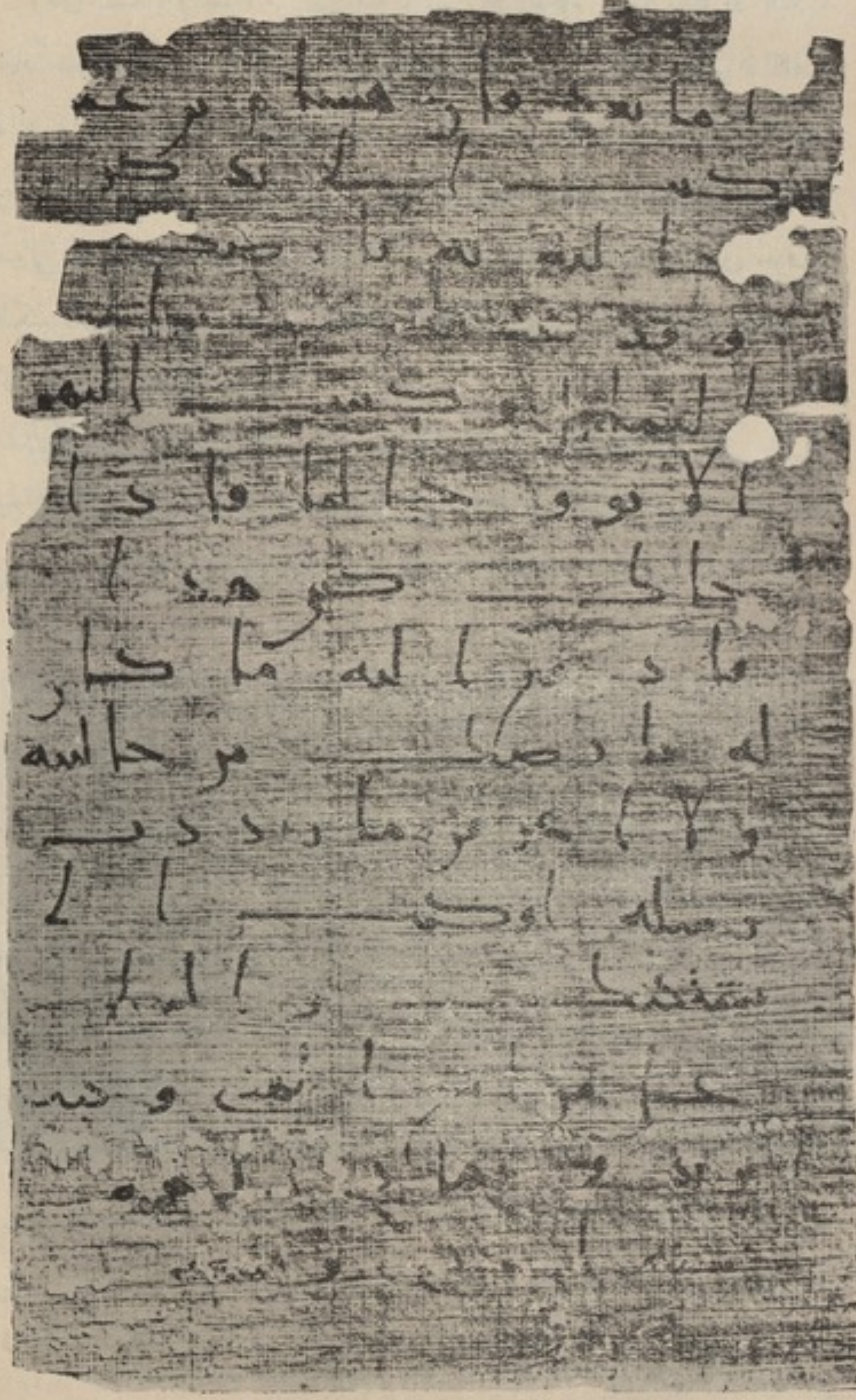

وتوضيح ما يقرأ منها

. . . .
أما بعد فان هشام بن عمر
كتب الىّ يذكر
جالية له بأرضك
وقد تقدمت الى
العمال وكتبت اليهم
ألاّ يؤوا جاليا
فاذا جاءك كتابى هذا
فادفع اليه ما كان
له بأرضك من جاليته
ولا أعرفن ما رددت
رسله أو كتب الىّ
يشتكيك والسلام
على من اتبع الهدى وكتب
يزيد فى جمادى الآخرة
سنة احدى وتسعين

وهذا النموذج منحرف عن الهيئة الكوفية الى الهيئة التى نحن عليها الآن وخال من النقط

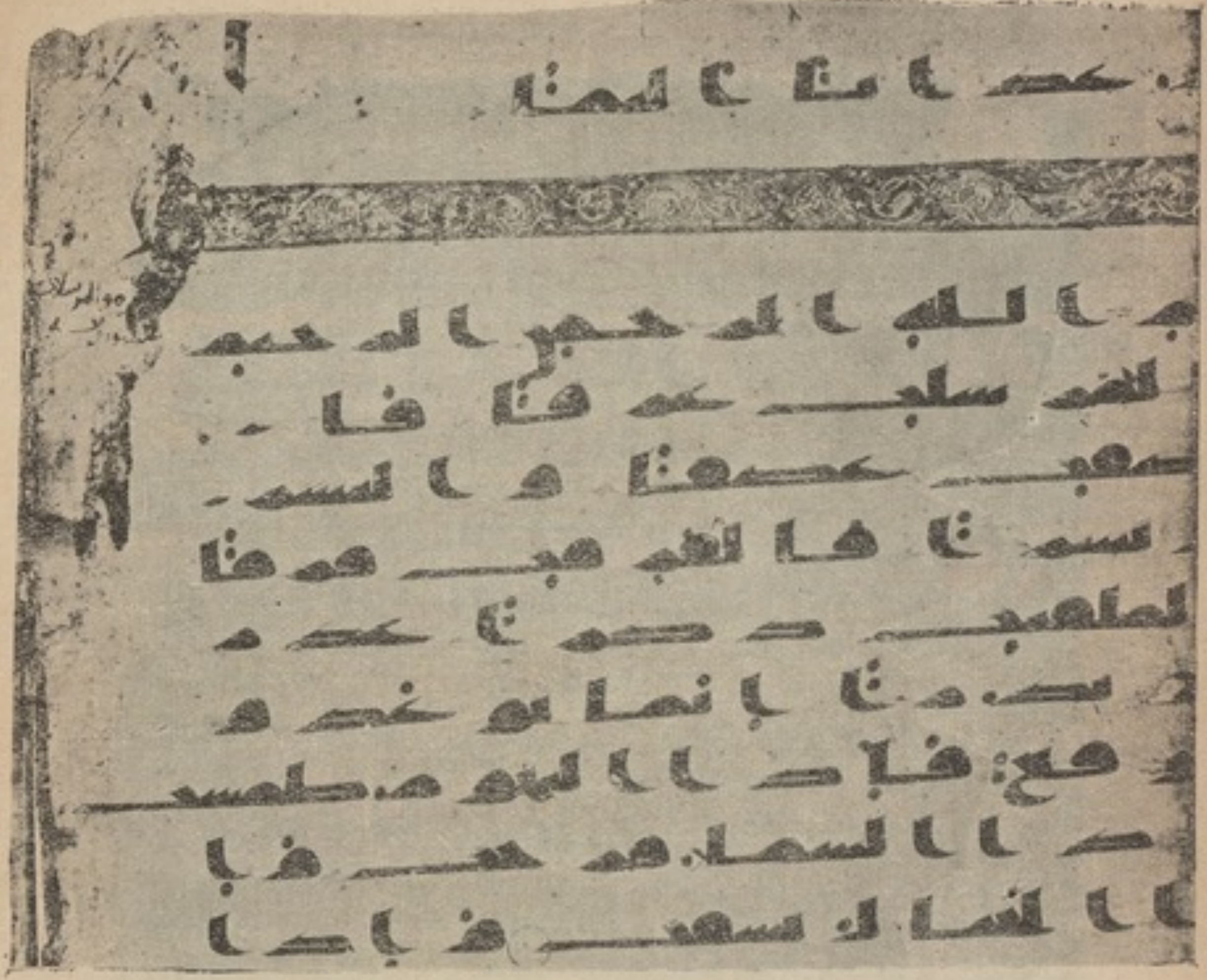

(نموذج مضبوط بالنقط على طريقة أبى الأسود)

عَذَابًا أَلِيمًا

بسم الله الرحمن الرحـــيم

وَالْمُرْسَلٰتِ عُرْفًا فا
لعَـٰصِفٰتِ عَصْفًا فَالنَّشِرٰتِ
نَشْرًا فَالفَـرِقٰتِ فَرْقًا
فَالْمُلقِيٰتِ ذِكْرًا عُذْرًا
أَوْ نُذْرًا انَّمَا تُوعَدُونَ
لوَقِـعٌ فَإِذا النُّجُومُ طُمِسَتْ
وَاذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وَإِ
ذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا

الكتابة الانشائية

وهى قسمان : كتابة رسائل ودواوين (١) وكتابة تدوين وتصنيف

كتابة الرسائل والدواوين

كان زُعماء العرب وفصحاؤهم كلهم كُتَّابًا يُنْشِئون بملكتهم ولو لم يَخُطُّوا بيمينهم ، فكان النبى وأصحابه وخلفاؤه يُمْلُون كتبهم على كُتَّابهم بعبارتهم ، وبعضهم يكتبها بيده ، وكان من ذلك أيام ظهور الاسلام وأزمان الفتوح والمغازى مئات الرسائل والعهود

ولما اتسعت موارِد الخلافة وَوَفَرَت الغنائم وأعطيات الجُنود منهـا أصبحت الخلافة الاسلامية فى حاجة الى انشاء الدواوين لضبط ذلك ، فكان عمر أوَّلَ من دَوَّن الدواوين فى الاسلام وكانت قاصرة على الضَّرُوريّ منهـا لمكان البداوة من الأمة

وكان كتاب الرسائل للخلفاء وعمالهم إما عربًا أو مَوالِيَ يُجيدون العربية أما كتاب الخراج ونحوه فكانوا فى كل اقليم من أهله يكتبون بلغتهم فيكتبون فى فارس والعراق بالفارسية ، وفى الشام بالرومية ، وفى مصر بالقبطية ؛ ولما نبغ من العرب من يحسن عَمَلَهم حُوِّلَتْ هذه الدواوين الى العربية زمنَ عبد الملك بن مَرْوان والوليد ابنه ، وجرى خلفاء بنى أمية فى كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين

ثمَّ لما اتسعت رُقْعة المملكة وقرت أمور الدولة ازدادت الأعمال وشُغِل الخلفاء عن أن يَلُوا الكتابة بأنفسهم أو بخاصة عشيرتهم ، عهِدوا بها الى كبار كُتَّابهم فتوفَّروا عليها حتى أوشكت فى أواخر دولتهم أن تصير صناعـة عتيدة ، متَّحِدة الأصول

(١) الديوان الكتاب يكتب فيه أهل العطية ، وأول من وضعه عمر رضى الله عنه ، ثم صار يطلق على المكان الذى يجتمع فيه الكتاب

متشعبة الفروع بما أدخله فيها الناشئون من أبناء الكتاب والموالى بعد نقل الدواوين الى العربية

وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية وهى لغات أمم ذات حضارة وعلوم، ونظام ورسوم، ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل، وأستاذ عبد الحميد الكاتب الذى آلت اليه زعامة الكتابة آخر الدولة الأموية، ومع كل ذلك لم تصل درجة الكاتب العظيم فى هذا العصر الى ما وصلت اليه بعد من ارتقاء مرتبة الوزارة

مميزات الكتابة الانشائية

وتمتاز الكتابة فى هذا العصر بالميزات الآتية

(١) الاقتصارُ فى أغراضها على القدر الضرورى لدولة عربية، لقلة تجزئة الأعمال وضبط الأمور الصغائر ولشمول العدالة والثقة اكثرَ عمَّال الأمة وانصاف الناس بعضهم بعضاً

(٢) الاقتصار فى معناها على الالمام بالحقائق وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل

(٣) استعمال الألفاظ الفحلة، والعبارات الجزلة. والأساليب البليغة. إذ كان الكاتب والمكتوب اليه عربا فصحاء؛ وكان البيان غايةَ النبيل منهم لقلة العلوم والفنون والصنائع التى تشغلهم عن ذلك كما شغلت خَلَفهم فقد كانوا يتوخَّونَ ملاءمتها لحال المكتوب اليه: فتارة تكون موجزَةً سهلة وذلك اذا كانت لغير العرب ليسهل على من له المام باللغة ترجمتها كما ترى ذلك فى كتبه صلى الله عليه وسلم الى كسرى ابرويز ملك فارس أو هرقل قيصر الروم، وتارة تكون عالية العبارة متينة الأسلوب اذا كان المخاطب عربياً فصيحاً كما كان ذلك فى كتبه صلى الله عليه وسلم الى بنى

نَهْدٍ[١] والى وائل بن حُجْر، والى أهل حَضْرَمَوْتَ

(٤) مراعاة الايجاز غالبًا الا حيث يستدعى الحالُ الإسهابَ، وبقى الأمر على ذلك حتى جاء عبدالحميد الكاتب آخرَ الدولة الأموية، فأسهب فى الرسائل، وأطال التحميدات فى أوّلها، وسلك طريقه مَنْ أتى بعده

(٥) قلّةُ التفنن فى أنواع البدء والختام، فقد كانت الجاهلية تكتب فى أوّل كتبها باسمك اللهمَّ وبعدها يكتب من فلان الى فلان ويَمْضون فى الغرض، وكان صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة، وبعدها من محمد رسول الله الى فلان، ويبتدئ غالباً صدورَها بالسلامُ عليكم أو السلام على من اتّبع الهدى، ويثنى بالتحميد بعد السلام فيقول: انى أحمد اليك الله الذى لا إله الاَّ هو، ويتخلص من صدر الكتاب الى المقصود تارة بأمَّا بعد وأخرى بغيرها؛ وكان يختمها فى الأكثر بالسلام عليكم ورحمة الله، أو السلام على من اتبع الهدى

(٦) التعبير عن النفس بلفظ الإفراد مثل (أنا ولى وجاءنى ووفَدَ علىّ)، ومخاطبة المكتوب اليه بكاف الخطاب وتائه، وعند التثنية بلفظها مثل (أنتما ولكما) وعند الجمع بلفظه أيضاً مثل (أنتم ولكم) - وبقى الأمر متبعاً فى خلفائه وخلفاء بنى أمية الى أن ولى الوليد بن عبد الملك فجوَّد القراطيس، وجلّل الخطوط، وفخَّم المكاتبات، وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك الا ما كان من عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فانهما جريا فى ذلك على طريقة السلف. ثم رجع الأمر الى ما سنّه الوليد بن عبد الملك الى أن صار الأمر الى مروان بن محمد آخر خلفائهم وكتب له عبدالحميد بن يحيى، وكان من اللسَن والبلاغة على ما اشتهر ذكره فأطال الكتب وأطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها كما تقدّم

---

(١) قبيلة باليمن

الكتّاب

كتّاب هذا العصر كثيرون ، فقد كانت الخلفاء والأمراء والقوّاد كلهم كتابًا بلغاء وانك لترى كثيراً من رسائلهم وعهودهم فى تاريخ الطبرى وغيره من كتب المغازى والفتوح . ولما صارت الكتابة صناعة ، تداولها كثير من الأعاجم وغيرهم ، واشتهر من بين هؤلاء عبد الحميد الكاتب ، وهاك ترجمته :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ ولاء الشامىّ دارا شيخُ الكتّاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل

كان عبد الحميد من أهل الشام من موالى بنى عامر ، وتخرّج فى البلاغة والكتابة على خَتَنِه(١) أبى العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وكاتب دولته وأحد بلغاء العالم والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد فى أوّل أمره معلّم صبيان يتنقّل فى البلدان حتى فَطِن له مَرْوان بن محمد أيام توليته أرْمينيَةَ وانتدابه لتسكين فتنتها فكتب له مدة ولايته حتى اذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة ، سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه الاَّ عبد الحميد فقال له مروان لم لا تسجد ؟ فقال ولمَ أسجد ؟ أعلى أن كنت معنا فطرْت عنا ؟ — قال اذاً تطير معى — قال الآن طاب لى السجود وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته ، فصدر عنه من الرسائل ما صار نموذجًا يحاكيه مَن بعده من البلغاء

ولَمَّا دَهِمتْ مروانَ جيوشُ خُراسان أنصارُ الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبدُ الحميد يلازمه فى كل هذه الشدة ، فقال له مروان : قد احْتجتَ أن تصيرَ مع عدوّى وتظهرَ الغدر بى ، فان اعجابهم بأدبك وحاجتهم الى كتابتك تُحْوِجهم الى حسن الظن بك ، فان استطعت أن تنفعنى فى حياتى والاَّ لم تعجزْ عن حفظ

(١) الختن هنا كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ

حُرَمى بعد وفاتى — فقال له : ان الذى أشَرْت به علىّ أنفعُ الأمرين لك وأقبحهُما بى ، وما عندى الاَّ الصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقْتَلَ معك وأنشد :

أُسِرّ وفاء ثم أُظْهِرُ غَـدْرَةً ؟ فَمَنْ لى بعذرٍ يُوسِع الناس ظاهرُه ؟

وبقى معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ ﻫ ففرّ واختبأ عند صديقه ابن المقفع ففاجأه الطلب وهو فى بيته ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبدُ الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا خوفًا على صاحبه . وخاف عبد الحميد أن يُسْرِعوا الى ابن المقفع فقال : تَرَفَّقُوا بنا فان كلاًّ منا له علامات ، فوكّلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا ، وأُخِذ عبد الحميد الى السَّفَّاح فقتله سنة ١٣٢ ﻫ

منزلته فى الكتابة

اتفقت كلمة البلغاء وأهل الأدب على أن عبد الحميد هو الأُستاذ الأوّل لأهل صناعة كتابة الرسائل ، وذلك أنه أوّل من مهّد سبلها ، وميّزَ فصولها ، وأطالها فى بعض الشئون ، وقصّرها فى بعضها الآخر ، وأطال التحميدات فى صدرها ، وجعل لها صوراً خاصَّةً ببدئها وختمها ، على حسب الأغراض التى تكتب فيها ، بل هو الذى رقّى هذه الصناعة التى كانت من مِهَن الموالى ، حتى صارت بعده سُلّما يعْرُج فيه الكاتب الى مرتبة ليس فوقها الاَّ الخلافةُ وهى مرتبة الوزارة ؛ نعم ان ابن المقفع لم يكن دون عبد الحميد فى البلاغة إلاَّ أنه لم يُتَحْ له ما أُتيح لعبد الحميد من رياسة الكتابة فى دواوين الخلافة ، حتى يتسنى له وضع الأنظمة وتنسيق الصور وانما كتب لبعض الولاة وغلبت عليه الترجمة والتصنيف ؛ وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يعجز عنه السحر فى خلب الأفئدة وجذب النفوس ، فيقال إنه لما ظهر أبو مسلم الخُراسانى بدعوة بنى العباس ، كتب اليه عن مروان كتابًا يستجلبه به وضمَّنه ما لو قُرِئ لأدّى الى وقوع الخلاف والفَشَل ، وقال لمروان : قد كتبت كتابًا متى قرأه بطل تدبيره ، فان يكُ ذلك والاَّ فالهلاك . وكان الكتابُ لكبر حجمه يحمل على جمل ، فلما وصل الكتاب الى داهية

آثاره فى الكتابة

عبد الحميد وابن المقفع

الله فيه واستظهروا باجتهادهم رأيًا عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة خشيةَ أن يجرَّهم ذلك الى الاعتماد على الكتب واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، ولأن الكِتابَ عُرْضةٌ للضَّياع والتصحيف والتحريف ، ولو عرض للكتاب عارض فات معه علم الدين

سبب عدم التدوين

ثم لما انتشر الاسلام زمن بنى أمية فى مشارق الأرض ومغاربها ، واختلطت العرب بالأمم المختلفة من الأعاجم ، ففسدت فيهم ملكةُ اللسان العربى ، وفشا اللحنُ وأشفقوا على القرآن من التحريف وعلى اللغة من الفساد — دوَّنوا النحو بعد احجام واقدام وأخذ وردّ ، وكان أوّلَ من كتب فيه أبو الاسود الدؤلى ، وقد تلقى مبادئه عن الامام علىّ ، وأخذ عنه فِتيانُ البَصرة وخصوصًا الموالى ، اذ كانوا أحوجَ الناس الى النحو ، واشتغل أهل الكوفة به بعد أن فشا بالبصرة ، ولم ينقضِ هذا العصرُ حتى اشتغل به طبقتان من البَصريين وطبقة من الكوفيين

تدوين النحو

ثم لما حدثت الفتن وتعدَّدَتِ المذاهب والنِّحل وكثرت الأقوال والفتاوى والرجوعُ فيها الى الرجال والرؤساء ، ومات أكثر الصحابة ، خافوا أن يعتمد الناسُ على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ، فأذِن أمير المؤمنين عمرُ بن عبد العزيز لأبى بكر محمد[1] ابن عمرو بن حَزْم فى تدوين الحديث بعد أن استخار الله أربعين يومًا ، فدوَّن ما يحفظ من حديث رسول الله فى كتاب بعث به عمر الى الامصار ولم يعرف له بعد ذلك خبر

تدوين الحديث

وبقى كثير من التابعين مُحْجِمًا عن التدوين والتصنيف تورّعًا منهم ، وبعضهم كَتَبَ أو سَمَح لمن يكتب عنه فى الحديث ورواية أقوال الصحابة فى التفسير ، وانقضى هذا العصر ولم يُدوَّن فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير . أما العلوم الأخرى فيُرْوَى أن خالد بن يزيد بن معاوية حُبِّبَ اليه مُطالَعَةُ كتب الأوائل من اليونان فتُرجمت له ونبغ فيها ووضع كتبًا فى الطب

تدوين الطب والكيمياء

(١) هو نائب عمر بن عبد العزيز فى القضاء والولاية على المدينة وتوفى سنة ١٢٠ هـ

خراسان أبى مسلم ، أمر باحراقه قبل أن يقرأه وكتب على جُذاذة[1] منه الى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى   عليك ليوثُ الغاب من كلّ جانب

طائفة من نثره

ومما كتبه عبد الحميد موصيًا لشخص :

حقُّ موصل كتابى عليك ، كحقّهِ علىّ : اذ جعلك موضعًا لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزْتُ حاجته . فصدِّق أمَلَه

وكتب الى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفةً بالمكاره والشُّرور ، فمن ساعده الحظ فيها ، سكن اليها ، ومن عَضَّتْه بنابها ، ذمها ساخطًا عليها ، وشكاها مستزيدًا لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويقَ[2] استحليناها ، ثم جمحت[3] بنا نافرة ، ورَمَحَتنا[4] مُولّية ، فملُحَ عذبها ، وخَشُن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرَّقتنا عن الاخوان ، فالدار نازحة[5] ، والطير بارحة[6] ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعدًا ، واليكم وَجْدًا ، فان تتمَّ البلية الى أقصى مدّتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلْحَقنا ظُفُر جارح من أظفار من يليكم ، نرجع اليكم بذل الإسار ، والذل شرُّ جار ، نسأل الله تعالى الذى يُعِزُّ من يشاء ويذل من يشاء أن يَهَبَ لنا ولكم أُلْفَةً جامعة ، فى دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فانه رب العالمين ، وأرحم الراحمين

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يُدَوَّن فيه كتاب الأ ما كان من أمر كتابة المصحف ، وكان مرجعُ الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتابَ الله تعالى وسنة رسوله فاذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة أو استخاروا

(١) قطعة (٢) الفيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع فى الفرع بين الحلبتين والجمع فيق وفيق وفيقات وأفواق وجمع الجمع أفاويق (٣) جمحت الفرس غلبت راكبها
(٤) رمحه الفرس كمنع رفسه (٥) بعيدة (٦) البارح من الطير ما مر من ميامنك الى مياسرك وهو يتشاءم منه

تدوين التاريخ

والكيمياء . وأن معاوية استقدم عُبيد[١] بن شَرْية من صنعاء ، فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين) . وأن وهب[٢] بن مُنَبِّه الزُّهرى وموسى بن عقبة كتبا فى ذلك أيضاً كتباً . وأنَّ زياد بن أبيه وضع لابنه كتاباً فى مثالب قبائل العرب .

الترجمة الى العربية وتدوين الاغانى

وأن ماسَرْجَوَيْه[٣] مُتطبِّب البصرة تولى فى الدولة المرْوانية ترجمة كتاب أهْرُون[٤] ابن أعين من السريانية الى العربية ، وأن يُونُس[٥] الكاتب ابن سليمان ألَّفَ كتاباً فى الأغانى ونِسْبتِها الى من غَنَّى فيها

ولكن ذلك لم يُقنع الباحثين فى تاريخ العلوم وتصنيفها أن يَعتبروا هذا العصرَ عصرَ تصنيف وتدوين اذ لم تتم فيه كتب جامعة حافلة ، وانما كان كل ذلك مجموعات تُدوّن على حسب ورودها واتفاق روايتها

الشعر والشعراء فى هذا العصر

الشعر

جاء النبى الكريم ، والشعر ديوان العرب ، ومَجْمعُ مكارمهم ، ومَنْبَعُ مفاخِرهم ، ومَعْرِض فصاحتهم ، ومَظْهَر نبالتهم ، ومَوضع الرغبة من نفوسهم ، فأتاهم بالأمر العظيم والحادث الخطير ، حاملاً باحدى يديه القرآن يدعو الناس الى توحيد الله والتمسك بالفضيلة ، وشاهراً بالأخرى سيفَ الحق لحماية هذه الدعوة ، وما كان أشدَّ ذهولَهم لخطبهما! وانزعاجَهم من وقعهما! فهبُّوا يَتَحسَّسُون الأوّل ويتمرَّسُون أساليبه ومعانيه ، ويتَفَرَّسُون ألفاظه ومغازيه ، ما بين معاندٍ يتلمس مطعناً فيـه ، ومؤمنٍ يستبينه ويستهديه ، وتأهَّبوا للثانى : ما بين ضال يُناوئه ، ومهتد يُعاضده ، فصار ذلك صارفاً

أثر القرآن فى الشعر

(١) أدرك النبي ولم يسمع منه وكان يروى عن الكيس النمرى وعاش الى ايام عبد الملك ابن مروان (٢) هو أبو عبد الله صاحب القصص والاخبار وسير الملوك واحوال الانبياء وتوفى بصنعاء سنة ١١٦ هـ (٣) يهودى عاش الى صدر بنى العباس وزاد على كتاب اهرون مقالتين عند ترجمته (٤) هو قس متطبب تبلغ كناشته فى الطب ٣٠ مقالة عاش فى مبدأ الاسلام
(٥) نشأ بالمدينة وكان من الكتاب واخذ الغناء عن معبد وابن سريج وابن محرز والغريض واستقدمه الوليد بن يزيد فلازمه حتى قتل

لهم عن التشاغل بالشعر والتَّلَهِّى به والتنافس فيه ، محوِّلاً مَجْرَى أفكار المؤمنين منهم عن اكثر فنونه وأغراضه المنحرفة عن سَنَن الشرف والحق : كالتشبيب ، والمغازلة ، والمدح الباطل ، والاستجداء ، والهجاء . وبغَّض اليهم تلك الفنونَ المرذولة إزراء القرآن على الشعر الذى يقال فيها ويُقْصَرُ عليهـا بقوله (والشُّعَراء يَتَّبِعُهُمُ الغاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وأَنَّهُمْ يَقولُونَ ما لاَ يَفْعَلُونَ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا) ولهذا لم يَكُفَّ شعراء المسلمين عن قوله فيما يُطابق رُوحَ القرآن : كالحث على العمل الصالح ، والموعظة الحسنة ، ومدح الرسول وأنصاره ، والانتصاف للاسلام ممن ظلمه واعتدى عليه بهجاء أهله وذم نبيهم ، فقابلوا هَجْوَهم بهجوكان أشدَّ عليهم من وقع السِّهام فى غَبَش الظلام

اغراض الشعر بعد الاسلام

ولبث الحال على ذلك مدّة حياة النبى الكريم ، حتى اذا ما ثاروا لاسكان فتن أهل الردّة وفتح الممالك والأمصار ، أضافوا الى ما ألفوه من أغراض الشعر ، الإكثارَ من التباهى بالنصر ، ووصفَ المعارك وأحوالَ الحصار وآلاتِ القتال ، وما استعمل فيها من الأدوات العجيبة ، وما شاهدوه من الحيوانات الغريبة ، وغُنْم الغنائم ، ومقاساة أحوال الحر والبرد ، مما امتلأت به كتب الفتوح والمغازى وأخبار على ومعاوية

الشعر والسياسة

ولما آل الأمر الى بنى أمية وشَغَبَ[١] عليهم كثير من فِرَق المسلمين : كالشِّيعة والخوارج وأتباع عبد الله بن الزبير[٢] ، والمختار[٣] وغيرهم ، أصبح الشعر لساناً يعبِّر عن مقاصد كل حزب ، والقومُ عرب ، الشعرُ أسْيَرُ الأقوالِ عندهم ، وأيسرُ الوسائل لاعلاء شأنهم ، واعلان أمرهم

(١) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح هيج الشر عليهم
(٢) أول من ولد من المهاجرين بعد الهجرة ، وبويع له بالخلافة بمكة سنة ٦٤ بعد وفاة يزيد بن معاوية واستمر تسع سنين واجتمعت له العراق واليمن والحجاز ومصر وكاد يتم له الامر ثم قتله الحجاج فى مكة سنة ٧٣ هـ (٣) أحد الخوارج الذين خرجوا بالكوفة طالبين بدم الحسين وتبعه خلق كثير فقتل كثيراً من قتلته ثم قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٩٧ هـ

وكان لخلفاء بنى أمية فى اجتذاب الشعراء اليهم وتحبيبهم فيهم همةٌ لا تَنِى ، وعزيمة لا تُفَلّ فأغدقوا عليهم جزيل العطايا ، وفرضوا لهم الأرزاق فى بيوت الأموال ، واكرموا وِفادتهم ، وقبلوا شفاعتهم ، وبثوا فيهم رُوح التسابق الى أبوابهم والتنافس فى جلب مرضاتهم ، وقصر أشعارهم عليهم دون غيرهم ، بل دُون وُلاتهم ورؤساء شيعتهم . وتبعهم فى ذلك عمالهم ووُلاتهم

ولم يقف خلفاء بنى أمية عند هذا الحد ، بل بالغوا فى اكرام بعض الشعراء دون بعض ، ليقع الشقاق بينهم ، ويتبعهم فى ذلك قبائلهم ، فيلهوهم بذلك عن مناوأتهم ومراقبة أعمالهم ، ويستتبع ذلك اشتغال طبقة المتعلمين والمتأدّبين بالأخذ عنهم ، والبحث فى أقوالهم ، والتعصب لشاعر دون شاعر ، ونحو ذلك مما يُبْعدهم عن الخوض فى السياسة وأمور الملك ، وبذلك عاد الشعر الى ما كان عليه ، ونبغ فيه الشعراء من كل القبائل حتى قريش التى لم يكن لها شأن فيه من قبل

الشعراء والخمر والعصبية

واستعمل فى كل أغراضه السابقة اللهمّ الاّ ماكان من وصف الخمر والترغيب فيها فان جمهور شعراء المسلمين نَزَّهوا شعرهم عنها . وانما أوّل من وصفها منهم وجعلها كدّه وقصده هو أبو الهندى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كما صرح بذلك صاحب الأغانى ، والاّ ماكان من العصبية الذميمة ، فان الشيعة ودُعاةَ بنى العباس أثاروا عَجاجها[1] وأشعلوا نيرانها أواخر الدولة الأموية على يد الكُميت ومتابعيه

وقصارى القول ان الشعر أصبح حرفة عتيدة ، وصناعة جديدة ، ومورد ثروة لكثير من البيوت والعشائر ، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دَأْبَ العلماء والأدباء حتى الخلفاء وأولياء عهودهم ، إذ لم يكونوا أقلَّ من هؤلاء عناية وحرصاً على تعلمه

ويمكن وصف ماكان عليه الشعر فى هذا العصر من حيث أغراضه ومعانيه وتصوّراته وعباراته بما يأتى :

(١) غبارها

أغراضه وفنونه

(١) نشر عقائد الدين وحكمه ووصاياه والحثُّ على اتّباعه وخاصةً زمن النبى وخلفائه الراشدين

(٢) التحريض على القتال والترغيبُ فى نيل الشهادة رفعًا لكلمة الله وذلك فى أزمان غزوات النبى وفتوح الأمصار

(٣) الهجاء – وكان أوّلاً فى سبيل الدفاع عن الاسلام بهجو مشركى العرب بما لا يخرج عن حد المروءة ، وبما رضيه النبى من حسّان شاعره فى هجاء قريش وعشيرة النبى من بنى عبد مَنَاف . وكان يتحرَّج عنـه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبى وخلفائه: ولذلك عاقب عمرُ أمير المؤمنين الحُطيئةَ وهدّده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين ، ثم صار يُتَساهل فى خَطْبه حتى أصبح الشعراء يهجون أنفسهم[1] ويسب بعضهم قبائل بعض أمام خلفاء بنى أمية بل برضاهم وباغرائهم للأسباب السياسية التى ذكرناها قبل ، حتى كان الهجاء غاية براعة الشاعر[2] وإن لم يصل فى الإقذاع[3] والفُحش الى الحدّ الذى وصل اليه فى العصر الآتى – ومن ذلك التهاجى المشهور بين جرير والفرزدق والأخطل

(٤) وصف القتال وحصار المدن وفتحها وغير ذلك مما سبق ذكره آنفًا

(٥) المدح – وقلَّما كان مبدأ الاسلام فى غير النبى من حيث الاهتداء بهديه ونشر الحق على يديه . وكان خلفاؤه يأنفون مدحَهم بما تُزْهى بِهِ نفوسهم تورُّعًا وتواضعًا ثم استرسل الشعراء فيه وقَبِل ذلك منهم الخلفاء الى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة ، وتفخيم مقام الخلفاء والوُلاة والإشادة[4] بعظمتهم ، فكان إذ ذاك بمثابة الصحف العظمى المشايعة للحكومات أو لأحد زعماء الأحزاب فى زماننا

(١) ممن هجا نفسه الحطيئة بقوله
(أرى لى وجهاً شوّه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله)
(٢) قال الاصمعى انما وضع من ذى الرمة أنه لا يحسن ان يهجو ولا أن يمدح
(٣) قذعه كمنعه رماه بالفحش وسوء القول كأقذعه (٤) أشاد بذكره شهره ومدحه

(٦) استعماله فى النسيب والغزل العفيف بما يخالف مسلك أهل الجاهلية فيه ، واكثر ما كان ذلك فى أهل البدو وبين العُشّاق منهم

معانيه وأخيلته

لم يخرج شعراء هذا العصر فى جملة تصوّرهم وتخيلهم عما ألفوه زمن الجاهلية ، وإن فاقوهم كثيراً فى ترتيب الفكر وتقريب المعنى الى الأذهان والوجدان ، بما هذّب نفوسهم ورقّق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسول الله ، وهما من المعانى والحكمة ماهما ، وبما نوّع خيالهم وأنمى معارفهم : من مَشاهد الحضارة وبدائع الصناعات غير أننا لا نجد فى شعرهم من المبالغة والتهويل والتعمق فى المعانى العقلية العسرة الادراك ما نجده لأهل العصر التالى ، لاشتغال القوم بالفتوح والمغازى وتأسيس الحضارة والعُمران

ألفاظه وأساليبه

وكذلك لم يَخرُجوا جملة فى هيئة تأليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرها فى الجاهلية ، وانما آثروا جَزَالة اللفظ وفخامته وحسن جَرْسه ونَغْمته ، ومؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابته وحُوشيّته وتنافره مع قرينه ، كما آثروا جودة الأسلوب ومتانته وروعة تأثيره ، ولا سيما أهل النسيب[1]

وربما انطبق كل هذا الوصف على القصيد دون الرجز إذ كانت الغرابة كأنها من ألزم طبائعه . ولاشك أن جل التأثير فى ترقيق حاشية عبارة الشعر العربى يرجع الى حفظ القرآن والحديث ودراستهما كما قدمنا

أوزانه وقوافيه

لم يطرأ على أوزان الشعر العربى حَدَثٌ غيرُ ماعُرِف عنه فى الجاهلية ، وانما شاع

(١) مثل عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة

فى هذا العصر نظم الأراجيز والتطويلُ فيها ، واستعمالُها فى جميع أغراض القصيد ، حتى فى افتتاحها بالنسيب والتخلص منه الى المدح والذم ونحو ذلك

الشعراء

شعراء هذا العصر ممن خَلَصت عربيتهم ، واستقامت ألسنتهم ، ولم يمتدّ اليهم اللحن ولقد زادتهم مدارسة القرآن الكريم فصاحةً وبلاغة ، وإحكامًا واتقانًا ، حتى فضلهم بعض الرواة على سابقيهم من الجاهليين ، ولذلك لم يرَ العلماء بدًّا من الاحتجاج بشعرهم ، بل بشعر المخضرمين ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية كابن هَرْمة[1] و بشار

ومن أشهر شعراء هذا العصر كعب بن زهير ، والخنساء ، والحُطَيْئة ، وحسّان ابن ثابت ، والنابغة الجَعْدى ، وعُمَر بن أبى ربيعة ، والأخطل ، والفرزدق ، وجَرير ، والكُميت ، وجَميل ، وكُثَيِّر ، ونُصَيْب ، والراعى ، وذو الرُّمة

١ – كعب بن زهير

هو كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى أحد فحول المخضرمين ، ومادح النبى الأمين ، وصاحب « بانت سعاد »

وهو ابن زهير صاحب المعلقة ، قال الشعرَ فى حداثته فكان والده ينهاه مخافة أن يقول مالاَ خير فيه فيُرْوَى عنه فلم ينتهِ ، فآذاه فلم يرتدع ، فامتحنه امتحانًا شديداً فكان يقول على البديهة ما يحب زهير ، فأجازه له فمضى ونبغ فيه حتى كان من فحول عصره

ولما ظهر الاسلام ذهب أخوه بُجَيْر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم، فغضب كعب لاسلامه، ونهاه عن الاسلام وهجاه وهجا رسول الله وأصحابه، فتوعده النبى صلى الله عليه وسلم وأهدر دمه فحذَّره أخوه العاقبة الاَّ أن يجىء الى النبى مسلمًا

(١) هو أبو أسحق ابراهيم آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم وكان مولعاً بالشراب منقطعاً للطالبيين ، توفى فى خلافة الرشيد حوالى سنة ١٥٠

تائبًا . فهام كعب يترامى على القبائل أن تُجيرهُ فلم يُجرهُ أحد، وأرجفَ الناسُ أنه مقتول لا محالة . فلما ضاقت الأرض فى وجهه جاء أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة وتوسّل به الى الرسول فأقبل به عليه فعاذ به وآمن، وأنشده قصيدته المشهورة يمدحه بها وهى من جيّد شعره ، ومطلعها :

بانَتْ(١) سُعادُ فقلبى اليوم متبولُ(٢) · متيّمٌ(٣) إثرَها لم يُفدَ مكبولُ(٤)

فخلع عليه النبى بردته فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألفًا ، ومات سنة ٢٤ هـ

***

وصف شعره

شعره – كان كعب من الشعراء المُجيدين المشهورين بالسبق وعُلوّ الكعب فى الشعر ، وكان خلَفُ الأحمر أحدُ علماء الشعر يقول لولا قصائدُ لزهير ما فضَّلته على ابنه كعب ، وكفاه فضلاً أن الحطيئة مع ذائع شهرته رجاه أن ينوّه به فى شعره فقال :

فمن للقوافى شانَها من يحُوكُها(٥) · اذا ما مضى كعب وفوّزَ جَرْوَلُ(٦)

طائفة من شعر

ومن شعره قوله فى قصيدته بانت سعاد :

وقال كلُّ خليـل كنتُ آمُلُهُ · لا أُلهِيَنَّكَ انى عنك مشغول
فقلت خلُّوا سبيلى « لا أبا لكم » · فكل ما قَدَّرَ الرحمنُ مفعولُ
كل ابن أنثى وان طالت سلامتُهُ · يومًا على آلةٍ حَدْباء(٧) محمول
أُنْبِئْتُ ان رسول الله أوعدنى · والعفوُ عنـد رسول الله مأمول
مهلاً هداكَ الذى أعطاكَ نافلة(٨) الـ · قرآن فيهـا مواعيظٌ وتفصيل
لاَ تأخُذَنّى بأقوال الوُشاة ولم · أُذنِب وقد كثُرت فىَّ الأقاويل

(١) فارقت (٢) تيله الحب اسقمه وأضناه (٣) مُعبد ومذلل (٤) مقيد
(٥) شان ضد زان ، وحاك الثوب نسجه والقصيدة نظمها (٦) فوّز مات وجرول اسم الحطيئة الشاعر (٧) يريد النعش ، وقيل الآلة الحالة ، والحدباء الصعبة الشديدة
(٨) كل عطية تبرع بها معطيها

ومن قوله :

لو كنتُ أعجَبُ من شىء لأعجبنى · سعىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدَر
يسعى الفتى لأمور ليس يُدْركها · والنفسُ واحـدة والهمُّ منتشر
فالمرء ما عاش ممـدودٌ له أملٌ · لا ينتهى العمر(١) حتى ينتهى الأثر(٢)

ومن قوله أيضًا :

ان كنتَ لاَ ترهَب ذَمّى لما · تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخشَ سكوتى اذ أنا منصِت · فيك لِمَسْمُوع خنا(٣) القائل
فالسامع الذمّ شريكٌ له · ومطعِمُ المأكول كالآكل
مقالةُ السُّوء الى أهلهـا · أسرعُ من منحدِر سائل
ومن دعا الناس الى ذمّه · ذَمُّوه بالحق وبالبـاطل

الخنساء

هى السيدة تُماضِرُ الخنساء بنت عمرو بن الشَّرِيد السُلَمِيَّة ، أرق شواعر العرب وأحزن من بكى وندب .

كان أبوها عمرو وأخواها : معاوية وصخر سادات بنى سُلَيم من مضر ، وكانت هى من أجمل نساء زمانها ، فخطبها دُرَيد بن الصِّمة فارسُ جُشَم ، فرغبت عنه ، وآثرت التزوجَ فى قومها فتزوّجت منهم

وكانت تقول المُقَطَّعات من الشعر ، فلما قُتِل شقيقُها معاويةُ ثم أخوها لأبيها صخر ، جزعت عليهما جَزَعًا شديدًا ، وبكتهما بكاءً مرًّا ، وكان أشدُّ وجدها على صخر : لأنه شاطرها هى وزوجها أمواله مرارًا ، فهاج حزنُها الشعرَ فى نفسها ، فقالت المراثى المطوَّلات ، وفاقت النساء والرجال فيها ، وأطالت عليهما البكاء والعويلَ حتى تقرَّحت مآقيها ، وحتى ضرب بها المثل فى الحزن والبكاء وكثرة الرثاء ، وجاء

(١) الحياة (٢) الأثر الأجل وسمى به لأنه يأثر العمر ويتبعه (٣) فحش

الاسلام فوفدت مع قومها على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلمت ، وكان يُعْجِبُه شِعرُها ويَسْتَنْشِدُها ، ويقول هيهِ يا خُناسُ ، ويُومِئُ بيده

وما فتئتْ تبكى صخراً قبل الاسلام وبعده حتى عَمِيت ، وبَقِيَتْ الى أن شَهِدَت حربَ القادسية[1] مع أولادها الأربعة ، فأوصتهم وصيتها المشهورة ، وحضتهم على الصبر عند الزحف فقُتِلوا جميعًا ، فقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ! ولم تحزن عليهم حزنها على اخويها . وتوفيت سنة ٢٤ هـ

* * *

شعرها – أغلب علماء الشعر على أنه لم تكن امرأةٌ قبلَ الخنساء ولا بعدها أشعرَ منها ، ومن فضَّل ليلى الاخيلية عليها لم ينكر أنها أرثى النساء ، وكان بشارٌ يقول لم تقل امرأة شعراً الاظهر الضعف فيه ، فقيل له وكذلك الخنساء ، فقال تلك غلبت الفحول

ولم يكن شأنُها عند شعراء الجاهلية أقلّ منه عند شعراء الإسلام ، فذلك النابغة الذبيانى يقول لها وقد أنشدته بسوق عكاظ قصيدتها التى مطلعها :

قَذًى بعينيك أم بالعين عُوَّارُ[2]   أم ذَرَّفَتْ[3] اذ خلت من أهلها الدار

لو لا أن ابا بصير (يعنى الأعشى) أنشدنى قبلكِ لقلتُ انكِ أشعر من بالسوق .

وصف شعرها

ولشعر الخنساء رَنين فى السمع ، وهِزّة فى القلب ، ووَقْع فى النفس : لأنه صادر عن فؤاد محزون ، وما خرج من القلب حل فى القلب . وكان فوق ذلك ليّنَ اللفظ ، سهلَ الأُسلوب ، حسنَ الديباجة

وسئل جرير مَنْ أشعر الناس قال أنا لولا الخنساء ، قيل فبِمَ فضلتك قال بقولها

إنّ الزمان (وما يفنى له عَجَبٌ)   أبقى لنا ذَنَبًا واستُؤْصِل الراسُ
إن الجَديدين[3] فى طول اختلافهما   لا يَفْسُدان ولكن يَفْسُد الناس

نبذة من شعرها

ومن جيد شعرها ترثى أخاها صخراً :

أعَيْنَيَّ جُودَا ولا تَجْمُدا   ألاَ تبكيان لصخر النَّـدَى

(١) واقعة عظيمة كانت بين العرب والفرس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة ، انتصر فيها المسلمون تحت قيادة سعد بن أبى وقاص انتصاراً باهراً
(٢) مرض (٣) قطرت (٤) الليل والنهار

ألاَ تَبكيان الجرىءَ الجميـل   ألاَ تبكيان الفتى السيدا
رفيعَ[1] العماد طويلَ النِّجَا[2]   د ساد عشيرتَه أمردا
اذا القوم مدّوا بأيديهمُ   الى المجد مدّ اليـه يدا
فنال الذى فوق أيديهمُ   من المجد ثم انتمى[3] مُصْعِدا[4]
يُحَمِّله القومُ ما عالهم[5]   وان كان أصغرَهم مولدا
وان ذُكِرِ المجـد ألفيتَه   تأزَّرَ بالمجـد ثم ارتَدَى

ومن قصيدتها التى تقدم مطلعها :

وإنَّ صخرا لَـكافينا وسيدُنا   وانَّ صخرا اذا نَشْتُو لنحّار
أغَرُّ[6] أبلجُ[7] تأتم الهداة به   كأنه عَلَم[8] فى رأسه نار
حمَّالُ ألْوِية ، هبّاطُ أودية   شَهّادُ أندية ، للجيش جرّار

ومن قولها ترثيه أيضاً :

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عينى   فقد أضحكتنى زمنًا طويلا
دفعتُ بك الخطوب وأنت حيٌّ   فمن ذا يَدفع الخَطْبَ[9] الجليلا
اذا قَبُح البكاء على قتيـل   رأيتُ بكاءك الحَسَنَ الجميلا

ومن بديع قولها :

يذكّرنى طلوعُ الشمس صخرا   وأذكره لكل غروب شمس[10]
فلولا كثرةُ الباكين حولى   على اخوانهم لقتلت نفسى
ولكن لاَ أزال أرى عَجُولا[11]   ونائحـةً تنوح ليوم نحس
همـا كلتاهما تبكى أخاها   عشيةَ رُزْئه أو غِبَّ أمس

(١) منزله معلم لزائريه (٢) حمائل السيف تريد طول قامته (٣) أبعد
(٤) عالياً ، أى فاقهم وأربى عليهم (٥) أعوزهم وشق عليهم
(٦) مشهور (٧) واضح (٨) جبل (٩) الأمر الشديد ينزل
(١٠) يعنى أنها تذكره أول النهار للغارة وآخره للاضياف (١١) العجول المرأة الثكلى

وما يَبْكين مثل أخي ولكن	أُسَلّي النفس عنه بالتأسي (١)
فقد ودَّعت يوم فراق صخر	أبي حسانَ (٢) لذَّاتي وأنسي
فيا لهفي عليــه ولَهْفَ أمي	أيصْبح في الضريح وفيه يُمسي

٣ – الحطيئة

هو أبو مُلَيكة جَرْوَلُ الحطيئة العبسيُّ الشاعر المشهور، أحد كبار الهجائين والمدّاحين المجيدين، وكانت أُمه في بيت رجل من عبس فجاءت منه بالحطيئة، ولكن نسبه لم يثبت صريحاً منه، ولذلك نشأ معلول النسب، وضيع الشرف، حاقداً على أُمه وأبيه متبرماً بالناس (٣) فلم يشف غلته من الجميع الا بتعلمه الشعر وهجائهم جميعاً فهجا أُمه وأباه وذوى قرابته وقومه، بل هجا نفسه؛ ونشأ كما قال الأصمعى جَشِعاً، سؤولاً، مُلحِفاً، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رثَّ الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين. وعاش الحطيئة مدّة فى الجاهلية وجاء الاسلام فأسلم، ولم يكن له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم عاش متنقلاً فى القبائل يمدح هذه تارة ويذم تلك أخرى، وينتسب الى عبس طوراً وطوراً الى ذُهْل، ويهجو اليوم من يمدحه بالأمس، وكل قبيلة تخطب وُدَّه وتتقى شر لسانه

وقد هجا الزبرقانَ بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب على الصدقات، وكان قد أنزل الحطيئة بجواره وأحسن اليه فاستماله بَغِيض أحد بنى أنف الناقة وأنزله عنده، فمدحه وقومه بالشعر الكثير، ورفع عنهم عارَ اسمهم ببيته المشهور وهو

قوم همُ الأنف والأذناب غيرهمُ	ومن يسوّى بأنف الناقة الذنبا

وحمله بغيض على ذم الزبرقان فذمه، فاستعدى عليه الزبرقان أمير المؤمنين عمر ابن الخطّاب فحبس الحطيئة، فما زال يستشفع اليه بالناس وقول الشعر حتى أطلقه

(١) الاقتداء (٢) كنية صخر
(٣) أى لتحديدهم الشرف بحدود وضعوها

وهدّده بقطع لسانه إن هجا أحداً، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ولكنه نكث وأوغل فى الهجاء بعد موت عمر، وبقى كذلك حتى مات أوائل خلافة معاوية

* * *

شعره – لولا ما وصم به الحطيئة من خسة النفس ودناءة الخلق وجهالة النسب ورقة الدين والغدر والبخل الشديد والاساءة الى من أحسن اليــه وسؤاله الرِّعاع والسُّوقة طمعاً فى جمع المال من أىّ سبيل، لكان باجادته فى كل ضرب من ضروب الشعر شاعرَ المخضرمين على الاطلاق، الاَّ أنه لم يقف ببراعته وفصاحته موقفاً لله ولا للشرف، ولا للفتوّة والمروءة – ومن الغريب أنه تخرّج على زُهَير فى الفصاحة والإجادة فى المدح وتعلّم الشعر والمبالغة فى تجويده وإحكامه بملازمته إياه وروايته عنه، ولم يقتبس عنه حكمته وعفته وحسن خلقه، وقلما يُوجَد فى كلام الحطيئة مَظِنة ضعف أو مَغْمَزٌ لغامز: من ركاكة لفظ، أو غَضاضة معنى، أو اضطراب قافية وصف شعره

ومن مدحه الذى لا يُلْحق له فيه غبار قوله: طائفة من شعره

يسوسُون أحلاماً (١) بعيداً أناتُها (٢)	وإن غَضِبوا جاء الحفيظة (٣) والجَدُّ
أقلُّوا عليهم (لا أبا لأبيكمُ)	من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا
أولئك قوم ان بنَوْا أحسنوا البِنا	وان عاهدوا أوفَوْا وان عقدوا شدُّوا (٤)
وان كانت النعماء فيهم جزَوْا بها	وان أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا (٥)
مَطاعينُ فى الهيجا مكاشيفُ للدُّجى	بنى لهمُ آباؤهم وبنى الجَد
ويَعْذُلنى أبناء سعــد عليهمُ	وما قلت الاَّ بالذى علمت سعد

ومن أبياته التى استعطف بها أمير المؤمنين عمر، وهو فى سجنه قوله:

ماذا تقول لأفراخ بذى مَرَخ (٦)	زُغْبٍ (٧) الحواصل لا ماء ولا شجرُ
ألقيت كاسبهم فى قعر مُظْلِمـة	فاغفر عليك سلام الله يا عمرُ
أنت الأمين الذى من بعد صاحبه	ألقى اليكَ مقاليــدَ النُّهى البشرُ
لم يُؤْثروك بها إذ قدَّموك لهـا	لكنْ لأنفسهم كانت بك الخِيَرُ

(١) عقولا (٢) حلما أى بعيدة الغضب (٣) الغضب (٤) وثقوا
(٥) اتعبوا من اعطوهم بالمن والاذى (٦) واد بالحجاز (٧) الزغب اول ما يبدو من الشعر والريش

ومن قوله يمدح بَغِيض بن لأى :

تَزُورُ⁽¹⁾ امرأً يُؤتِي على الحمد ماله   ومن يؤتِ أثمانَ المحـامد يُحمَدِ
يَرى البخلَ لاَ يُبقِي على المرء ماله   ويَعلم أن البخلَ غيرُ مُخَلَّدِ
كَسُوب ومِتلاف اذا ما سألته   تهلَّلَ فاهتزَّ اهتزازَ المُهَنَّدِ
مَتَى تأتِه تَعْشُو[2] الى ضوء ناره   تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عندها خَيرُ مُوقِدِ

ومن أبياته التي يعرّض فيها بهجو الزبرقان قوله :

دعِ المكارم لا تَرْحَلْ لِبُغيَتِها   واقعُدْ فانك أنت الطاعم الكاسى

ومنهـا :

من يفعلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَه[3]   لاَ يَذهب العُرْف بين الله والناس

ويستغرب منه قوله :

وتقوى الله خيرُ الزاد ذُخْرا   وعند الله للأتقى مزيدُ
وما لا بدَّ أن يأتى قريب   ولكنَّ الذى يمضى بعيد

٤ — حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الانصارى شاعرُ رسول الله وأشعر أهل المَدَر ، وفحل شعراء المخضرمين . وهو من بنى النجار من أهل المدينة

نشأ فى الجاهلية ونَبُهَ شأنه فيها إذ أدرك من فحولها فلم يُقَصِّر عن اللَّحاق بهم . بل بذَّ[4] الكثير منهم . وكان يمدح الملوك والمَنَاذرة والغساسنة فى الجاهلية، ويرحل اليهم فينال منهم جزيلَ العطايا ، وا كثر من كان يمدحهم ويكثرُ انتجاعَهم آلُ جَفْنَةَ من ملوك غسَّان لما بين أهل يثرب[5] والغساسنة من صلة النسب وقُرْب الجوار ، فكان له من جوائزهم مدد لا ينقطع ، حتى ناله منهم شيء بعد أن أسلم وتنصَّروا ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأسلم الانصار ، أسلم معهم ودافع

(١) الضمير يعود على الناقة (٢) تقصد (٣) جمع جازية او جزا
(٤) فاق وغلب (٥) المدينة المنورة

عنهُ بلسانه كما دافع عنهُ قومُه الأنصارُ بسيوفهم، فكان لقوله من النِّكاية فى قريش وأعداء النبى أحسنُ بلاء، وأحمد أثر

وعاش حسان بعد رسول الله مُحَبَّباً الى خلفائه مرضياً عنـه ، يفرض له العطاء الكافى من بيت المال . وعُمِّر قريباً من ١٢٠ سنة . وبقى أكثر حياته ممتعاً بحواسه وعقله ، ووهَنَ فى أواخر عمره وكُفَّ بصره ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ

***

شعره — كان حسان شاعر أهل المدَر فى الجاهلية، وشاعر اليمانية فى الاسلام، ولم يكن فى أصحاب رسول الله ولا فى أعدائه عند دعوته الى الله أشعرُ منه، ولذلك رمى مشركى قريش من لسانه بالداهية التى لم يكن لهم قِبَلٌ بها ، فأوجعهم وأخرسهم من غير فُحش ولا هُجْر ، ولما أذِن له النبى فى هجائهم ،قال له كيف تهجوهم وأنا منهم قال: أسلُّك منهم كما تُسَل الشعرة من العجين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصب له منبراً بالمسجد ويسمعُ هجاءه فى أعدائه ويقول (أجبْ عنى اللهمَّ أيده برُوح القدس) وكان فى شعر حسان زمنَ الجاهلية شدَّةٌ وغرابةُ لفظ ووُعورة مَسْلَك ، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه وكثُر ارتجاله الشعرَ لكثرة الحوادث التى تستدعى ذلك، لاَنَ شعره وسُهل أُسلوبه ، ودَمُثَت معانيه ، حتى ظن بعض أئمة الشعر أن شعره فى الإسلام أضعفُ منه فى الجاهلية ، محتجًا بأن الشعر لا يقوى الاَّ فى باب الشر الذى يحظرُه الاسلام، وربما كان لتعليله هذا وكبِر سنّ حسان وارتجاله أثرٌ فى بعض شعره

صورة شعره

ويغلبُ على شعره بعد المدح والهجاء الفخرُ بنفسه وبقومه

نموذج من شعره

ومن شعره فى الجاهلية :

ولقد تُقَلِّدُنا العشيرةُ أمرَهـا   ونسود يومَ النائباتِ ونَعتلى
ويسودُ سيدُنا جَحاجحَ[1] سادةً   ويُصيبُ قائلُنا سَواءَ المَفْصِلِ[2]
ونُحاوِل الأمرَ المهمَّ خطابةً   فيهم ونَفصل كلَّ أمرٍ مُعْضِلِ
وتزور أبوابَ الملوك رِكابُنـا   ومتى نُحكَّم فى البرية نَعدِلِ

(١) سيد جحجاح مسارع فى المكارم (٢) سواء وسط ، والمفصل كمجلس كل ملتقى عظمين من الجسد ، أى يصيب شاكلة الصواب

ومن شعره فى الاسلام يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن الذوائبَ⁽¹⁾ من فِهرٍ⁽²⁾ وإخوتهم … قد بينوا سُنَنًا للناس تُتَّبعُ
يَرضَى بها كلُّ من كانت سريرته … تقوى الإلهِ وبالأمرِ الذى شرعوا
قومٌ اذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهمُ … أو حاولوا النفع فى أشياعهم[3] نفعوا
سجيةٌ تلك فيهمْ غيرُ مُحْدَثَةٍ … ان الخلائق[4] (فاعلم) شرُّها البِدَعُ[5]
لا يَرْقَعُ[6] الناسُ ما أوهَتْ[7] أكفُّهمُ … عنـدَ الدِّفاع ولا يُوهُون ما رَقعوا
ان كان فى الناس سبَّاقُون بعدهمُ … فكل سَبْقٍ لأدنى سَبْقهم تبعُ
أعِفَّـةٌ ذُكرتْ فى الوَحْى عِفّتُهمْ … لا يَطمَعون ولا يُزْرِى بهم طمعُ
لا يفخرون اذا نالوا[8] عدوَّهمُ … وان أُصيبوا فلا خُورٌ[9] ولا جَزَعُ

ومن أبياته السائرة قوله :

وإنّ امرأً يُمسِى ويُصبِح سالماً … من الناس الّا ما جنى لَسعيد[10]

وقوله :

رُبَّ حلمٍ أضاعه عـدم المـا … ل وجهلٍ غطَّى عليـه النعيم

وقوله :

فلو كان مجـد يُخلد الدهرَ واحداً … من الناس أبقى مجده الدهرَ مُطعِماً[11]

٥ — النابغة الجعدى

هو أبو ليلى حسانُ بن قيس بن عبدالله الجعدىّ العامرىّ، أحدُ القدماء المعمَّرين والشعراء المُخَضْرَمين، ووُصَّاف الخيل المشهورين

(١) السادة (٢) قبيلة من قريش
(٣) اتباعهم وأنصارهم (٤) جمع خليقة وهى الطبيعة (٥) المستحدث من الاخلاق لا ما هو متأصل فى النفوس (٦) يصلح (٧) أفسدت وأضعفت
(٨) غلبوا (٩) ضعف ، أى عندهم
(١٠) السعيد من الناس من سلم من السنتهم وتقولاتهم ولم يذكروه الا بما فيه
(١١) مطعم بن عدى أحد من قام فى نقض الصحيفة، مات ولم يسلم وكان قد أجار النبى حين قدم من الطائف الى مكة بعد أن دعا ثقيفاً الى الاسلام

منشؤه وحياته :

هو أحد بنى جَعْدة بن كعب بن ربيعة ، وهو بطن من بنى عامر بن صعصعة من مضر ، عاش زمناً فى الجاهلية ، وحضر كثيراً من أيامها ووقائعها ، وقال الشعر فى الجاهلية ثم أجْبَل[1] دهراً، ثم نبغ فى الشعر عند ظهور الاسلام وبعده: ولذلك سُمّى النابغة ، وهو ممن فكّر فى الجاهلية ، وأنكر الخمر وما تفعل بالعقل ، وهجر الأزلام والأوثان ، وذكر دين ابراهيم ، وصام واستغفر ، ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشده قصيدته المشهورة التى يمدحه بها ويقول فى أوّلها :

خليلَىّ عُوجا ساعـةً وتَهَجَّرا … ونوحَا على ما أحدث الدهر أوْذَرا

فأُعْجِب بها رسول الله ودعا له ، وعاش طويلاً فى الاسلام ، فأقام زمناً مهاجراً حتى أيام عثمان رضى الله عنه فأحس بضعف فى نفسه ، فاستأذن عثمانَ فى الرجوع الى البادية فأذن لهُ ؛ ثم لما كانت خلافة علىّ (رضى الله عنه !) شهد معه وقائع صِفّين ، وظاهرَه بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبنى أُمية

وعند ما آلت الخلافة الى معاوية كتب الى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة على معاوية وعنده مروان فأنشدهما أبياتاً منها :

فإنْ تأخـذوا أهلى ومالى بِظِنَّةٍ … فانى لَحَرَّاب الرجال مُحَرَّبُ
صبور على ما يكره المرءُ كلّه … سوى الظلم إنى ان ظُلمتُ سأغضب

فالتفت معاوية الى مروان ، فقال ما ترى ؟ — قال أرى ألّا تردّ عليه شيئاً — قال ما أهونَ والله عليك أن يَنْجَحِر هذا فى غار ثم يُقَطِّع عِرضى علىَّ ثمَّ تأخذَه العرب فتَرْويه ، أما والله إن كنت لَممَّن يرويه ، أُرددْ عليه كل شىء أخذته ؛ ثمَّ كان فى شيعة عبدالله بن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبدالملك ، وجاء ابنَ الزبير ومدحه فأجزل له العطاء على بخل فيه ، وبعد سكون الفتن خرج مهاجراً الى الأمصار المفتتحة فمات بأصبهان سنة ٥٨ هـ ، بعد أن عمّر على ما قيل مائة وثمانين سنة

* * *

صفة شعره

شعره — كان النابغة الجعدى شاعراً مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام ، وهو أوّل من

(١) اجبل الشاعر صعب عليه القول

سبق إلى الكناية فى الشعر عن اسم من يعنى الى غيرها ، وتبعه الناس بعد ، قال

أكْنى بغير اسمها وقد علِم الله   خفيَّات كلّ مُكْتَتَم

وكان ممن يصفون الخيل فلا يُلحق لهم فى ذلك غُبار ، حتى ضُرب به المثل ، قال الأصمعى : ثلاثة يصفون الخيل فلا يقاربهم أحد : طُفَيل الغنَوِىّ ، وأبو دُواد الإيادى ، والنابغة الجعدى . وما كان ينتحى طريقة زهير والحطيئة وأشباههما ممن يبالغون فى تهذيب الألفاظ وتنقيح المعانى ، بل كان يلقى القول على عواهنه وكما تهديه اليه بديهته ، فتارة يأتى جيداً متيناً ، وتارة يجيء ضعيفاً رديئاً ، وأحياناً يسلك بين ذلك سبيلاً ، حتى قال عنه الأصمعى : عنده مُطْرَف[1] بآلاف ، وخِمار[2] بِواف[3]

ومع ذلك كله كان مُغَلَّباً ، ما هاجى أحداً إلَّا غلبه : هاجى أوس بن مَغْرَاء ، ولم يكن أوس مثله ولا قريباً منه فى الشعر فغلبه ، وهاجى كعبَ بن جُعَيل فغلبه أيضاً ، وهاجى ليلى الأخيلية فغلبته ، وله فى الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير ؛ ومن أشرفه قصيدته التى مدح بها الرسول الكريم وهى :

شيء من شعره

خليلىّ عُوجا[4] ساعةً وتَهَجَّرا[5]   ونوحا على ما أحدث الدهرُ أو ذرا

ولا تجزعا إن الحياة ذميمة   فخِفَّا لِرَوْعات الحوادث أو قِرا[6]

وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه   فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعها   قليل إذا ما الشيء ولّى وأدبرا

تهيج البكاء والندامة ثم لا   تغير شيئاً غير ما كان قُدِّرا

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً كالمَجَرَّة[7] نيرا

أُقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها   وكنت من النار المخوفة أحذرا

ومنها فى الفخر :

وإنا لقوم ما تعوَّدَ خيلنا   إذا ما التقينا أن تحيد وتَنفِرا

(١) رداء من خز مربع ذو اعلام (٢) ثوب تغطى به المرأة رأسها
(٣) الوافى درهم واربعة دوانق
(٤) قفا (٥) سيرا فى الهاجرة (شدة الشمس) (٦) وقر كوعد رزن او جلس بوقار
(٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وانما ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء

وننكر يوم الروع[1] ألوان خيلنا   من الطعن حتى نَحْسَب الجَون أشقرا[2]

بلغنا السماء مجدُنا وجدودُنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولا خير فى حلم اذا لم تكن له   بوادرُ[3] تحمى صفوَه أن يكدَّرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له   حليم اذا ما أورد الأمرَ أصدرا

ولما سمع رسول الله (بلغنا السماء البيت) قال لهُ فأين المظهر يا أبا ليلى قال الجنة قال لهُ ان شاء الله ، ولما أتمَّ قصيدته ، قال لهُ الرسول أجدت لا يفضض الله فاك فأتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفضت من فيه سنٌّ

ومن قوله يرثى ابنه محارباً وأخاه وَحْوحاً

بدَتْ فعلَ ذى ودّ فلما تبعتها   تولت وأبقتْ حاجتى فى فؤاديا

وحلَّتْ سواد القلب لا أنا باغيا   سواها ولا عن حبها متقاليا

أُتيحت لهُ والهم يختضر[4] الفتى   ومن حاجة الإنسان ماليس لاقيا

ومنها :

ألم تعلمى أنى رزئت محاربا   فما لكِ منه اليوم شىءٌ ولا ليا

ومن قبله ما قد رُزئت بوحوح   وكان ابن أمى والخليل المصافيا

فتى كان فيه ما يسرُّ صديقَه   على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا

فتى كملت خيراته غير أنه   جَواد فما يُبقى من المال باقيا

٦ — عمر بن أبى ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه . وكانت أُمه نصرانية ، وكان أبوه تاجراً موسراً وعاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من

(١) الفزع والمراد الحرب (٢) الجون من الخيل الأدهم ، والاشقر منها الاحمر
(٣) البادرة ما يبدر من حدتك فى الغضب من قول او فعل والجمع بوادر
(٤) اختضر النبات اخذ طرياً غضاً ، والشاب مات فتيا

بعده ، فشب فى نعيم وترف وقال الشعر صغيراً، وسلك فيه طريق الغزل، ووَصَف أحوال النساء وتَزَاوُرَهُن ومُدَاعبَة بعضهن لبعض ، وما يعتدْن قوله من الكلام ، مما يتوقَّر الشعراء الفحول عن الخوض فيه، ولذلك لم يحفلوا بشعره وعدّوه من هذَيان خُلَعاء المدينة، فما زال يعالج الشعر والشعر ينقاد له حتى ملك ناصيته وقبض على زمامه وبزّ الشعراء، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة ، التى أوّلها :

أمِنْ آلِ نُعْم أنت غادٍ فَمُبْكِر غَدَاةَ غـدٍ أم رائحٌ فَمُهَجِّر

والتى قال فيها جرير حين سمعها : ما زال يهذى هذا القرشى حتى قال الشعر

ثم استطار شره فى التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها، وتعرض للمحصنات المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن ، فوقعن منـه فى بلاء عظيم ، وصرن يخفْن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة و يترقب خروجهن للطواف والسعى و يصفهن وهن محرمات . وحَلُمَت عليه رجالات قريش لمكانة نسبه منهم ولترقب توبته وإقلاعه فلما تمادى فى أمره وشبب ببنات السادات والخلفاء، غضب عمر بن عبد العزيز ونفاه الى دَهْلَك: وهى جزيرة أمام مدينة مصوّع، ثم رأى أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا فى البحر فاحترقت السفينة التى كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣ هـ

**

صورة شعره

شعره — كانت العرب تُقر لقريش بالتقدّم عليها فى كل شىء الاَّ فى الشعر حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضاً، وكان أكثرُ الشعراء الاسلاميين يُحْجِمُون عن التشبيب بالنساء امتثالاً لأمر الدين ومحافظةً على الآداب العربية الاسلامية ، وكان أكثرُ تشبيبهم فى بكاء الاطلال ومنازل الأحباب ، فلما ظهر عمر سلك فى الغزل طريقاً لم يسلكوه: فوصف أحوال النساء فى منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ومداعبة بعضهن لبعض وتلاومهن ومايعتدْن قوله من الكلام والعبارات فى أُسلوب يغلب عليه القَصَص، وحكاية ما شاهده فى شعر رقيق، ولفظ رشيق، ومعنى أنيق ، وبهر الشعراء بهذه الطريقة حتى قال فيه جرير وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذى

التفنى بشعره

ارادته الشعراء فأخطأته وتعلقت بوصف الديار، وكذلك قال الفرزدق. ولسهولة شعر

عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدّة تأثيره فى قلوب الخلعاء، وأهل اللهو أولع به المغنّون والمغنيات من القِيان والموالى انشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيه بعض متورعى الأنصار ما عُصِىَ الله بشىء كما عُصِى بشعر ابن أبى ربيعة. ومن قوله البيتان المشهوران

نبذة من شعره

ليت هنداً أنجزتنا ما تَعِد وشفت أنفسنا ممـا نجد

واستبدّت مرة واحـدة انمـا العاجز من لا يستبد

ومن قوله وقد كتب به الى الثريا

كتبتُ اليكِ من بلدى كتابَ مولَّهٍ كَمِد

كئيب واكِف العينيـن بالحسَرات منفرد

يؤرّقه[1] لهيب الشو ق بين السَّحر والكبد

فيُمسك قلبه بيـدٍ ويَمسح عينه بيـد

٧ — الاخطل

هو أبو مالك غياثُ الأخطلُ بن غَوْث التَّغْلَبِى النَّصرانى، شاعرُ الأمويين، وأمدحُ ثلاثةِ شعرائهم المقدَّمين ، والمتفرِّد بوصف الخمر دون الاسلاميين

نشأ بين قومه بنى تغلب النازلين بسِق الفُرات من أرض الجزيرة ، وقال الشعر وهو صبىّ، وما لَبِثَ أن زاحَمَ شاعرَ تغلب وقتئذ كعبَ بن جُعَيْل، وهاجاه وظهر عليه وأخْمَلَه . ولما طلب يزيدُ بن معاويةَ قبل أن يَلِى الخلافةَ من كعب هجاءَ الأنصار

سبب ظهوره

لِتعَرُّض عبدِ الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى لأخته فى شعره ، أبَى عليه ذلك كعب ، وقال أرادّى أنت فى الشرك؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآوَوْه؟ ولكنى أدُلُّك على غلام منا نَصْرانىّ كأنَّ لسانَه لسانُ ثَوْر، لا يُبالى أن يَهْجُوَهم ، فدله على الأخطل ، وكأنه كان يُريد به الشر لتوقُّعِه أن يفتك به الأنصار ، فكان ذلك سببَ جَدِّه ، وظهورِ شأنه ، فانَّ يزيد بعث اليه وأمره بهجائهم ، فهجاهم بقصيدة منها : —

(١) أرّقه أسهره والسحر الرئة

ذهبت قريش بالسَّماحة والنَّدى   واللُّؤمُ تحت عمائم الأنصارِ

فدعُوا المكارمَ لستمُ من أهلِها   وخذوا مَساحِيكم[1] بنى النَّجّارِ

وبلغ الشعرُ كبارَ الأنصار فغضبوا وشكَوْه الى معاوية فوعدهم بقطع لسانه، فاستجار بيزيد، فما زال بأبيه حتى عفا عنه. ولما وَلِيَ يزيدُ الخلافةَ قرَّبه اليه، وتابعه فى ذلك خلفاء بنى أمية، وبخاصةٍ عبد الملك اذ كان يستعين به على مضر وشعرائها لانحيازهم الى أعدائه فى السِّياسة من آل الزبير وغيرهم، فمدحه بمدائح جليلة قلَّما قال نظيرَها فيه شاعرٌ من شعراء زمانه، فقرَّبه اليه وأدناه وسمح له بالدخول عليه بلا إذن وأجزل له العطايا، وسمَّاه شاعرَ الخليفة

سبب دخوله فى المهاجاة بين جرير والفرزدق

ولما حدثتِ المُهاجاة بين جرير والفرزدق وحُكِّم فيهما أيُّهما أشعرُ، عرَّض بتفضيل الفرزدق، فهجاه جرير، فردَّ عليه الأخطل وكانت الشيخوخة قد بلغت منه فلم يلحق جريراً. وكان الأخطل يقيم أزماناً بدمشق، وأحياناً ببلاده من أرض الجزيرة ومات سنة ٩٥ هـ وقد نيَّف على السبعين

*
* *

وصف شعره

شعره — كان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فُحول الاسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر، بعيداً عن التكلف والتعمق فيه، وامتاز باجادته المديح والابداع فى معانيه والتنويع فى ضروبه، والتَّريُّث فيه، حتى ربما لبث فى بعض مِدْحاته سنة كاملة، وربما نظمها تسعين ثم يكرُّ عليها بالتمحيص والاختيار حتى يحذف منها ستين ويُبقى الثلاثين. كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها فى حين لم يجرُؤ على ذلك شاعر مسلم؛ ولم يقصر فى الهجاء عن صاحبيه كثيراً. وفضلهما بقلة التعرض للفحش والبَذاءة، ولكنه كان دونهما فى بقية فنون الشعر، فكان بكيئاً[2] فى الرثاء: مات يزيد وهو سبب نعمته، فلم يستطع رثاءه بأكثر من أربعة أبيات

وليس للأخطل سوى سبع مُطوَّلاتٍ فاقهما بها. ولذلك لم ير قدماء أهل العلم

---

(١) سحا الطين قشره والمسحاة اداة السحى

(٢) ناقة بكىء وبكيئة قليلة اللبن والمراد قليل الرثاء

والرواةِ تسويتَه بهما لتقصيره عنهما فى التصرف فى سائر أبواب الشعر

نبذة من شعره

ومن جيد مدحه فى بنى أمية:

حُشْدٌ[1] على الحقِ عُيَّافُ الخَنا أُنُفٌ[2]   اذا ألمت بهم مكروهة صبروا

شُمْسٌ[3] العداوة حتى يُستقاد[4] لهم   وأعظم النـاس أحلاماً اذا قدروا

وقال يمدح بنى أمية ويخص بشر بن مروان:

ان يحلُموا عنك فالأحلام[5] شيمتهم   والموتُ ساعةَ يحمَى منهمُ الغضبُ

كأنهم عنـد ذاكم ليس بينهمُ   وبين من حاربوا قُرْبَى ولا نَسبُ

كانوا مَوالِيَ حقٍ يطلبون به   فأدركوه وما ملُّوا ولا لَغَبوا[6]

ان يك للحق أسباب[7] يُمَدُّ بها   ففى أكفهم الأرسان[8] والسببُ

همُ سعَوْا بابن عفان الامام وهم   بعد الشِّماس مَرَوْها ثُمَّت احتلَبوا[9]

ومنها:

اذا أتيتَ أبا مروان تسألُه   وجدته حاضِراهُ الجُودُ والحَسَبُ

ترى اليه رِفاقَ[10] الناس سائلةً   من كل أَوْبٍ[11] على أبوابه عُصَبُ

يَحتَضرون سِجالاً[12] من فواضله   والخيرُ مُحتَضَرُ الأبوابِ مُنتَهَبُ[13]

والمُطْعِمُ الكُومَ[14] لا ينفكُّ يَعقِرُها   اذا تَلاقَى رِواقُ البيتِ واللَّهَبُ[15]

كأن جِيرانَها فى كل منزلةٍ   قتلَى مجردة الأوصال تُستَلَبُ[16]

---

(١) اذا دعوا اجابوا مسرعين (٢) جمع انوف مبالغة من انف بمعنى استنكف

(٣) جمع شموس وهو الرجل الصعب الخلق وشمس الفرس منع ظهره (٤) استقدت الامير من القاتل فاقادنى منه أى قتله (٥) جمع حلم وهو الاناة (٦) اللغب اشد الاعياء

(٧) حبال (٨) جمع رسن وهو الحبل وما كان من زمام على انف

(٩) الشماس الحران — مرى الناقة مسح على ضرعها لتدر اى هم سعوا للخلافة بسبب الأخذ بثار عثمان وبعد أن امتنعت عليهم انقادت لهم وذلت

(١٠) جمع رفقة (١١) فج (١٢) السجل الدلو العظيمة المملوءة والجمع سجال

(١٣) يتهافت الناس على أبواب الكرام ليصيبوا من كرمهم وعطاياهم

(١٤) جمع كوماء وهى الناقة الضخمة السنام (١٥) أى علت نيران القرى حتى اتصلت بالرواق وهو ما بين يدى البيت وذلك كناية عن كرمهم فى وقت الشتاء وقت اشتداد المحل والأزل

(١٦) الجيران جمع جوار والاوصال المفاصل والمعنى ان مفاصلها وعظامها خالية من اللحم كأنها قتلى قد سلب ما عليها

ومن أفضل شعره قوله :

والناس همُّهمُ الحياة ولا أرى … طولَ الحياة يزيد غير خَبال(١)

واذا افتقرت الى الذخائر(٢) لم تجد … ذخراً يكون كصالح الأعمال

ومن أمثاله السائرة قوله :

وان امرأ لا ينثني عن غَواية(٣) … اذا ما اشتهتها نفسه لجهول

٨ – الفرزدق

هو أبو فِراس همَّامُ بن غالب التميمى الدارمى أحَدُ ثلاثة الشعراء الأمويين، وأجزل المقدَّمين فى الفخر والمدح والهجاء

ولد سنة ١٩ هـ ونشأ بالبصرة بين فصحاء آبائه وقومه منذُ أوّل تمصيرها ، وهى يومئذٍ حاضرةُ العرب فلم تشُب لهجتَه عجمةٌ ولا لحن ، فأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونظمه ونبغ فيه ، وأتى به أبوه يوماً الى أمير المؤمنين عليّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فسأله عنه – فقال هذا ابنى يُوشِك أن يكون شاعراً مُجيداً – فقال أقرِئه القرآن فهو خيرٌ له ، فما زالت كلمته فى نفس الفرزدق حتى قيَّدَ نفسهُ بقيد وآلى أن لا يَفُكَّهُ حتى يحفظ القرآن ، فما فكَّه حتى حفظه بالرغم من كونه أُمِّيّاً لا يقرأ ولا يكتب ، ولنشأة الفرزدق بالمصر والبوادى القريبة منه كان قريب التَّعَرُّف بولاة البصرة والكوفة وعمالهم ، يمدَحهم تارةً ويهجُوهمْ أُخرى ، ويحبسه هذا حيناً ، ويفر من وجه ذلك طوراً ، وفى أثناء ذلك يرْحَل الى خلفاء بنى أُميَّةَ بالشام يمدحهم وينال جَوائزهم ، وأخص من كان يمدحه منهم عبدُ الملك بن مروان ثم أولادُهُ من بعده ، وامتحن بمُنافسة جرير له فى الشعر ومهاجاته

التهاجى بين جرير والفرزدق

والسبب فى تهاجيهما أن جريراً كان يهاجى شاعراً اسمه البَعيث لأنهُ ظاهر عليه شاعراً آخر يسمى غسَّان فنصر الفرزدق البَعيث على جرير لمنافسته له فى الصناعة تلك المنافسة التى أفضت بهما الى التَّهاجى والتَّساب طول عمرهما ، وسهل على الفرزدق

---

(١) النقصان والهلاك والعناء (٢) جمع ذخيرة وهو ما يدخر ويحفظ لوقت الحاجة
(٣) الغواية الضلالة والافساد

هجاء جرير الترفعُ عليه فى شرف حسبه وكرم مَحْتِده ، وسيادة آبائه فى الجاهلية والاسلام وضَعة آباء جرير وخُمولِ ذكرهم مما جعل الفرزدق يُغرِى بجرير أكثر من ثمانين شاعراً يهجونه

وكان الفرزدقُ فوق إقذاعه فى الهجو وفُحْشه فى السِّباب وقذف المحصنات يُرْمى بالفجور وقلة التمسك بشعائر الدين ، ثم تاب فى أواخر شيخوخته على يد الحسن البصرى ، ورجع عن قذف المحصنات ونهش الأعراض ونَسُكَ وحسنت خاتمته ؛ وكان فيه تشيُّعٌ يَستره أيام اختلافه الى بنى أمية ، ثم كاشف به آخرَ حياته حتى أمامَ الخليفة هشام عند مارأى الناس تفسح طريق الطواف بالكعبة مهابة واجلالاً لعلى بن الحسين فسأله عنه كالمتجاهل لأمره ، فشقَّ ذلك على الفرزدق وأنشد قصيدته الميمية الآتية يُعرِّفُ بعلى ويُنكِر على هشام تجاهله ، فحبَسه هشامٌ ثم أطلقه . وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ومات بالبصرة سنة ١١٠ هـ

تشيع الفرزدق

* *

صورة شعره

شعره – يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته ، وجَزالة لفظه ، وكثرة غريبه ، ومُداخلة بعض ألفاظه فى بعض : من حيثُ التقديمُ والتأخيرُ ، والفصل والوصل ، وكثرةُ تنوع التراكيب والأساليب ، والاشتمالُ على المعانى الدقيقة ؛ وكان يجرى فيه على أسلوب الجاهلية فى شعرهم ولذلك يُعْجَب به أهلُ اللغة والنحو ويُفْسَحُ لهم مجالُ القول فيه وقياسُ مسائله عليه ، فكان يقال لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة

ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب وأشدِّهم وَلوعاً بتعداد مآثر آبائه وأجداده وتحدّى منافسيه بمكارمهم حتى فى مدْحِهِ للخلفاء ، وحتى كان ذلك سبباً فى حرمان بعضهم له من العطاء واحالته على آبائه ، فكان بذلك شعره مشتملاً على كثير من أيام العرب ومفاخرها ومثالبها وفروع انسابها مما استُخْرج منه العلم الجم من أنساب العرب وأحوالها

نموذج من شعره

ومن ممتاز شعره قوله يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلسَ(١) عسَّال(٢)، وما كان صاحبا … دعوتُ لنارى مَوْهِنًا(٣) فأتانى

فلما أتى قلت: ادنُ، دونك، اننى … وَإياكَ فى زادى لَمُشتركان

فبتُّ أقُدُّ(٤) الزادَ بينى وبينه … على ضوء نار مرَّةً ودخان

وقلت له لما تَكشَّرَ ضاحكا … وقائمُ سيفى من يدى بمكان

تَعَشَّ فان عاهدتنى لا تخوننى … نكن مثل مَن (يا ذئب) يصطحبان

وانت امرؤ (ياذئب) والغدرُ كنتما … أُخَيَّيْن كانا أُرضِعا بلِبان

ولو غيرَنا نبَّهتَ تلتمسُ القِرى … رماك بسهم أو شَباة(٥) سنان

وكل رفيق كُلَّ رحل، وإن هما … تعاطى القنا قوماهما، أخوان

ومن أبياته السائرة:

فيا عجبًا حتى كليبٌ تَسُبُّنى … كأنَّ أباها نَهْشَل ومُجَاشع(٦)

وكنا اذا الجبار صَعَّرَ(٧) خدَّه … ضربناه حتى تَستقيم الأخادع(٨)

ومنها:

قَوارصُ(٩) تأتينى وتَحتقرونها … وقد يملأ القطرُ الإناء فيُفْعِم(١٠)

ومنها:

اذا ما وُزِنَّا بالجبال رأيتَنا … نميل بأطواد الجبال الأضاخم

ومنها:

أحلامنا تَزِن الجبالَ رزانةً … وتخالنا جِنًّا اذا ما نَجْهَل

ومنها:

ترى الناس ما سرنا يسيرون حولنا … وان نحن أومأنا الى الناس وَقَفوا

---

(١) أغبر اللون (٢) مضطرب فى مشيه (٣) نحو من نصف الليل
(٤) اقطع (٥) طرف
(٦) ابنا دارم التميمى (٧) اماله عن الناس اعراضاً وتكبراً
(٨) جمع اخدع وهو شعبة من الوريد (٩) القارصة الكلمة المؤلمة
(١٠) فعم الاناء ملأه كأفعمه

ومن جيد شعره قوله يمدح على بن الحسين:

هذا الذى تَعرفُ البطحاءُ(١) وطأته … والبيتُ يعرفُه والحِلُّ والحرمُ

هـذا ابن خيرِ عبادِ الله كلهم … هذا التقىُّ النقىُّ الطاهرُ العلَمُ

وليس قولُك مَن هـذا؟ بضائره … العُرْبُ تعرفُ من انكرت والعجمُ

اذا رأته قريشٌ قال قائلُها … الى مكارم هـذا ينتهى الكرَمُ

يُغْضى حياء ويُغضَى من مَهابته(٢) … فلا يُكلَّمُ الاَّ حينَ يَبْتَسِمُ

بكفِّه خَيْزُرانٌ ريحُها عَبِقٌ … من كفِّ أروعَ(٣) فى عِرْنينه شَمَمُ(٤)

يكادُ يُمْسِكه عِرفانَ راحتِه … ركنُ الحطيم(٥) اذا ما جاء يَستلِمُ

يَنْشَقُّ ثوبُ الدُّجى عن نور غُرَّته … كالشمس تَنْجاب عن إشراقها الظُّلَمُ

من معشر حبُّهم دينٌ وبغضهمُ … كُفْرٌ وقربهمُ مَنْجًى ومُعْتَصَمُ

إن عُدَّ أهلُ التُّقى كانوا أئمتَهم … أو قيلَ من خيرُ أهلِ الأرض؟ قيل هم

---

٩ — جرير

هو أبو حَزْرة جرير بن عَطِيَّةَ بن الخَطَفَى التَّميمى اليَرْبوعى، أحدُ فحول الشُّعَراء الاسلاميين، وبُلغاء المدَّاحين الهجائين، وأنسب ثلاثتهم المفلقين، وهو من بنى يربوع أحد أحياء تميم. وُلِد باليمامة سنة ٤٢ هـ من بيت اشتهر بالشعر؛ ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبَغ فيه، وكان يختلف الى البصرة فى طلب المِيرَة ومدح الكبراء، وينزل على من يسكن البصرة من قومه، فرأى الفرزدقَ وما كسبه الشعرُ من المنزلة عند الأمراء والوُلاة وهو تميمى مثلُه ودَّ لو يسبِقهُ الى ما ناله، وأغراه قومه به للتنويه بشأنهم وتفخيم أمرهم، إذ كان الشعر فى ذلك العصر هو وسيلةَ الاعلان عن الشرف وكريم الخصال، فوقعت بينهما المُهاجاة والمُلاحاة عشرَ سنين، كان أكثرُ اقامة

---

(١) مسيل واسع فيه دقاق الحصى
(٢) لاجل مهابته (٣) الاروع من يعجبك لحسنه وجهارة منظره أو لشجاعته كالرائع
(٤) العرنين الانف والشمم الارتفاع أى سيد شريف
(٥) الحطيم حجر الكعبة، أو جدارها، أو ما بين الركن وزمزم والمقام

جرير أثناءها فى البادية، وكان الفرزدقُ مقيماً بالبصرة مصر العرب ، يملأعليه الدنيا هجاء وسبًّا ، فما زال به بنو يربوع حتى أقدموه البصرة ، فكان يُقيم بها كثيراً ، واتصل بالحجاج ومدحه فأكرمه ورفع منزلته عنده ، فعظُم أمره وشرَّق شعرُه وغرّب ، حتى بلغ الخليفة عبدَ الملك ، فحسَد الحجاجَ عليه ، فأوفده الحجاج مع ابنه محمد الى الخليفة بدمشق ليصل بذلك الى مدحه ، فلما دخل عليه مع الوفد استأذنه فى انشاده فأبى ، وقال لهُ انما أنت للحجاج ، فما برح يتوسل اليهِ حتى قبل مدحه وأجازه عليه جائزة سنية ، ومن ذلك الحين عُدَّ من مداح خلفاء بنى أمية ودخل فى غِمار المتزاحمين على أبوابهم والمتنافسين فى نيل جوائزهم ، وجره ذلك الى مُعاداة مُنافسيه ومهاجاتهم ، وحرَّش الفرزدق بينه وبينهم وأغراهم عليه بالمال ، ونصب له منهم نحو ثمانين شاعراً فغلبهم كلَّهم وأخرسهم ، وثبت له من دونهم الفرزدق والأخطل فبقيت حرب المهاجاة بينهم سجالا ، حتى مات الأخطل ، وغبر الفرزدق وجرير يتسابَّان بقية حياتهما الاَّ مدة قليلة تنسَّك فيها الفرزدق وتاب ثم مات ولم يطل عمر جرير بعده الاَّ نحو ستة أشهر ومات باليمامة سنة ١١٠ هـ

مهاجاة جرير للشعراء وللفرزدق

وكان فى جرير على هجائه للناس وخوضه فى أعراضهم عفةٌ ودين وحُسن خُلق ورِقَّة طبع ظهر أثرها فى شعره

**

موازنة بين جرير والفرزدق والأخطل

شعره – اتفق علماء الأدب وأئمة نَقْد الشعر على انه لم يوجد فى الشعراء الذين نشئوا فى ملك الاسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل وانما اختلفوا فى أيُّهم أشعر ولكلٍّ هوًى وميْل فى تقديم صاحبه : فمن كان هواه فى رقة النسيب ، وجودة الغزل والتشبيب ، وجمال اللفظ ولين الأسلوب ، والتصرف فى أغراض شتى ، فضل جريراً ؛ ومن مال الى إجادة الفخر ، وفخامة اللفظ ، ودقة المسلك ، وصلابة الشعر وقوة أسْره ، فضل الفرزدق ؛ ومن نظر بعد بلاغة اللفظ ، وحسن الصوغ ، الى اجادة المدح والامعان فى الهجاء واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها ، حكم للأخطل ؛ وهناك فريق يُدْخِل فى الموازنة بينهم ما ليس من موضوع الأدب ،

فأهل الحسب والنسب يقدّمون الفرزدق . وأهل الدّين والعفة يقدّمون جريراً ، وأدباء المَسيحيين يُقدِّمون الأخطل ، ولاعبرة بذلك فى باب صناعة الشعر؛ على أن طائفة من أهل النقْد المعتدِّ بهم يرون جريراً أشعر الثلاثة : لانه طرق جميع أبواب الشعر ولم يُقصِّر فى باب ، وأن الفرزدق امتاز بالفخر ، والأخطل بالمدح والهجاء ووَصْف الخمر ، ويحتجُّون بأنه لما ماتت امرأة الفرزدق لم تَنْدُبها النوادب الاّ بشعر جرير فى رثاء امرأته ، وأن الفرزدق كان يحسُده على رقة شعره ويقول : ما أحوجَ جريراً مع عَفافه الى صَلابة شعرى ! وأحوجنى مع شهواتى الى رقة شعره ، وأن له فى كل باب من الشعر أبياتاً سائرة هى الغاية التى يُضرب بهـا المثل فيقال ان أغزل شعر قالته العرب هو قوله :

انَّ العيون التى فى طَرْفها حوَر[1] ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِين قتلانا

يَصْرَعْن ذا اللب حتى لاحَراك به ... وهن أضعفُ خلق الله انسانا

وأن أمدح بيت قوله :

ألستُمْ خيرَ من ركِب المطايا ... وأندَى العالمِين بطونَ راح

وأن أفخر بيت قوله :

اذا غضِبت عليك بنو تميم ... حسِبت الناس كلَّهمُ غضابا

وأن أهجى بيت مع التصوُّن عن الفحش قوله :

فَغُضَّ[2] الطرفَ إنك من نُمَير ... فلا كعبًا بلغتَ ولا كلابا

وأن أصدق بيت قوله :

إنّى لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفس مُولَعَةٌ بحب العاجل

وأن أشد بيت تهكمًا قوله :

زَعم الفرزدَقُ أنْ سَيقتل مَرْبعًا[3] ... أبْشِرْ بطول سلامة يا مربعُ

ونحو ذلك كثير فى شعره؛ قيل وقد لَعِب جرير وجَدَّ فى قصيدة يهجو بها الأخطل التغلبى بما لو أراده غيرُه لامتنع عليه ففى لعبه يقول :

---

(١) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها (٢) اخفض (٣) هو راوية جرير

ان الذين غدوا بلُبك غادروا   وَشَلاً[1] بعينك لايزال معينا[2]
غيَّضْنَ[3] من عَبَراتهن[4] وقُلن لى   ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

وفى جَدِّه يقول :

ان الذى حَرم المكارمَ تغلبًا   جعل الخلافة والنبوّة فينا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم   يا خُزْرَ[5] تغلبَ من أب كأبينا
هذا ابن عمّى فى دِمَشْقَ خليفةً   لو شئتُ ساقكمُ الىّ قطينا[6]

فلما بلغ عبدَ الملك هذا الشعر قال ما زاد ابن المَراغة[7] أن جعلنى شُرْطياً[8] أمَا انه لو قال : لو شاء ساقكم الى قطينا ، لسقتهم اليه كما قال

ومن جيد شعره قوله من قصيدة يرثى بها امرأته وهى التى نُدبت بها نَوَار امرأة الفرزدق

لولا الحياء لهاجَنى استعْبار[9]   ولزُرت قبركِ والحبيبُ يُزار
ولَهِتِ قلبى اذ علتنى كَبْرة[10]   وذوو التمائم من بَنيكِ صِغار
لا يُلبِثُ القرناء أن يتفرّقوا   ليلٌ يكر عليهمُ ونهار
صلّى الملائكة الذين تُخيّروا   والطيبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كُسيتِ أحسن منظرٍ   ومعَ الجمال سكينةٌ ووَقارُ

١٠ — الكميت

هو الشاعر الخطيب الراوية النسّابة أبو المُستهِلّ الكُميتُ بن زَيْدٍ الأسَدى الكوفى ، أشعرُ شعراء الشِّيعة الهاشمية ، ومُثير عصبية العدنانية على القحطانية ولد سنة ٦٠ ﻫ ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد احدى قبائل العرب الفصحاء ،

---

(١) الوشل الماء القليل (٢) جارياً (٣) غاض الماء ذهب وغيضن أذهبن
(٤) جمع عبرة وهى الدمعة قبل ان تفيض (٥) الخزر ضيق العيون وصغرها
(٦) خدماً (٧) كنية كنى بها الفرزدق أم جرير ، والمراغة الاتان
(٨) كترك وجهنى أعوان الملك (٩) استعبرت عبرته جرت دموعه
(١٠) الكبر والضعف

من مضر فلقِن العربية، وعرف الأدب والرواية، وعلم انساب العرب وأيامها ومثالبها بمدارسة العلم والأخذ عن الأعراب ، وكان له جدّتان أدركتا الجاهلية تقُصّان عليه أخبارها وأشعار أهلها ، فخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك ، وأقر له حمادٌ الراوية بالسبق عليه ؛ وقال الكميت الشعرَ وهوصغير ، وكان لا يُذيعه ولا يتكسب به، ويكتفى بحرفته تعليم صبيان الكوفة بالمسجد ، ولما حَصُف شعرُه وقوى أَزْرُه ، ولا سيما قصائده التى أعلن فيها تَشَيُّعَه لبنى هاشم وآل علىّ، أنشده الفرزدق مستنصحًا له فى أمر اذاعته اذا أعجبه ، فأمره باذاعته ، فقال قصائدَه البليغة المطولة المسماة بالهاشميات ، ثم تكسب بالشعر ومدح الأمراء والولاة وساداتِ أهل البيت من أبناء على رضى الله عنه ، واحتجّ لهم بشعره ودافع عنهم ، وعرَّض نفسه من أجلهم الى الموت مراراً ، وبقىَ هذا شأنه حتى هجا حكيمُ الكلبىُّ من اليمانية وأهل الشام آلَ علىّ وشيعتَه وسائر مضر ، فردّ عليه شعراء المضرية فلم يفْلِحوا

سبب هجائه اليمانية

فأغْرَوْا به الكميتَ فاعتذر ، فأسْمَعُوه هجاءه فى بنات عمّه وخاله، فحمِيَ الكميت لعشيرته وهجا الكلبىَّ واليمانية جمعاء . وكان خالدُ بن عبد الله القَسْرى والى العراق بالكوفة يمانيًا فغضب وسعى به الى هشام بن عبد الملك، واحتال حتى أبلغه شعره فى ذم بنى أمية ومدح بنى هاشم ، فأمره بقتله ، فقَبض عليه وسجنه ، فاحتال الكميت وفرّ من سجنه – ورحل الى الشام، واستجار بقبر معاويةبن هشامفآمنه، وخطب بحضرته خطبة بليغة،وارتجل قصيدته التى يعتذر فيها ويتوب من تشيعه، ويمدح بنى أمية ويقول:

اليوم صرت الى أميـــة والأمور لها مصاير

فعفا عنه وأجازه، وكتب لخالد ألاَّ يتعرض له؛ وبقى الكميت على شأنه فى هجاء اليمانيَة، حتى كان شعره من أشدّ الأمور التى أثارت العداوة بين الامتين وبقيت نارها تتأجج حتى أواسط الدولة العباسية ، واذ ذاك استولى الأعاجمُ على الملك وأخفتوا صوت العرب جميعًا عدنانيّها وقحطانيها

صفة شعره

شعره – كان الكميت من فحول شعراء الأمصار، كثير الشعر والارتجال، على اجادة واحسان ؛ وكان لكثرة حفظه لأشعار العرب يأتى فى شعره ببعض جمل أو أبيات

من كلامهم ، فيتذرَّع بذلك متعصبو اليمانية الى اتّهامه بسرقة الشعر ؛ ومن هؤلاء خلفُ الأحمر أحد رواة الشعر[1] ؛ وكان لشعره من التأثير السياسى والمذهبى أثر سيّئ ، بين تلك الآثار التى شتّتت شمل الوحدة العربية وعادت عليها بالنَّكال بما أحياه من العصبية الذميمة ، وأغرى الشيعة بمناظرة خصومهم اذ يقول الجاحظ : ما فتح للشيعة الحِجَاج بالشعر الّا الكميت بقوله :

فان هى[2] لم تصلح لحى سواهمُ … فان ذوى القربى أحقُّ وأوجبُ
يقولون لم يورثْ[3] ولولا تُراثه … لقد شركت فيه بَكِيل وأرحَبُ[4]

طائفة من شعره

ومن جيد شعره يمدح خالد بن عبد الله القسرى[5]

لو قيل للجود من حليفك[6] ما … ان كان الّا اليك ينتسبُ
أنت أخوه وأنت صورته … والرأس منه وغيرك الذنبُ
أحرزت فضل النّضال[7] فى مهَل … فكلَّ يوم بكفك القصَبُ[8]
لو أن كعبًا[9] وحاتمًا[10] نُشرا … كانا جميعًا من بعض ما تَهَب
لا تُخلِف الوعد ان وعدت ولا … أنت عن المعتفين[11] تحتجب
ما دونك اليوم من نَوال ولا … خلفك للراغبين منقلَب

ومن هاشمياته :

ألَا هل عمٍ فى رأيه متأمل … وهل مدبرٌ بعد الاساءة مقبلُ[12]
وهل أمة مستيقظون لرشدهم … فيكشفَ عنه النَّعسةَ المتزمِّلُ[13]
فقد طال هذا النومُ واستخرج الكَرَى … مساويَهم لو كان ذا المَيلُ يُعدَل

(١) هو الراوية المشهور توفى سنة ١٨٠ ﻫ
(٢) يريد الخلافة (٣) نائب الفاعل الرسول (٤) حيان من همدان
(٥) هو امير العراق المقتول سنة ١٢٦ ﻫ
(٦) حليفك هو الذى يعاهدك على ان يكون أمركما واحداً فى النصرة والحماية
(٧) المباراة فى الرمى (٨) القصب كل نبات ذى انابيب الواحدة قصبة واحرز القصب او قصب السبق غلب (٩) هو كعب بن مامة من اياد أحد أجواد العرب المضروب بهم المثل فى الكرم (١٠) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد، مات قبيل الاسلام (١١) طلاب المعروف والرزق (١٢) اما آن للعاقل ان ينتبه وللنائم ان يستيقظ
(١٣) الملتف

وعُطِّلت الأحكام حتى كأننا … على ملةٍ غير التى نتنحَّل
كلام النبيين الهداةِ كلامُنا … وأفعالَ أهل الجاهلية نفعلُ
رضينا بدنيًا لا نريد فراقَها … على أننا فيها نموت ونُقتَل
ونحن بها مُستمسكون كأنها … لنا جُنة[1] مما نخاف ومعقِل[2]
أرانا على حبِّ الحياة وطولها … يُجَدّ بنا فى كل يوم ونَهزِل

ومنها :

فيا ساسةً هاتوا لنا من حديثكم … ففيكم (لعمرى) ذُو أفانينَ مِقْوَل[3]

ومنها :

أنُصلح دنيانا جميعًا ودِيننا … على ما به؟ ضاع السَّوام[4] المؤبَّل[5]

ومنها :

كأنَّ كتاب الله يُعنَى بأمره … وبالنهى فيه الكَوْدَنىُّ[6] المركَّل[7]
ألم يتدبر آيةً فتدُلّه … على ترك ما يأتى أم القلبُ مقفَل
فيا ربِّ هل الّا بك النصرُ يرتجَى … عليهم وهل الّا عليك المعوَّل

وله :

طربتُ وما شوقًا الى البيض أطربُ … ولا لَعِبًا منّى وذو الشَّيب يلعب
ولم تُلهِنى دار ولا رسمُ منزل … ولم يتطرَّبنى بَنَانٌ مخضَّب
ولا السانحاتُ البارحات[8] عشية … أمرَّ سليمُ القرن أم مرَّ أعضب[9]
ولكن الى أهل الفضائل والنُّهَى … وخيرِ بنى حوَّاء والخيرُ يُطلَب
بنى هاشمٍ رهطِ النبى فاننى … بهم ولهم أرضَى مرارًا وأغضب
خفضتُ لهم منى الجناحَ مودّةً … الى كَنَفٍ[10] عِطفاه[11] أهلٌ ومرحَب
وما لِىَ الّا آلَ أحمدَ شيعةٌ … وما لِىَ الّا مذهبَ الحق مذهبُ
بأىِّ كتاب أم بأيّةِ سنة … يُرَى حبهم عاراً علىَّ ويُحسَبُ

(١) وقاية (٢) ملجأ (٣) كثير القول قادر عليه (٤) الماشية الراعية
(٥) المتخذ للقنية (٦) الكودنى الهجين (٧) الركل ضربك الفرس برجلك ليعدو
(٨) البارح ما مرّ من ميامنك الى مياسرك ، ومن لى بالسانح بعد البارح اى بالمبارك بعد المشئوم
(٩) مكسور القرن (١٠) ظل (١١) جانباه

الرواية والرواة

ظهر الإسلام، وعمدةُ العرب فى ضبط علومهم وآدابهم على الحفظ والرواية: فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير، والعلم الكثير، فكانت عنايتهم بحفظها فى الصدور أكثرَ من كتابتها فى السطور. ولما اتسع علم المسلمين بما أضيف اليهما من تفسير الصحابة والتابعين ومن أقوالهم فى الدين، تعدّدت طوائف الرواة للقرآن والحديث وفنون الأدب

واذ كان الانسان عرضةً للنسيان، وأحوالُ الناس تختلف فى الصدق والكذب تشدّد الصحابة والمتألهون[1] من التابعين وتابعيهم فى تصحيح الرّواية وشدّة التوثق من صدق الرواة تحرجًا منهم أن يدخُل فى الدين ما ليس منه

ولما خاف عمر بن عبد العزيز أن تموت السنة الصحيحة بموت رواتها وبما وضعه الزنادقة والشيعة والخوارج ودسُّوه فيها، أمر العلماء بتدوين الحديث

وبقى الأمر فى الشعر والأدب كما كان فى الجاهلية: لكل شاعر راوٍ أو عدّة رواة ومن أشهر هؤلاء هُدْبة[2] بن خَشْرَم راوية الحطيئة، وجميـل[3] راوية هدبة، وكُثيِّر[4] راوية جميل، وأبو شفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راويةُ الفرزدق، ومربَع راوية جرير والفرزدق معًا، ومحمد بن سهل راوية الكُمَيت، وصالح بن سليمان راوية ذى الرُّمّة[5]، وذو الرمة راوية الراعى[6]

وبقى الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر فاشتغل العلماء بالرواية، وصار الراوى منهم يروى لمئات من الشعراء والشواعر وان لم يكن هو شاعرًا، وأكثر هؤلاء العلماء من الرواة أدرك عصرَ بنى العباس فيذكر فيه. ومع تشدّد الناس فى تصحيح الرواية سنةً وأدبًا حـدث فى الشعر والخطب كثير من التصحيف والتحريف والنقص والزيادة ونحو ذلك

(١) المتنسكون المتعبدون (٢) قتل قوداً بالمدينة وعليها سعيد بن العاص من قبل معاوية
(٣) هو ابن عبد الله بن معمر العذرى الشاعر الغزل المتوفى سنة ٨٢ ﻫ
(٤) هو تلميذ جميل وراويته وأحد شعراء النسيب المشهورين المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ
(٥) هو غيلان بن عقبة صاحب مية المتوفى سنة ١١٧ ﻫ
(٦) هو حصين بن معاوية وسمى بالراعى لانه كان يكثر وصف الرعاء فى شعره

العصر الثالث

عصر الدولة العباسية[1] من ١٣٢ — ٦٥٦ ﻫ

أحوال اللغة العربية وآدابها فى ذلك العصر

نقصد بأحوال اللغة العربية فى ذلك العصر أحوالها بين أهل البلاد الإسلامية فى آسيا وإفريقية والأندلُس وجزائر بحر الروم من أوربا، ولو لم يكونوا تابعين للدولة العباسية فى المُلْك والسياسة

كان بنو أمية شديدى التعصب للعرب والعربية، فكان كلُّ شىء فى دولتهم عربىَّ الصِّبغة، وكانت جَمْهرة[2] العرب منتشرةً فى كل مكان امتدَّ اليه سلطانُها. فلما قامت الدولةُ العباسية بدعوتها، لم تجد لها من العرب أنصاراً وأعوانًا مثلَ مَنْ وجدت من الفرس وأُمم الأعاجم، فاكتسحت بهم دولةَ بنى أمية، وأسست دولة قويةً كان أكثرُ النفوذ فيها للموالى، فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شىء من سِقاية الماء الى قيادة الجيوش والوزارة، وابتدأ شأنُ العرب السياسىُّ يتضاءل[3] من ذلك الحين شيئًا فشيئًا، حتى ضعُفت النُّعَرةُ[4] العربيةُ فيهم، وخمدت جَذْوةُ[5]

(١) خلفاء بنى العباس الى سنة ٣٣٣

ابو العباس عبد الله السفاح	(١٣٢ — ١٣٦)	محمد المنتصر	(٢٤٧ — ٢٤٨)
ابو جعفر المنصور	(١٣٦ — ١٥٨)	ابو العباس احمد المستعين	(٢٤٨ — ٢٥٢)
محمد المهدى	(١٥٨ — ١٦٩)	ابو عبد الله المعتز	(٢٥٢ — ٢٥٥)
موسى الهادى	(١٦٩ — ١٧٠)	محمد المهتدى بالله	(٢٥٥ — ٢٥٦)
هارون الرشيد	(١٧٠ — ١٩٣)	احمد المعتمد على الله	(٢٥٦ — ٢٧٩)
محمد الأمين	(١٩٣ — ١٩٨)	احمد المعتضد بالله	(٢٧٩ — ٢٨٩)
عبد الله المأمون	(١٩٨ — ٢١٨)	على المكتفى بالله	(٢٨٩ — ٢٩٥)
ابو اسحاق محمد المعتصم	(٢١٨ — ٢٢٧)	جعفر المقتدر بالله	(٢٩٥ — ٣٢٠)
ابو جعفر هارون الواثق	(٢٢٧ — ٢٣٢)	ابو منصور محمد القاهر	(٣٢٠ — ٣٢٢)
جعفر المتوكل على الله	(٢٣٢ — ٢٤٧)	ابو العباس احمد الراضى	(٣٢٢ — ٣٢٩)
		ابراهيم المتقى لله	(٣٢٩ — ٣٣٣)

(٢) جمهرة الناس والاشياء جلها ومعظمها كالجمهور، والجمهرة أصلها مصدر استعمل اسم ذات
(٣) تضاءل الشىء خفى وتصاغر شخصه
(٤) النعرة الخيلاء والكبر
(٥) الجذوة مثلثة الجمرة من النار

التباهى بكرم الأصل والنِّجار[1] بينهم ، بحيث لم يمض نصفُ قرن على تكوين الدولة العباسية حتى لم يكن لعرب المشرق فى السياسة شأنٌ يُذكَر ، وقُطعت أرزاقهم من ديوان الجُند[2] ، واندمجوا فى غِمار العامة ، واشتغلوا بالصِناعة والفِلاحة والحِرَف المختلفة ، واختلطوا بالأعاجم أيّما اختلاط: بالتصاهُر والتجاوُر ، وكان من المجموع شعبٌ ممتزجٌ لغةً وعادةً وخُلقًا واعتقاداً وتصوُّراً وخيالاً ، فأثَّر ذلك كلُّه تأثيراً بيّنًا فى اللغة لفظًا ومعنى ، وشعراً ونثراً ، كتابةً وتأليفًا . ولم يظهر ذلك بالطبع فى جميع الممالك بنسبةٍ واحدة ؛ بل كان فى أواسط آسيا أظهر منه فى مصر والشام . أما حال ممالك الغرب والأندلس صدرَ هذا العصر فلم يبعُد كثيراً عما كان عليه فى العصر الماضى . ثمّ سرت اليها عدوى تقليدها للمشارقة فى أكثر الأمور ، ويمكن تقريبُ ذلك بأن كلَّ تغيرٍ فى لغة أو اختراع لفنون أو علوم فى المشرق كان أثره يظهر فى الأندلس بعد نصف قرن أو يزيد قليلاً ، الاَّ أن الصِّبغة العربية كانت مرعيَّة بالأندلس فى الجملة. وكذلك كانت فى افريقية[3] من ممالك البربر مُعْظَمَ هذا العصر

ويمكن ارجاعُ جميع هذه التغيرات الى ثلاثة أمور :

الأول – ما يتعلق بالأغراض التى تؤدّيها اللغة

الثانى – ما يتعلق بالمعانى والأفكار

الثالث – ما يتعلق بالألفاظ والأساليب

أغراض اللغة

كانت أحوالُ الدولة العربية فى العصر السابق تقرُب من الفَضاضة والبَداوة لاستقلالها بالآداب العربية الاسلامية ، فلم تكن اللغةُ تتناول من المقاصد والأغراض غيرَ ما يتعلق بالدين ومعيشةِ الجِدّ القليلةِ الترف . فلما قامت الدولة العباسية بما علمتَ وتشبه الخلفاء والأمراء والوُلاة والرؤساء بملوك الفرس ودهاقينهم[4] فى أكثر أمور

(١) الاصل (٢) فعل ذلك المعتصم بن الرشيد ومن بعده

(٣) افريقية هنا هى المسماة الآن بلاد تونس

(٤) جمع دهقان (بكسر الدال) وهو من العجم تاجرهم أو زعيم فلاحيهم أو رئيس اقليمهم

السياسة والمعيشة، وحاكَتْهم العامةُ فى ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم، تناولت اللغة فى المشرق أغراضًا لم تُعْهَد فيها من قبلُ بنَقْل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها ، ثم تناولت هذه الأغراضَ فى المغرب بعدئذٍ بفرق يسير؛ على أن المسلمين من العرب وغيرهم كانوا قد ارتاحت عقولهم ، ونضِج استعدادُهم لوضع الأنظمة والقوانين، واستنباط أحكام الشريعة من أصولها، وتدوين العربية لحفظ اللسان والدين ، فكان من تلك الأغراض ما يأتى :

(١) تدوينُ العلومِ الشرعيةِ واللسانية والعقلية ، ولم يكن دُوِّنَ من ذلك فى صدر الإسلام الاَّ نزرٌ يسيرٌ لا يُذكر بجانب ما دُوّن فى هذا العصر

(٢) الترجمةُ من اللغات الأجنبية الى العربية . ولم يُتَرْجَم فى العصر الماضى الى العربية بعد حساب الدفاتر الديوانية الاَّ بعضٌ من الرسائل العلمية قلَّما يُعرَفُ له خبرٌ . واختص المشارقة بالترجمة دون المغاربة لعَراقة دولهم فى الملك وعتاده ، ولأنهم ورِثُوا ممالك ذات علوم وحَضارة عظيمة

(٣) تأديةُ مقاصد الصناعات المختلفة، وخاصَّةً بعدَ دخول العرب فى غِمار[1] الصُّناع وبعدَ تعرُّب الأعاجم

(٤) تأديةُ المقاصد التى استدعاها الانغماسُ فى الترف والتنعمُ بلذائذ الحضارة التى جرتْ فيها الأُمم الاسلاميةُ عصرَ الدولة العباسية الى أمد[2] بعيد، أو اقتضتها أساليبُ نظام الملك والدفاع عنه : كالإمعان فى وصف الأشياء النفيسة من القُصُور وما فيها من الفراش والرياش والآنية والحلى والجَوَارى والقِيان[3] ، والبساتين وما فيها من أنواع الرياحين والأزهار والثمار والخُضَر، وما يتبع ذلك من مجالس الشرب والمنادمة ومصايد الطير والسمك وأشكال الملاعب ، مما لم يُعرف للعرب فى صدر الاسلام ، أو عُرِفَ وكان قليلاً ممقوتًا صاحبُه ، محتقراً فاعله ؛ وكوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية . وامتاز بأكثرِ ذلك المغربُ والأندلسُ ، كما

(١) غمار الناس جماعتهم ولفيفهم (٢) الامد الغاية

(٣) جمع قينة (بالفتح) وهى الأمة المغنية

امتازت الأندلسُ بالاجادة فى وصف مناظر الطبيعة ومحاسن الوجود لملاءمة بيئتها لذلك، وكادت تلحق بها فى الوصف صِقلّية وافريقية إبَّانَ ازدهائهما

(٥) تأديةُ مقاصد أنواع الخلاعة والسُّخريةُ والمَجانة⁽¹⁾ مما قلّ نظيرُه فى صدر الإسلام

(٦) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدَل وتدريس العلوم

المعانى والافكار

إنَّ ما حدثَ فى مشارق الممالك الاسلامية ومغاربها أثناء العصر العباسى من الانقلابات السياسية والاجتماعية كان له نتيجةٌ ظاهرة فى الحركة الفكرية للمتكلمين بالعربية . ظهر ذلك فى عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة ؛ فمنها :

١ – ازديادُ شُيوع المعانى الدقيقة ، والتصوراتِ الجميلة ، والأخيلة البديعة فوق ما كان عليه الأمرُ فى صدر الاسلام

٢ – التعويلُ على القياس والتعليل فى الأحكام الفكرية : بالإكثار من الحجج والبراهين العقلية ، وانتحاء[2] مذاهب الفلاسفة فى الشعر والكتابة والتدريس ولا سيما بعد عصر الترجمة ، واكثر ما كان ذلك بالمشرق . وقلما عُنى به أهل المغرب

٣ – التهويلُ والغُلُو فى التفخيم المقتَبَسُ فى المشرق من اللغــة الفارسية ، والسارى بعضُه بالعَدوَى الى أهل المغرِب والاندلس

الالفاظ والاساليب

غلب على عبارة اللغة العربية فى هذه المدة أمران عظيمان : السهولة ، والمحسنات البديعية . ويشمل ذلك ما يأتى

(١) انتقاء الألفاظ الرشيقة السهلة[3] : لاستعمال الرويَّة ، وقلة الحاجة الى

(١) مجن (من باب قعد) مجونا ومجانة لم يبال قولاً وفعلاً
(٢) مصدر انتحى بمعنى قصد
(٣) نقصد بالسهل هنا ما كان خفيفاً فى النطق وعلى السمع ، مألوف المعنى والاستعمال عند أوساط البلغاء فى عصره ، فقد يكون السهل فى زمان صعباً فى آخر

الارتجال ، وضيق نِطاق المحفوظ على المتكلم بالعربية بالدرس والصناعة لاَ على المتكلم بالطبيعة والفطرة كما كان الأمر فى العصرين الماضيين

(٢) ازديادُ الميل الى استعمال ألفاظ القرآن وعباراته والاقتباس منه والاستشهاد به ، واطَّردَ ذلك فى كل شئ حتى شاراتِ الدولة : من البُنود[1] والطِراز[2] والسِّكَّةِ[3] . وزاد فى ذلك المشارقة على المغاربة

(٣) التوسعُ والاكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والتمثيل والكناية والمحسنات اللفظية كالجناس والطباق والتورية ونحو ذلك ، وخاصة فى أواخر هذا العصر وكانت عناية المغاربة بالمجاز والتشبيه اكثر من عنايتهم بالتورية والجناس

(٤) التوسعُ فى ادخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والأمراء وأرباب المناصب العالية

(٥) تفاقُمُ الخطْب فى استعمال الكلمات الأعجمية فى كثير من الأشياء ، ولا سيما ألوانِ الأطعمة وأنواع الآنية والفُرُش وأدوات الصناعات والعقاقير[4] الطبية وأسماء الأمراض

(٦) وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وادارة الحكومة وأسماء آلات الحرب وغيرها

(٧) التأنُّق فى صَوْغ العبارات وتوثيق الربط بينها

(٨) الميلُ الى استعمال السجع وازدادَ أمرُه فى النصف الثانى من هذا العصر

(٩) التطرف الى غاية حَدَّى الاطناب والإيجاز ولكل منهما مقام . وكان الأندلسيون الى الاطناب أميل

(١٠) حدوثُ لغة تأليفية لتعليم العلوم تقاسُ بمعيار المنطق لا بمعيار البلاغة . واذ كانت اللغة إما نثراً وإما شعراً، والنثر محادثة، وخطابة، وكتابة، ناسب أن نُلِمَّ بمُجمَل كلٍّ منها فنقول :

(١) جمع بند وهو العلم (٢) هو علم الثوب أى ما يكون فى حاشيته من النقش والكتابة
(٣) السكة الحديدة المنقوشة المكتوبة التى يضرب عليها الدراهم والدنانير
(٤) جمع عقار ككتان : ما يتداوى به من النبات أو أصوله

النثر

المحادثة أو (لغة التخاطب)

قدمنا لك أن لغةَ التخاطب بين الخاصة من العرب في أواخر العصر الماضى كانت العربيةَ الفصيحةَ الخاليةَ من اللحن إلّا من آحاد استُهجِن منهم ، وعُيِّرُوا به، وأن لغــةَ العامة والسُّوقة من العرب المختلطين بالعجم هى العربية المَشُوبة بشىء من اللحن ، ولغةَ المتعربين من العجم تقِلّ عن هذه فى الفصاحة ، وتزيدُ عليها فى اللحن بمراتب مختلفة

فلما تمّ امتزاجُ العرب بالعجم عصرَ الدولة العباسية ، تكونت بين العامة فى البلاد التى تكثر فيها جمهرةُ العرب لغاتُ تخاطُبٍ عاميةٌ مؤلفةٌ من العربية المحرّفة وشىء من الدخيل الأعجمى الأَ بين أهل جزيرة العرب ، فلم يزل تخاطُبهم باللسان العربى الفصيح الى أواسط القرن الرابع . وبقيت لغاتُ التخاطب فى البلاد التى تقل فيها جاليتُهم هى اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجةً ببعض الألفاظ العربية التى أدخلها عليها الاسلام

وخاف الخلفاء والخاصةُ من هَوْل تغلُّب العامية على أبنائهم وأشفقوا أن تستطيلَ على الفصيحة فيستغلقَ على المسلمين فهمُ الكتابِ والسُّنة وهما كلُّ الدين ، فحرَّضوا العلماء على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة وعلوم الدين وكافئوهم ببِدَرِ [1] الأموال ، وحشدوا فى قصورهم أئمــة اللسان يؤدّبون أولادهم وخاصتهم ، فكانوا أمراء الكلام وفحولَ البلاغة ، كما كانوا أُمراء الملك وسادة الدولة . ولكن ذلك كلَّه لم يوقف تيار العاميةِ الزاخر ، واستمر فى طغيانه الى أن غلب فى النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب ، حتى لغةِ الخلفاء وعلماء العربية أنفسِهم ، وأصبح لكل بلاد عربيةٍ لغةُ تخاطُبٍ عاميةٌ خاصةٌ بها

(١) جمع بدرة (بالفتح فالسكون) كيس المال ، قيل : الف ، وقيل عشرة آلاف من الدراهم . وقيل سبعة آلاف من الدنانير

ولم يدوّنْ أسلافُنا اللغاتِ العاميةَ خشيةَ أن تُزاحمَ العربيةَ الفصيحةَ وهى اللسان العامُّ بين جميع ممالك الإسلام فتنسخهـا ، فيُرتَجَ باب الدين ، وتتقاطعَ الأُمَمُ الاسلامية ، فتقتصرَ كل أُمة على كتبها ولغتها ، وفى ذلك من انحلال الروابط السياسية والعلمية والدينية ما لا يخفى . ونعم ان الأندلسيين والمغاربة فى أواسط هذا العصر وأواخره قد رَقَّوا العامية قليلاً بما نظموا بها كثيراً من الموشح وأنواع الزجل والشعر العامىّ وعروض البلد ، وما دوّنوه منها الّا أن ذلك والحمد لله لم يكن طويل الأمد، ولم تعمّ به البلوى فلم تصبح العامية به لغةَ علم وأدب

الخطابة والخطباء

لما كان قيام الدولة العباسية فى المشرق والادريسية فى المغرب الأقصى، والأموية الثانية فى الأندلس، من الأمور التى ينشأ عنها كثير من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعى تأليفَ العِصابات ودعوةَ الناس الى التشيُّع لزعماء الأحزاب ، وكان التفاهُمُ بالعربية الفصيحة والانجذابُ بالبلاغة والشعريات لا يزال متوافراً فى صدر هذا العصر – كانت دواعى الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها ؛ فكان بين قوّاد هذه الدول ودعاتها وخلفائها وولاتها ورؤساء وفودها خطباء مصاقعُ، وبلغاء فطاحل [1] . ثم لما فتَرَت هذه الدواعى باستقرار الدول ، واشتــد اختلاطُ العرب بالأعاجم، وتولى كثير من الموالى قيادةَ الجيوش وعِمالةَ الولايات والمواسم – ضعفَ شأنُ الخطابة لضعف قدرتهم عليها ، وقلة المستجيبين لها: لتناقُص العناصر العربية فى الجند وأهل النجدة . فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بطل شأنُ الخطابة السياسية والمذهبية ، الّا قليلاً فى المغرب أيام الخَلَل وقدوم الوفود وبقيت الخطابة قاصرة على خطب الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزّواج ونحو ذلك، وقلَّ فيها الارتجالُ أو عُدِمَ جُملةً ، وحل محلَّ الخطابة فى الأُمور السياسية نشرُ المنشورات وفى الأُمور الدينية مجالسُ الوعظ والتزهيد والتدريس فى المساجد والمدارس

(١) جمع فطحل كهزبر وهو فى الاصل الضخم من الابل

الخطباء

اشتهر فى صدر الدولة العباسية جملة من الخطباء جُلُّهم من بنى هاشم عباسيين وعلويين ثم من الخوارج ومن بعض خطباء الأمصار من بنى مِنْقر وآل الرقاشىّ وآل خاقان بالبصرة وبعض زعماء بنى أمية وفقهائهم [1] بالأندلس وآل الأغلب فى افريقية ، ومن أشهرهم داود بن على وشبيب بن شيبة وهاك ترجمتهما

داود بن علىّ

هو داودُ بن علىّ بن عبد الله بن عباس خطيبُ بنى العباس ، وأحدُ مؤسسى دولتهم ، نشأ هو واخوته وكانوا اثنين وعشرين رجلاً فى قرية الحُمَيْمة من أعمال عَمّان [2] وكان الوليدُ بنُ عبد الملك أجلى علىّ بن عبد الله بن عباس وأهل بيته اليها سنة ٩٥ هـ غضباً عليه

وأخذ هو واخوتهُ علمهم وأدبهم عن أبيهم علىّ حَبر قريش وابن حَبرها وبليغها ووارث علم أبيه عبد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البَدو النازلين فيهم من قبائل لخم وجُذام وتنوخ وغَسّان وقيس ، فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال وإباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحبِ الانتقام ، وجانَبَتهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف والملذات والعكوف على الملاهى

وكان داود أحد النابغين من إخوته فى هذه الصفات ويزيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم فى وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه فى الدولة. ولاه أبو العباس عقبَ بَيعته بالكوفة ولاية الكوفة وسَوادَها ، ثم ولاه إمارة الحاج فى هذه السنة وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفِر بهم من بنى أمية فى مكة والمدينة فى هذا العام أى سنة ١٣٢هـ وهو أول موسم ملكه بنو العباس ، وخطبهم

---

(١) وأشهرهم المنذر بن سعيد البلوطى

(٢) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية جرى لها ذكر كثير فى الحرب العظمى

الخطبة الآتية بعد ، ثم ذهب عقب الموسم الى المدينة فتوفى بها بعد شهرين من قدومه اليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ

ولداود خطبة عظيمة [1] خطبها يوم بيعة أبى العباس على منبر الكوفة ، أما خطبته فى موسم مكة فهى مختصرة من خطبة الكوفة وهى «شُكراً شُكراً إنَّا والله ما خرجنا لنَحفِرَ فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوخىَ له من خِطامه ، حتى عثَرَ فى فضل زمامه ، فالآن [2] حيث أخذ القوس باريها ، وعاد القوسُ الى النَزَعة ، ورجع الملك فى نصابه ، فى أهل بيت النبوّة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فُرُشِنا) ، أمِنَ الأسودُ والأحمرُ لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ، لكم ذمة العباس ، لا وربِّ هذه البنية – وأومأ بيده الى الكعبة – لا نهيج منكم أحداً »

شبيب بن شيبة

هو شبيبُ بن شَيْبَةَ بنِ عبد الله المِنْقَرىّ [3] التميمى خطيبُ البصرة فى زمانه نشأ فى البصرة وامتاز بنَبَالة نفس ، وسخاء كفٍّ ، وحسن تواضع ، ونزاهة لسان ، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القريبة من حد الاعجاز . وهو ابن عم خالد بن [4] صفوان الخطيب المشهور . وسمعه خالد هذا يتكلم فى رَهْطه . فقال يا بُنَىّ لقد نعَى الىَّ نفسى احسانُك فى كلامك . فإنا أهلُ بيت ما نشأ فينا خطيبُ الآ مات من قَبلَه . فقال له شبيبٌ : بل يُبقيك اللهُ ، ويجعلنى فداءك .

وقال الجاحظ : يقال انهم لم يروا خطيباً بَلَدياً [5] الاّ وهو فى أوّل تكلّفه بتلك المقامات كان مستثقلاً مستصلفاً [6] أيامَ رياضته كلها الى أن يتوقح [7] وتستجيب له

---

(١) راجع تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى (٢) ظرف لأمن الاسود

(٣) بنو منقر بطن من تميم

(٤) كان خطيب بنى تميم فى زمنه واشتهر فى بنى أمية وأدرك عصر بنى العباس وسمر للسفاح

(٥) أى من أهل الامصار لا من البادية

(٦) من الصلف وهو تجاوز الحدّ فى اظهار الظرف مع العجب والكبر

(٧) يقلّ حياؤه ويجرؤ

المعانى ويتمكن من الألفاظ الا شبيب بن شيبة ، فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره . وقد يطوّل حتى يقول فيه الراجز

اذا غدت سعد على شبيها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها عجبتَ من كثرتها وطيبها

وعرف شبيب أبا جعفر(١) المنصور قبل خلافته ثم اتصل به بعدها . فجعله فى حاشية ولىّ عهده المهدى(٢) . وبقى كذلك حتى ولّىَ المهدى الخلافةَ فصار من خيرة سُمّاره وجلسائه الى أن مات فى خلافته سنة ١٦٥ ﻫ

ومن خطبه القِصار ما عزّى به المهدىَّ يوم ماتت ابنتُه البانوقة وجزع عليها جزَعًا شديداً . ويقال إنها كانت أبلغَ تعزية قيلت فى هذا اليوم وهى :

أعطاك اللهُ يا أميرَ المؤمنين على ما رُزِئتَ(٣) أجراً . وأعقبك صبراً . ولاَ أجهدَ اللهُ بَلاَءك بنِقْمه . ولا نزَع منك نعمه . ثوابُ الله خيرٌ لك منها ، ورحمةُ الله خيرٌ لها منكَ . وأحقُّ ما صُبِرَ عليه ما لاَ سبيلَ الى ردّه !!!

(١) هو أمير المؤمنين أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس
(٢) هو أمير المومنين محمد المهدى بن المنصور
(٣) أى أصبت

الكتابة

الكتابة خطية وانشائية

الكتابة الخطية

تنوّع فى هذا العصر الخط الكوفى الى أنواع أربت على خمسين نوعاً . من أشهرها المحرَّر والمشجّر والمربّع والمدوَّر والمتداخل ، وبقى مستعملاً فى المبانى والسكة الى حدود الألف ، ثم نُسى جُملة ، وقد جُدّدت منه أنواعٌ فى عصرنا

أما تاريخ خطنا المستعملِ الآنَ فحدَثَ فى آخر الدولة الأموية أنِ استنبط قطبةُ المحرّر من الخط الكوفى والحجازى خطًّا هو أساس الخط الذى يُكتب به الآن ، واخترع القلم الجليل الذى يكتب به على المبانى ونحوها، وقلم الطُّومار (الورقة الكبيرة) وهو أصغر أنواع الجليل، وعرض قطته ٢٤ شعرة من شعر ذنب البِرْذَون ، وحسَّن عمله غيره من كتّاب صدر الدولة العباسيـة ، حتى ظهر ابرهيم الشَّجَرى وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثانى : فولّد ابرهيم من الجليل قلم الثلثين (أى ثلثى الطومار) وعرض قَطّته ١٦ شعرة، وقلم الثلث وعرض قطته ٨ شعرات ، وولّد يوسف من الجليل القلم الرِّياسى(١) وهو قلم التوقيع

وعن ابرهيم أخذ الأحولُ المحرر من (صنائع البرامكة) ، واخترع قلم النصف وعرضه ١٢ شعرة ، وخفيف الثلث والمُسلسل (هو المشتبك الحروف) وغُبـارَ الحَلْبة(٢) والرقاع وغيرها . هذه هى أشهر الخطوط وقد تولّد منها نحو من ٢٠ خطاً يختص كل منها بغرض خاص . واتفقوا على أن طول الألف يُعتبر معياراً لارتفاع بقية الحروف ، وأن يكون طول الألف مربع مقدار قطة القلم

وعن الأحول أخذ مهندس الخط الأعظم الوزير أبو على محمد بن مقلة وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ ﻫ وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط

(١) نسبة الى الفضل ذى الرياستين وزير المأمون (٢) شبه لدقته بغبار حلبة الخيل ويكتب به فى بطائق حمام الزاجل

النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التى نعرفها الآن ، وأنما العمل الذى بدأ به قطبة ، فهندسا الحروف وقدّرا مقاييسها وأبعادها ، وضبطاها ضبطًا محكمًا ، واخترعا له القواعد

وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبدالله محمد بن أسد القارئ المتوفى سنة ٤١٠ هـ وعنهُ أخذ أبو الحسن علىّ بن هلال البغدادى المعروف بابن البوّاب المتوفى سنة ٤١٣ وهو الذى اكمل قواعد الخط واخترع عدّة أقلام واليه انتهت الغاية ، وكل من جاء بعده فهو تابع لطريقتـــه : كأمين الدين ياقوت الملكى المتوفى سنة ٦١٨ هـ كاتب السلطان ملكشاه السلجوقى

أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبئوا بهذا الاصلاح وبقُوا يكتبون على طريقة الخط الحجازى الى الآن بنوع من التعديل

ضبط الحروف بالشكل- قد ذكرنا فيما تقدَّم طريقة أبي الأسود[1] التى اتبعت فى زمن بنى أمية وصدر بنى العباس ، وبقيت مستعملة فى الأندلس الى أواسط القرن الرابع؛ ولما استكثر الناس من إعجام الحروف لتسهيل التعليم، اشتبهت نقط الإعجام بنُقط الشكل ، مع أن هذه كانت تلوَّن بمداد مخالف كان من الصعب وضياع الزمن كتابتُها بمدادين ، فاخترع الخليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف، والفتحة ألفًا، والكسرة ياء ، والشدّة رأس شين ، والسكون رأس خاء ، وهمزة القطع رأس عين ، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت الى الشكل المعروف الآن، وهاك نموذجًا من الخط الكوفى المصحفى مضبوطًا بضبط الخليل وأبى الأسود معًا مرسومًا فيه نقطة الشكل دائرة مفرغة

شكل الخليل

(١) هو ظالم بن عمرو الدؤلى من سادات التابعين وأعيانهم كان من اكمل الرجال رأيا وأسدّهم عقلا ، وهو أول من وضع النحو واخترع الشكل بالنقط توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ عن خمسة وثمانين عاما

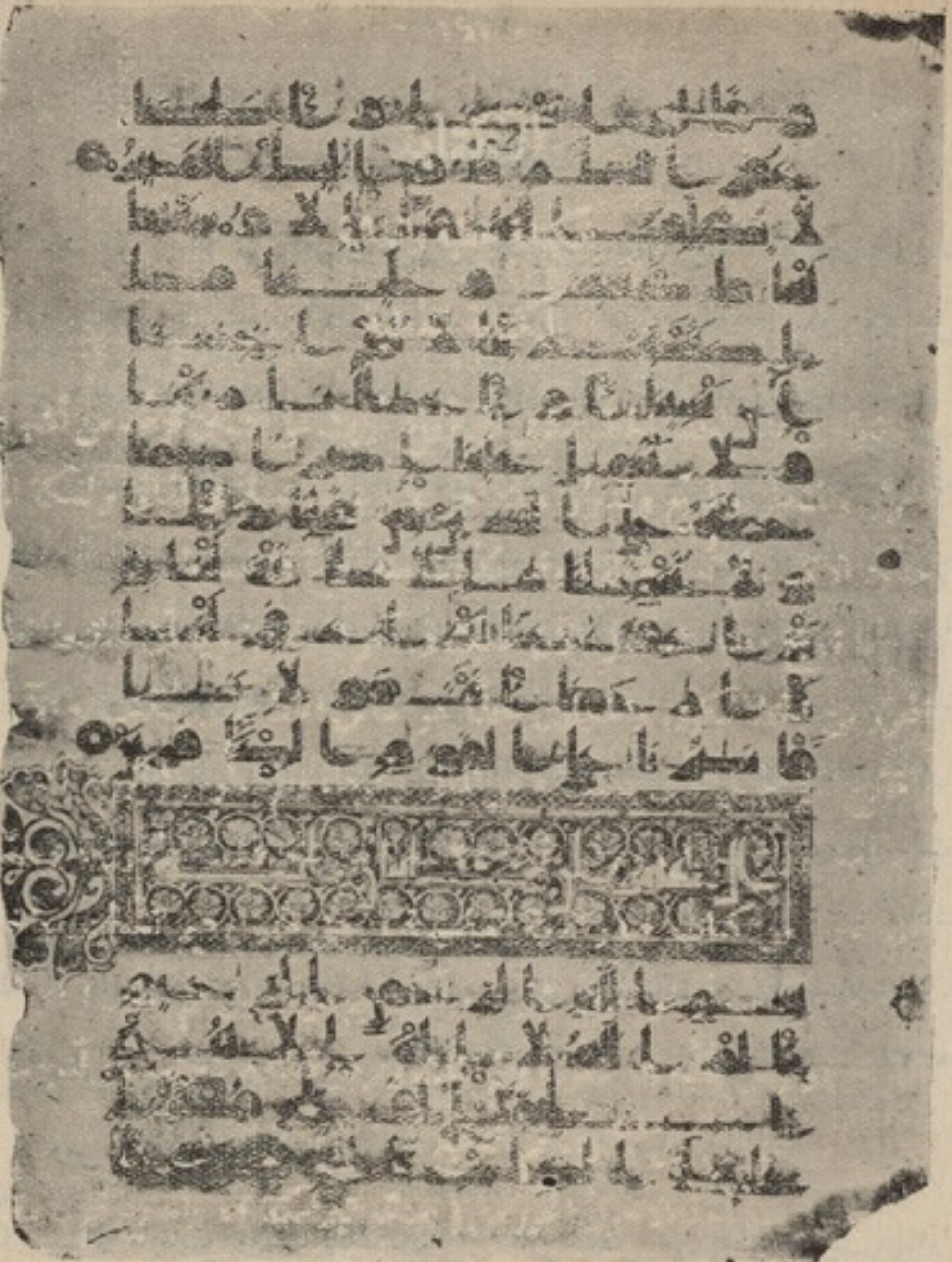

وقالوا سَمِعْنا وأطَعْنا	وَلاَ تُحَمِّلْنا ما لاَ طاقَةَ لَنا بِهِ
غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإلَيْكَ المَصِيرُ	واعْفُ عنَّا وَاغْفِرْ لَنا
لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَها	وَارْحَمْنا أنْتَ مَوْلاَنا
لَها ما كَسَبَتْ وعلَيْها ما	فَانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرِين
اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لاَ تُؤاخِذْنا	بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم
إنْ نَسِينا أوْ أخْطأْنا رَبَّنا	الم اللهُ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ
وَلاَ تَحْمِلْ علَيْنا إصْراً كَما	الحَيُّ القَيُّومُ نَزَّلَ
حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا	علَيْكَ الكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا

ابن مقلة

هو الوزير أبو عليّ محمد بن علي بن الحسن بن مقلة ، إمام الخطاطين ، وأحد كبار الكتاب البارعين ، أخذ الخط عن الأحول المحرّر صنيعة البرامكة ، وتمّ على يديه ويدى أخيه الحسن نقلُ الخط من الكوفيّ الى الشكل المعروف فى زماننا

وكان ابن مقلة يتولى فى أوّل أمره بعضَ أعمال فارس ويجْبى خراجها ، وتنقّلت به الأحوال الى أن استوزره الامام المقتدر بالله سنة ٣١٦ ، ثم كاد له أعداؤه عنده فقَبَض عليه سنة ٣١٨ هـ وصادر أمواله ونفاه الى فارس ثم وُزّر للراضى فوَشَى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعُزل ، وبقى معتزلاً الوزارة ؛ ثم أطمعهُ نحسُه أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المُسْتَضْعَف، فلم يستطع الخليفة كتمانَ سره وأفشاه الى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى ؛ ثم ندم الراضى على ذلك وأمر الأطباء بملازمته الى أن برَأ ، وكان يشُدُّ القلم على ساعده ويكتب به ، ثم كاد له ابن رائق لما أحس منه بمطالبته للوزارة ، وكان عاقبة ذلك أن قُطع لسانه أيضاً ، وأقام فى الحبس مدّة طويلة قاسى فيها عناء شديداً ، ولم يزل به حتى مات سنة ٣٢٨هـ

ومن قوله فى تلك الحوادث :

اذا ما مات بعضُك فابك بعضاً ... فان البعض من بعض قريب

وقوله :

ما سئمت الحياة لكن توثَّقـــتُ بأيمانهم فبــانت يمينى
بعت دينى لهم بدنياى حتى ... حرَمونى دنياهمو بعد دينى
ولقد حُطت ما استطعت بجهدى ... حفظ أرواحهم فمــا حفظونى
ليس بعد اليمين لذةُ عيش ... يا حياتى بانت يمينى فبينى

الكتابة الانشائية

كتابة الرسائل الدّيوانية والإخوانية[١]

كانت كتابة الرسائل فى أوائل حكم بنى العباس جاريةً على نظام كتابتها فى أواخر عهد بنى أميَّة، سالكةً الطريق التى سلكها عبدُ الحميد وابنُ المقفَّع والقاسم[٢] بن صُبيح وعمارة[٣] بن حمزة ونظراؤهم : من العناية بجعل عبارتها جزلةً بليغة، متناسقة الوُضوع والأساليب ، لا يُقْصَد بها الاَّ إفهامُ المعنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوة حجة ، غيرَ منظور فيها الى زُخرف اللفظ ومحسّناته . وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالاً ومراعاةً لمقتضى الحال الى أوائل القرن الرَّابع . ثم أخذت الصّناعات اللفظية تغلبُ عليها تدريجاً بتضاؤُل ملكةِ البلاغة فى الكتاب وتقاصُرِ هِمَمهم عن استيفاء أداتها : لتغلب الأعاجم من الديلم البُوَيهيين[٤] والتركِ السَّلْجُوقيين[٥] على سلطان الخلفاء فى

---

(١) نسبت الى الجمع من قديم وان كان القياس نسبتها الى المفرد وباب النسب واسع

(٢) أصله من القبط أسلم أبوه صبيح زمن بنى أمية وكتب ابنه القاسم لامرائهم ثم كتب للمنصور، وهو جد أحمد بن يوسف وزير المأمون المشهور

(٣) من موالى العباسيين ويضرب به المثل فى البلاغة والكبر . كتب وعمل للمنصور والمهدى

(٤) الدولة الديلمية البويهية من ٣٢٢ — ٤٨٨

أصل ابيهم بويه صياد ورزق السعادة فى أبنائه الثلاثة الذين اقتسموا ملك العراقين العجمى والعربى وفارس والجزيرة ، واكبرهم عماد الدولة ابو الحسن على (صاحب بلاد فارس) توفى سنة ٣٣٨ بغير عقب ونزل عن ملكه لعضد الدولة ابن اخيه ركن الدولة (واوسطهم) ركن الدولة ابو على الحسن (صاحب عراق العجم) توفى سنة ٣٦٦ وقسم املاكه على اولاده الثلاثة عضد الدولة فناخسرو — ومؤيد الدولة بويه — وفخر الدولة على. فمات مؤيد الدولة قبل فخر الدولة فانضمت الى هذا مملكة اخيه ثم مات فخر الدولة وخلفه ابنه مجد الدولة (واصغرهم) معز الدولة ابو الحسين احمد (صاحب العراق والاهواز المستولى على بغداد) توفى سنة ٣٥٦ وتولى بعده عز الدولة بختيار فاغتصب ملكه منه ابن عمه عضد الدولة وضم اليه اكثر املاك آل بويه والجزيرة فأصبح اكبر ملك فيهم وتوفى سنة ٣٧٢ وملك بعده ابناه صمصام الدولة ثم شرف الدولة ثم ابن الاخير بهاء الدولة ثم ابن هذا سلطان الدولة ثم اخوه مشرف الدولة ثم جلال الدولة ابن بهاء الدولة ثم اضطرب امرهم وزالت دولتهم

(٥) ينسبون الى جدهم سلجوق وأصلهم من الترك خرجوا على العباسيين فى أواخر دولتهم واستولوا على ممالكهم واستقلوا بها استقلالاً داخلياً

الشرق ، وتغلب البربر على شمالىّ افريقية والأندلس فى الغرب ، فلم يَعُدْ فى الملوك والأمراء من يعنيهم أمرُ العربيــة وبلاغتها . وما زالت كذلك حتى سقطت الدّولة العباسية على أيدى الأعاجم من التتار(١) ، فكان ذلك عصرَ ابتداء اضمحلال الكتابة واضمحلال اللغة فى الجملة

ويمكن التنويهُ ببعض التغيرات التى طرأت على كتابة الرسائل أو غلبت عليها فى عصر الدولة العباسية بذكر الأمور الآتية :

(١) تعدّد أغراض الكتابة وموضوعاتهـا بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم العديدة التى استُحْدِثتْ فى الدولة وتضاعفت مراراً عما كانت عليهِ فى العصر الماضى ، وبما زاد على الرسائل الاخوانية : من استعمالها أواسط هذا العصر فى بعض أغراض الشعر : من الهجاء والمفاخرة كما حدث بين البديع والخُوارزمى وغيرهما

(٢) دقة المعانى واستقصاء جميع جزئياتها وترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً أو نسبياً(٢)

(٣) الغلو فى طرفى الإطناب والإيجاز بحسب مقتضيات الأحوال : فقد كانت الكتب التى تُقرأ على العامة من بيعة أو منشور، أو أخذ بسياسة، أو احتجاج لمذهب أو تفصيل انتصار جيش ، أو نحو ذلك تكتب بغاية الاسهاب والتبيين والايضاح تقريراً لها فى أذهان العامة، وتفخيماً لشأن السلطان، وتعظيماً لنِعَم الله عليه وعلى أهل بيته

وعلى عكس ذلك كانت الكتبُ التى تصدُر عن الخليفة أو الوزير أو الرّئيس الى الوُلاة والمرءوسين فى أمر أو نهى أو سؤال عن حدَث . فقد كان غُلُوّهم فى الايجاز فيها يصل الى درجة الاشارة والرمز، بل قد يخل بشروط الفصاحة . ومن ذلك التوقيعاتُ التى كان يُوَقِّعها الخلفاء والوزراء والرّؤساء على الكتب التى تُقَدَّم بقصة حال؛ ومن أمثلة الايجاز كتابُ عمرو(٣) بن مَسْعدة فى توصية (كتابى اليك كتابُ مَعْنىّ بمن كُتِب له ، واثقٍ بمن كُتِبَ اليهِ ، ولن يضيعَ حاملهُ بين الثقة والعناية)

---

(١) هم الغزاة الجبابرة الذين خرجوا من صحراء المغول وأغاروا على اكثر ممالك آسيا من الصين وخراسان وما وراء النهر وبلاد العراق وفارس والشام وأزالوا الدولة العباسية سنة ٦٥٦ بقيادة زعيمهم الاكبر هولاكو خان

(٢) كالترتيب بين الاهم والمهم والسكل والجزء والمجمل والمفصل

(٣) هو أحد وزراء المأمون ومن أبلغ كتاب الايجاز

ومن أمثلة التوقيع توقيعُ لجعفر(١) البرمكى فى رقعة مستمنح كان قد وصله مراراً

(دَعِ الضرْعَ يدِرّ لغيرك كما دَرّ لك)

(٤) سهولةُ العبارة وانتقاء ألفاظها وجودةُ رصفها فوق ما اتبعه المتأخرون من كتاب العصر الماضى

(٥) شيوع السجع القصير الفقرات غالباً والوَلوع بالمحسنات اللفظية كالجناس والطباق والتلميح وحل الأبيات السائرة وضرب المثل ، والتلميح اليهِ، وتضمين الأحاديث النبوية والحكم المأثورة أو الاشارة اليها، والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعر ، الاَّ أن كل ذلك لم يكن ملتزماً فى القرنين الأولين من عمر الدولة وإنما كاد يلتزم بقية أزمانها وخاصة وقت هرمها ، فغلب السجع على كل الرسائل حتى كُتب الفنون، ثم طالت فقراته، وتنوعت أقسامه، وأصبحت التورية محك البراعة بين الأُدباء والكتاب؛ ولم يغل أهل الأندلس وشمالىّ افريقية فى ذلك غلوّ أهل المشرق

(٦) زيادة أنواع البدء والختام فى الرسائل ، فزاد العباسيون فى الصورة العامة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه صيغةَ الصلاة والسلام عليه بعد التحميد، وتَلَقُّبَ خليفتهم فيهــا بالامام ، وتكنى بأبى فلان . واتبعوا أيضاً صورة ابتداء عبد الحميد . وهى بعد البسملة

(أما بعد فالحمد لله) ويكرر الحمد أو يفرد ، وقد يحذفون (أما بعد) ويبتدئون بصيغة (الحمد لله الخ)

ومن الصِّيَغ التى يُعْزَى اختراعُها أو مبدأُ شُيوعها للعصر العباسى البُدَاءَةُ بالدّعاء إما بتقديم (أما بعد) أو بغيرها ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى الرسائل الاخوانية .

ومن أمثلة الدّعاء (أدام الله نعمتَه عليك . وأيَّدَك بروح من عنده . وأطال الله بقاء المولى أو الشيخ(٢) أو الأستاذ الخ)

ومن الصور التى كانت تستعمل أيضاً

---

(١) هو أشهر وزراء الرشيد ومن أبلغ كتاب الايجاز أيضاً

(٢) شاع استعمال لفظ « الشيخ » أو « الاستاذ » أو الرئيس فى النصف الثانى من حياة الدولة لرؤساء الكتاب والوزراء فى الدولتين السامانية والبويهية

(كتابى اليك) ويردفونه بما يناسب من دعاء أو ثناء أو وصف. ثم صاروا يخاطبون الخلفاء والسلاطينَ بالدّعاء لهم أو لديوانهم[١] أو لحضرتهم أو لمجلسهم أو لمقرهم.

وكانت صور الاختتام لا تقل عن صور الافتتاح، فقد كان بلفظ (والسلام) أو (والسلام عليك ورحمة الله وبركاته) ثم استعمل فى الختام (ان شاء الله) بعد الدعاء أو غيره. وقد يكون بحمدلة وصلاة وسلام. وذلك فى الكتب السلطانية، وقد يزاد عليها الحسبلة

(٧) زيادة الرسوم فى الألقاب والدّعاء وتخصيص كل ذى مرتبة بلقب أو دعاء بما يشعر بتعظيم الملوك والأمراء وتفخيمهم والتهويل بشأنهم

(٨) اختراع المقدّمات فى أوائل الرسائل المطولة والعهود والمنشورات. وجملة القول ان الكتابة فى هذا العصر عامةً، وفى صدره خاصةً، كانت أرقى ما وصل اليه الانشاء العربى. نسأل الله أن يُعيد للبلاغة العربيَّة نشأة أخرى تعيد لها مجدها وتجدّد آدابها

الكتاب

كان اكثر كتاب المشرق فى هذا العصر من سَلائلَ فارسيَّة أو سَواديَّة[٢] وقد بلغوا بحذقهم سياسةَ الملك ونبوغهم فى البلاغة أن ارتقوا عند خلفاء العباسيين الى مرتبة الوزارة التى لم تكن معروفةً قبلهم فى الاسلام. وأوّل كاتب منهم ارتقى اليها هو أبو سَلَمةَ الخلاَّلُ. وأشهرُ من بلغ نفوذُه وسلطانُه مبلغًا زاحم فيه الخليفةَ وأصبح المُلكُ فى قبضته يحيى[٣] بن خالد بن برمك وابناه جعفرٌ والفضلُ، ثم محمدُ

(١) شاع الدعاء للديوان العزيز (أى ديوان الانشاء) وللحضرة وللمقر وللمجلس أواخر الدولة

(٢) أهل السواد عندهم سكان الفرات من سلائل البابليين والاشوريين وربما سموهم نبطاً

(٣) كان من اكبر بطانة المهدى ومربياً لولده الرشيد ثم صار وزيراً ومديراً لدولة الرشيد ثم وزر للرشيد ابناه الفضل لجعفر فأما جعفر فقتله الرشيد سنة ١٨٧ وأما يحي وابنه الفضل فماتا فى سجن الرشيد

ابن الزيات فى زمن المعتصم والواثق. وكان كتابُ الأندلس والمغرب اكثرهم من سلائل عربية. وكانت الحجابة فى الأندلس أرقى من رتبة الوزارة. والوزير عندهم يطلق على قرين الخليفة ومستشاره الخاص. فاذا تولى مرتبة الكتابة والادارة للدولة سمّى ذا الوزارتين

ومن أشهر كُتَّاب هـذا العصر فى الشرق ابن المقفَّع، ويحيى بن خالد بن برمك، وابناه: جعفر والفضل، واسماعيل[١] بن صبيح، وعمرو بن مسعدة، واحمد بن يوسف، وابن[٢] الزيات، والحسن[٣] بن وهب، وعلى[٤] بن الفرات، وابن مقلة، وابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبو بكر الخوارزمى، والبديع، والصابى[٥]، والعماد[٦] الكاتب، والقاضى الفاضل

ومن أشهر كتابه فى الأندلس ابنُ شُهَيد[٧]، وأبو المُطرّف[٨] بن عميرة، وابن زيدون، ولسان الدين بن الخطيب

ونترجم لبعض هؤلاء فنقول:

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المُقفَّع أحد فحول البلاغة وثانى اثنين مهّدا للناس طريق الترسُّل، ورفعا لهم معالمَ صِناعة الانشاء، أولهما عبدُ الحميد

منشؤه وعمله

كان ابن المقفع من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب. فكان أبوه داذَوَيْهِ المقفَّعُ يَعملُ فى جباية الخراج لوُلاة العراق من قِبَل بنى أمية، وهو على دين المجوسية

(١) كان وزيراً للرشيد بعد جعفر

(٢) هو محمد بن عبد الملك الزيات كان كاتباً شاعراً داهيا جباراً وزّر للمعتصم والواثق والمتوكل وقتله المتوكل سنة ٢٣٣

(٣) كان صاحب ديوان الرسائل للمتوكل

(٤) كان وزيراً للمقتدر

(٥) كان صاحب ديوان الرسائل ببغداد زمن عز الدولة بن بويه وهو من كتاب الاطناب

(٦) كان كاتباً لنور الدين بن زنكى صاحب الجزيرة وحلب ثم صار من رؤساء الكتاب عند صلاح الدين الأيوبى

(٧) كان وزيراً للخليفة الناصر الاموى الاندلسى

(٨) كان من كتاب ملوك الطوائف والبربر بالاندلس

وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ ﻫ وسمّاه (رَوْزبَة)، فنشأ بالبصرة، وهى يومئذ حَلبةُ[1] العرب وعُشّ الفقهاء والرُّواة والمُحدِّثين وأصحاب اللغة، وحاضرةُ البرّ والبحر، وقرارةُ المِرْبَد[2] مُنتَدَى البلغاء والخطباء والشعراء؛ فكان لكلّ ذلك (فوق ذكائه المُفرط وتأديب أبيه وأخذه له بتعليم الفارسية وصِناعة الكتابة) أعظمُ أثرٍ فى تربيته وتهيئته لأن يصيرَ من اكبر كتاب العربية وعلمائها وأدبائها والمترجمين اليها

ولما ذاع فضلُه استكتبه فى عصر بنى أمية داود[3] بن يوسفَ بن عُمَرَ بن هُبَيْرة ثم كتب فى عصر بنى العباس لعيسى بن على عمّ الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى أيام ولايته على كِرْمانَ، وعلى يديه أسلم بمحضر من الناس وتسمَّى (عبدَ الله) وتكنى بأبى محمد بدل أبى عمرو ثم ألزمه أخوه اسماعيلُ بن على بعضَ بنيه ليؤدِّبَه، ثم كان آخرَ أمره فى خدمة أخيهما سليمان بن على أيامَ ولايته على البصرة. ويظهر أنه اتصل أثناء ذلك بأبى جعفر المنصور اتصالَ معرفة لا اتصالَ خدمة، فترجم له كثيراً من الكتب الفارسية واليونانية المنقولة قديمًا الى الفارسية. وبقِىَ فى خدمة أعمام الخليفة بقية عمره حتى قُتِل بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سُفيان بنُ معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان لضغينة عليه ولاتّهامه بالزَّندقة والكَيْد للاسلام بترجمة كتب الزنادقة الى العربية. وكانت هذه التهمةُ مما جعلَ الخليفةَ يُهمِل تحقيقَ مقتله عند ما شكا عماه عيسى وسليمان الوالىَ القاتلَ اليه لا كما يُقالُ من أن الخليفة أمر الوالىَ بقتله انتقامًا منه لكتابته صورةَ أمان يؤخذُ على الخليفة لأحد أعمامه الخارجين عليه[4] واحراجه فيه بالايمان المغلظة اذ أن ذلك مما يجلُّ عنه مقامُ أبى جعفر

(١) الحلبة جماعة الخيل للسباق، وتستعمل مجازاً فى الطائفة من عظماء الرجال

(٢) مكان كان بطرف البصرة على طريق القادم من البادية يجتمع فيه فصحاء عرب البصرة ويخطبون ويتناشدون وهو الذى خلف عكاظ فى الجاهلية

(٣) أحد ولاة بنى أمية على العراق

(٤) هو عبد الله بن على خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبد الله الى البصرة محتمياً بأخويه اسماعيل وسليمان فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه الاّ بأمان لعبد الله يمليان شروطه فقبل ذلك المنصور فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أمانا يتصعب فى شروطه فكان مما كتب (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبدالله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون فى حل من بيعته) فاشتدّ ذلك عليه وخاصة أمر البيعة، وحقدها على ابن المقفع فيقال انه أوعز الى سفيان والى البصرة بقتله خفية. فزاره ابن المقفع يوماً لأمر فقتله وأحرقه وذرّى رماده

أخلاقه و بلاغته

كان نادرة فى الذكاء، غايةً فى جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس، متأدبًا متعففًا قليلَ الاختلاط الاَّ بمن على شاكلته، كثيرَ الوفاء لأصحابه

وكان أمّةً فى البلاغة ورَصانة القول وشرَف المعانى الى بيانِ غرضٍ، وسُهولة لفظٍ، ورَشاقةِ أسلوبٍ. ولا توصَفُ بلاغته بأحسنَ مما وصف هو البلاغةَ حيثُ يقول (البلاغة هى التى اذا سمعها الجاهلُ ظن أنه يحسنُ مثلَها) وكان يرى أن التتبعَ لِوحشىّ الكلام طمعاً فى نيل البلاغة هو العِىُّ الأكبرُ. وينصَحُ للكتّاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السَّفِلَة. وقد ذاعت طريقةُ ابن المقفع وعبدِ الحميد فى توخى السهولة وسلامةِ التعبير مع العناية باجادة المعنى بين الكتاب من أهل زمانهما ومَن بعدَهما؛ وانما صعبت عبارةُ ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ونحوهما لأنه ساقها مساقَ الفلسفة، ويغلب على أساليبه فيهما القياسُ المنطقىُّ وتصوراتُ الفلاسفة الدقيقة التى قلما تظهرُ للقارئ الاّ بعد الكد

وقد ترجم ابنُ المقفع كتبًا عِدَّةً من الفارسية الى العربية من أشهرها كتابُ كليلةَ ودِمْنةَ[1]

وله فى الأدب كتابُ الأدب الصغير والأدبُ الكبير وكتابُ الدرّة اليتيمة وهى لا تزال مكنونة فى طىّ الخفاء وانما طبع الأدب الكبير معنونًا باسمها خطأً ثم طبع فى مصر مسمى باسمه الحقيق؛ وهاك نموذجًا من قصار رسائله

(١) المشهور أن ابن المقفع ترجم هذا الكتاب من الترجمة الفارسية الفهلوية عن الهندية ويرى بعض أهل الأدب من المتقدمين وكثير من أدباء الافرنج المستعربين أنه من وضعه وانه نحله الهند القدماء لترغيب قراء زمانه فى مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها الا اذا اسندت الى القدماء ونحن نتابع اصحاب هذا الرأى ولنا ولهم فى ذلك أدلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها

قال فى السلامة

(أما بعد) فقد أتانى كتابُك فيما أخبرتَنا عنه من صلاحك وصلاح مَن قِبَلَك. وفى الذى ذكرتَ من ذلك نعمةٌ مجلّلةٌ عظيمة يُحْمَدُ عليها وليُّها المنعمُ المتفضلُ المحمود. ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدُها وتأديةُ حقها

وسألتَ أن أكتبَ اليك بخبرنا، ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حالٍ لو أطنبتُ فى ذكرها لم يكن فى ذلك احصاءٌ للنعمة. ولا اعترافٌ بِكُنهِ الحق. فنرغب للذى تزدادُ نِعَمُهُ علينا فى كل يوم وليلة تظاهراً ألاّ يجعلَ شكرَنا منقوصاً ولا مَدخولاً[1]. وأن يرزقَنا من كل نعمة كِفاءها[2] من المعرفة بفضله فيها والعملِ فى أداء حقِّها انه ولىٌّ قدير

وعزّى بعضهم فقال:

(أما بعد) فان أمرَ الآخرة والدنيا بيد الله هو يُدبّرهما ويقضى فيهما ما يشاء. لا رادَّ لقضائه، ولا مُعَقِّبَ لحكمه؛ فان الله خالق الخلقَ بقدرته، ثم كتب عليهم الموتَ بعد الحياة لئلاّ يطمعَ أحدٌ من خلقه فى خُلْد الدنيا، ووقّت لكل شىء ميقاتَ أجلٍ لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون؛ فليس أحد من خلقه الاّ وهو مستيقن بالموت، لا يرجو أن يخلصَه من ذلك أحد. نسأل الله تعالى خيرَ المنقلَب. وبلغنى وفاة فلان فكانت وفاتُه من المصائب العظام التى يُحْتَسَبُ ثوابها من ربنا الذى اليه منقلبُنا ومَعادُنا وعليه ثوابُنا

فعليك بتقوى الله والصَّبرِ وحسنِ الظنِ بالله؛ فانّه جعل لأهل الصبر صلواتٍ منهُ ورحمةً وجعلهم من المهتدين

---

(١) أى دخله شىء من الرياء ونحوه

(٢) أى جزاءها

ابرهيم الصُّولى

هو أبو اسحق ابرهيم بن العباس بن محمد بن صُول[1] كاتب العراق وأشعر أصحاب المقطَّعات. نشأ ببغداد فى بيت كتابة وبلاغة، فتلقى العلم والأدب عن أهله وأئمة زمانه، واشتغل بالشعر فى حَدَاثته، فبرع فيه، وتكسّبَ به. ورحل الى العُمَّال والأُمراء يمدحُهم ويستميح جَدْواهم. ثم قصد الفضلَ بن سهل وزيرَ المأمون أيام مُقامه معه بخراسان[2] ومدحه ومدح على بن موسى الرضى العلَوى الذى جعله المأمون بمساعى الفضل ولىّ عهده، فوهب له علىّ عشرة آلاف درهم. وجعله الفضل كاتباً لأحد قواده. وبعد أن قُتل الفضل وُشِىَ به الى المأمون فوَجَد عليه، ثم عفا عنه

وبقى يتنقل فى أعمال النواحى والدواوين حتى كان زمنَ الواثق عاملاً على الأهواز[3] فتحامل عليه وزيرُه ابنُ الزيات (وكان قبلُ صديقاً له) فعزله وسجنه بها. فكتب اليه كتباً بليغةً وقصائدَ كثيرة يستعطفه بها، فلم يزددْ بذلك الاّ جَفاء وغلظةً، ثم اطّلع الواثق على ذلك فأطلقه. وتولى ديوان الضِّياع والنفقات فى خلافة المتوكل. وكانت بلاغتُه وظَرفه يستُران ضَعفَه فى عمله لقلّة بضاعته فى الحساب. ولم يَعُقْه عن تقلد الوزارة الاّ اشتهارُهُ بالخلاعة ومات بِسُرَّ من رأى سنة ٢٤٢ هـ. وعمرُه سبعون سنة، وكان ابرهيم أحدَ كتّاب الدنيا فى زمانه ويُلقّبُ بكاتب العراق.

وكانت معانيه التى يستخدمها فى كتابته كلُّها مبتكرة. وباعتماده على نفسه واختراعه للمعانى صار كلامه قدوة لغيره، حتى ضارع الأمثال فى الشهرة نثراً ونظماً. وهو أحد الذين راعَوْا الازدواج فى فقرات الكتابة، فاقتدى بهم غيرُهم، وأحدُ الذين اشتهروا فى التعازى

---

(١) كان صول هذا وأخوه فيروز ملكى جرجان وهما من الترك تمجسا وتشبها بالفرس ثم أسلما على يد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة فاتح جرجان زمن بنى أمية، فلما قتل يزيد دخل ابنا صول محمد وسعيد فى الدعوة العباسية وتعلم أولاد سعيد الكتابة

(٢) أقام المأمون بخراسان مدة ولايته عليها زمن الأمين كله ومدة محاربته له ثم بعد قتله وأول الخلافة اليه بقى بها حتى خلعه أهل بغداد وولوا ابرهيم بن المهدى خليفة فرجع الى بغداد وفر ابرهيم (٣) اقليم شرقى البصرة

ومن رسائله تعزية عن لسان المنتصر بالله الى طاهر بن عبدالله مولى أمير المؤمنين

(أما بعد) تولى الله توفيقك وحياطتَكَ . وما يرتضيه منك ويرضاه عنك . إن أفضلَ النِّعَم نعمةٌ تُلُقِّيتْ بحق الله فيها من الشكر . وأوفرَ حادثة ثوابًا حادثةٌ أُدِّيَ حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر . ومثلُك من قدَّمَ ما يجبُ لله عليهِ فى نعمَةٍ فشكرَها ، وفى مصيبةٍ فأطاعه فيها . وقد قضى اللهُ سبحانه وتعالى فى محمد بن اسحق مولى أمير المؤمنين (عفا الله عنه) قضاءه السابقَ والموقَّعَ . وفى ثواب الله ورضا أمير المؤمنين (أدام الله عزه) وتقديم ما يُقدِّمُ مثلَه أهلُ الحجا والفهم ما أعتاضه معتاضٌ ، وقدَّمه موفَّقٌ . فليكنِ اللهُ (عزّ وجل) وما أطعتَه به وقدّمتَ حقَّه فيه أولى بك فى الأمور كلها ؛ فانك إن تتقربْ اليهِ فى المكروه بطاعته يُحْسِنْ وِلايَتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك

ومن رسائله القصار ما كتب به فى الشفاعة الى أحد اخوانه وهى

(فلانٌ ممن يزكو شكرُه ، ويحسُن ذكرُه ، ويُعنَى بأمره ، والصنيعةُ عنده واقعةٌ موقعَها ، وسالكةٌ طريقَها

وأفضلُ ما يأتيه ذو الدين والحجا . اصابةُ شُكرٍ لم يضع معــه أجرُ

ومنها على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه . وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش

(أما بعد فان أميرَ المؤمنين يَرَى من حق الله عليه مماً قوّم به من أوَدٍ ، وعدّل به من زَيْغ ، ولمَّ به من مُنْتَشِر ، استعمالَ ثلاثٍ يُقَدِّمُ بعضَهن على بعضٍ ، أولاهن ما يتقدَّمُ به من تنبيه وتوقيفٍ ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرُها

أناةٌ فان لم تُغن عقّب بعدهـــا وعيداً فإن لم يُغنِ أغنتْ عزائمُه

ابن العميد

هو الأستاذُ الرئيسُ الوزيرُ أبو الفضل محمدُ بنُ الحسينِ العميدِ ، كاتبُ المشرق ، وعمادُ ملك آل بُوَيْهِ وصدرُ وزرائهم

وهو فارسى الأصل من أهل مدينة (قُمّ)[1] كان أبوه كاتبًا مترسلاً بليغًا من كبار كتاب الدولة السامانية[2] فنشأ ابنُه شغوفًا بمعرفة العلوم العقلية واللسانية فبرَع فى علوم الحكمة والنجوم ونبغ فى الأدب والكتابة حتى قيل فيه . (بُدئت الكتابة بعبد الحميد وخُتمتْ بابنِ العميد) ثم رحل عن أبيه الى آل بوَيْه وتقلد شريف الأعمال فى دولتهم الى أن تولى وزارةَ ركن الدولة[1] سنة ٣٢٨ فساس دولتَه ووطد أركانها وتشبه بالبرامكة ففتح بابَه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء ، وكان يشاركُهم

---

(١) بلد بفارس

(٢) هى من الدول التى استقلت فى أواسط الدولة العباسية استقلالاً داخليا وكانت تملك أواسط آسيا ومقرها بخارى وما وراء النهر وهم من سلالة الاكاسرة

أمراء الدولة السامانية

اسمعيل بن احمد السامانى	(٢٨٧ — ٢٩٥)	منصور بن نوح	(٣٥٠ — ٣٦٥)
احمد بن اسمعيل	(٢٩٥ — ٣٠٠)	نوح بن منصور	(٣٦٥ — ٣٨٧)
نصر بن احمد	(٣٠٠ — ٣٣٠)	منصور بن نوح	(٣٨٧ — ٣٨٩)
نوح بن نصر	(٣٣٠ — ٣٤٣)	عبد الملك بن نوح	ثمانية اشهر
عبد الملك بن نوح	(٣٤٣ — ٣٥٠)		

بقية خلفاء العباسيين

عبد الله المستكفى بالله	(٣٣٣ — ٣٣٤)	المنصور الراشد	(٥٢٩ — ٥٣٠)
القاسم المطيع لله	(٣٣٤ — ٣٦٣)	محمد المقتفى لأمر الله	(٥٣٠ — ٥٥٥)
أبو بكر الطائع لله	(٣٦٣ — ٣٨١)	يوسف المستنجد بالله	(٥٥٥ — ٥٦٦)
احمد القادر بالله	(٣٨١ — ٤٢٢)	حسن المستضىء بأمر الله	(٥٦٦ — ٥٧٥)
عبد الله القائم بأمر الله	(٤٢٢ — ٤٦٧)	احمد الناصر لدين الله	(٥٧٥ — ٦٢٢)
عبدالله المقتدى بأمر الله	(٤٦٧ — ٤٨٧)	محمد الظاهر بأمر الله	(٦٢٢ — ٦٢٣)
احمد المستظهر بالله	(٤٨٧ — ٥١٢)	منصور المستنصر بالله	(٦٢٣ — ٦٤٠)
فضل المسترشد بالله	(٥١٢ — ٥٢٩)	عبد الله المستعصم بالله	(٦٤٠ — ٦٥٦)

(٣) ركن الدولة هو أبو على الحسن بن بويه والد عضد الدولة المشهور

الصاحب بن عبَّاد

هو كافى الكُفاة أبو القاسم اسمعيل الصاحبُ بنُ عبَّاد وزيرُ آل بُويه وكاتبهم وأحدُ المُذيعين للسجع والجناس

ولد سنة ٣٢٦ هـ بطالقَان قَزْوين. وكان أبوه من خيرة كُتَّاب دولة بنى بُويه ووزرائهم. تعلَّمَ العلمَ والأدبَ والكتابةَ من أبيه، ثم اتصل بابن العَميد، فلزِمَ صُحْبتَه وأخذ عنه الأدبَ، وتولَّى له كتابة خاصَّته. ثم تنقلت به الأحوال فى خدمة ملوك بنى بُويه، فكان وزيراً لمؤيِّد الدَّولة، ثم لأخيه فخر الدولة، وله فى ملكهما اليدُ المطلقةُ والأمرُ النافذُ حتى مات سنة ٣٨٥هـ. وكان مجلسه على تيهِه وعُجْبه بنفسه آخرَ مجاس لوزير جمعَ بين العُلماء والقرّاء والكتّاب والمصنّفين والمتكلمين والشيعة. ولهم منه حظ موفور، وله منهم لسان شكور

ويُعَدّ ابن عباد فى الكتابة ثانىَ ابن العميد فى حَلْبته وأبلغَ من سلك طريقته، غير أنه أُولِعَ بالسجع والجناس، ولا يعرف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما ولاحلّ من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما

وهو فى العلم من كبار المصنِّفين. ومن أعظم مصنَّفاته الكثيرة كتابُه (المحيطُ) فى اللغة فى سبع مجلَّدات أو عشر

ومن رسائله ما كتب به الى بعض السادة وقد أهدى الى ابن عبَّاد مُصْحفاً

البرُّ «أدام الله الشيخ» أنواعٌ، تَطُولُ به أبواعٌ[1] وتقصر عنه أبواعٌ، فان يكنْ فيها ما هو أكرمُ منصبًا، وأشرف منسبًا، فتحفةُ الشيخ، إذ أهدى ما لا تُشا كلهُ النِّعَم، ولا تعادله القِيَمُ،: كتابَ الله وبيانَه، وكلامَهُ وفُرقانَهُ، ووحيَهُ وتنزيلَهُ، وهداه وسبيلَهُ، ومعجزَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليلَهُ، طبَع[2] دون معارضة على الشفاه. وختم على الخواطر والأفواه، فقصر عنه الثَّقلان، وبقِىَ ما بقِىَ المَلَوَان، لائحٌ سراجُه، واضحٌ منهاجُه، منيرٌ دليلهُ، عميقٌ تأويلهُ، يقصِمُ كلَّ شيطانٍ مَريد،

(١) جمع باع (٢) ختم بالطابع أى لا يعارض

فى كل ما يعلمون الاَّ الفقه، وما زال فى وزارته مَحَطَّ الرِّحال، وكعبةَ الآمال، حتى توفى سنة ٣٦٠ هـ

وكان ابن العميد أوّل من فتح باب الولوع بالرسائل البديعيّة، متوخيًا فيها السجع القصير الفقرات، مقتبساً من القرآن الكريم بعض الآيات، ومن السُّنَّة بعض الأحاديث المأثورة مشيراً الى الحوادث المشهورة، ناثراً فيها الأبيات الحكمية، مؤثراً بعض الحلية اللفظية: كالجناس والمطابقة، مضمناً الأمثال السائرة. وحاكاه فى طريقته هذه فحول معاصريه فأصبح عميد رفقتهم وضليع حلبتهم وكلهم كارع من حياضه قاطف من رياضه، ان لم يكن بالاقتباس منه فبالمشاكهة له وان كان هو أقلهم التزاماً للمسجوع، وأقربهم الى المطبوع

ومن رسائله الى عبد الله الطبرى

كتابى اليك وأنا بحال لو لم يُنَغِّصها الشوق اليك، ولم يُرَنِّق[1] صفوَها النزوعُ نحوك، لعددتها من الأحوال الجميلة. وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة. فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة. ونعمة تامة؛ وحظيت منها فى جسمى بصلاح، وفى سعيى بنجاح. لكن ما بقِى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك، ويخلو ذرعى[2] مع خلوّى منك، ويسوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادىَ دونك، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى، وناظم لشمل أنسى، وقد حُرِمت رؤيتك، وعدمت مشاهدتك. وهل تسكن نفس متشعبة ذاتُ انقسام[3] وينفع أنسُ بيتٍ بلا نظام[4]. وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سروراً بملاحظة خطك، وتأمل تصرفك فى لفظك. وما أقرظهما؛ فكل خصالك مقرظ عندى، وما أمدحهما فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعقْدى[5] وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك، فان كان كذلك[6] والاَّ فقد غطى هواك وما ألقى على بصرى

(١) يكدر (٢) الذرْع: الخلق — أى لا يتسع خلقى وصدرى مع خلوى منك (٣) أى شطرها عندى وشطرها عندك (٤) أى انك انت نظامه وقد غبت عنه ففاته النظام (٥) أى اعتقادى (٦) أى فهو ما أرجوه — وكثيراً ما يحذفون الجواب فى مثل هذا المقام

ويذلُّ كلَّ جبار عنيد ، وفضائلُ القرآن، لا تُحصى فى ألف قرآن، [1] فأصِفُ الخط الذى بهر الطرْفَ ، وفاق الوصفَ ، وجمع صحةَ الأقسام [2] ، وزاد فى نَخْوةِ الأقلام بل أصفه بترك الوصف فأخباره آثاره ، وعينهُ فُراره ، وحقًّا أقولُ انى لا أحسَبُ أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعتَ ، وابتدع فى استكتابها ما ابتدعت، وان هذا المصحف لزائد عن جميعهـا زيادةَ الفرْع على الغُرَّة ، بل زيادةَ الحج على العُمرة .

أبو بكر الخوارزمى

هو أبو بكر محمدُ بنُ العباس الخوَارزْمىّ الكاتب الشاعر اللغوى الأديب الرحّالة، فخرُ خُوارزْم وصاحب الرسائل المشهورة

وُلد بخوارزم [3] سنة ٣٢٣ ﻫ ونشأ بها . وكان ضليعاً فى كل فن من فنون العربية وخاصة الكتابةَ والشعر، جاب الأقطار، ودخل الأمصار، من الشام الى أقصى خراسان فى استفادة العلم والأدب وافادتهما : وكان كثيرَ الحفظ للشعر غزير المادّة من اللغة . قيل إنه قصد حضرة الصاحب بن عبَّاد وهو بأرَّجان فلما وصل الى بابه قال

---

(١) القرءان الثانية بمعنى الجمع أى ان فضائله لا تحصى فى الف كتاب جامع

(٢) أى الاجزاء أى نسبة اجزاء الحروف

(٣) اقليم على بحر خوارزم المسمى الآن بحيرة أورال . وما رواه ياقوت عن بعض متأخرى أدبائها وعن مستعجمى اهلها من انهم ينطقونها بضم الخاء ضمة مختلسة الى الفتحة وانه لا تحقيق للواو ولا للألف أى انه ينطق بهما كحرف (O) الفرنسى عدول عن التعريب الصحيح المطابق لقواعد النطق العربى، ولذلك لم يقع فى شعر فصحاء الأدباء، من امثال الصاحب بن عباد فى قوله :

اقول لركب من خراسان قافل   أمات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره   ألا لعن الرحمن من كفر النعم

فلو نطقت فى هذا الشعر كما ينطقها مستعجمو اهلها لاختل الوزن . والذى يدل على ان تحقيق الواو والألف هو اصل العربية ما رواه ياقوت نفسه عن شاعر عربى من بنى أسد فى ابيات :

وخافت من جبال السغد نفسى   وخافت من جبال خوارزَم

لجرى الشاعر على انها مركبة من كلمتين خوار بمعنى (لحم) ورَزم بمعنى (حطب) فى قصة مروية عن قدماء اهلها فافهم ذلك وارفض كل تعريب لا يطابق الهجاء العربى

لأحد حجابه قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول ، فدخل الحاجب وأعلمه، فقال الصاحب قل له قد ألزمت نفسى ألَّا يدخل علىَّ من الأدباء الَّا من يحفظ عشرين الف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك، فقال له أبو بكر ارجع اليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم شعر النساء فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب هذا يكون أبا بكر الخوارزمى، فأذن له فى الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له

وتقلب الخوارزمى فى خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، فى الدول المتفرعة عن الخلافة ، وجُلّهم يومئذٍ من الشِّيعة ، فاصطبغ بصبغة التشيُّع أيضاً ، حتى ألقى عصا التسيار بمدينة نَيْسَابور [1] وطاب عيشهُ بها الى أن مُنِىَ فى آخر أيامه بمساجلة بديع الزمان الهَمَذَانى ومناظرته ومناضلته ، وأعانه عليه قوم من أعيان البَلْدة ووجوهها . فانخذل انخذالاً شديداً ، وكسَفَ بالُه . ولم يَحُلْ عليه الحولُ حتى مات سنة ٣٨٣ ﻫ

وكان الخوارزمىُّ ممن يجْرى على طريقة ابن العميد فى الكتابة متوخِّيًا جزالةَ الألفاظ ، محتفلاً بصحة المعانى مع مَيْلٍ فيه الى الغريب

ومن قصار رسائله ما كتبه الى تلميذ له

ان كنتَ (أعزَّكَ الله) لا ترانا موضِعًا للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزارة ، وان كنتَ تعتقدُ أنك قد استوفيتَ ما كان لدينا؛ فسقط حقُّنا عنك وبَقِىَ حقُّك علينا ، فقد يزورُ الصحيحُ الطبيبَ بعد خروجه من دائه ، واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتاز الرعيةُ على باب الأمير المعزول ، فتتجمَّلُ له ، ولا تعيِّره عزلَه. ولو لَمْ تَزُرْنا الاَّ لتُرِيَنا رُجحانك ، كما طالما رأينا نُقْصانك ، لكان ذلك فعلاً صائبًا ، وفى القياس واجبًا

---

(١) كانت مدينة شهيرة من مدن خراسان دمرها التتار عند اجتياحهم الممالك الاسلامية فخربت ولم تعمر بعد

بديع الزمان الهمذانى

هو أبو الفضل أحمدُ بن الحسن الكاتب المترسل والشاعر المُبْدِع ؛ حافظُ عصره، وأذكى دهره ، وقدوة الحريرى فى انشاء المقامات ، وقَرِيعُ الخوارزمى فى المبادَهات والمكاتبات

نشأ بهمَذان[١] ، ودَرَس العربيــةَ والأدبَ ونبغ فيهما ، وضرب فى الأرض يتكسَّب بأدبه ثم أقام بنيسابور مدّة أملى بها أربعمائة مَقامةٍ[٢] بلفظٍ رشيق ، وسجعٍ رقيق ؛ وعلى منوالها نسَجَ الحريرىُّ . ثم شجَرَ بينَه وبين الخُوارزمى ما كان سبباً فى هبوب ريحه وبُعْد صِيته ؛ إذ لم يكن فى الحُسْبان أن أحداً يجترئُ على الخوارزمى

وبموت الخوارزمى خلا له الجوُّ عند الملوك والأمراء ، فتجوَّل فى حواضرهم ، ثم استوطن هَرَاةَ[٣] وصاهر أحد أعيانها العلماء، فحسنت حاله ، ونعِم باله ، ولكن المَنيَّة عاجلتهُ وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ هـ

وكان البديعُ أسرَعَ أهل زمانه بديهةً . واكثرُ كتابته وشعره مرتَجَل . وكانت عبارته لينةً سهلةً قصيرةَ السجع، تشهدُ بأن صاحبَها لم يكدَحْ فيها خاطرَه . ولم يتعمَّلْ فى صَنعتها . وكان لحدَّة ذِهنه ، وغزارةِ مادَّته ، وتمكّنه من صناعتــه ، تلقى عليه القصيدةُ الفارسيةُ فيترجمُها فى الحال الى العربية شعراً ، ويقترحُ عليه الكِتابُ فيبتدئُ بآخر سطوره وينتهى بأوّله ويُخرِجه كأحسن ما يكون

ومن كتابته :

يعز علىَّ (أيّدَاللهُ الشيخَ) أن ينوبَ فى خدمته قَلَمى ، عن قدمى ، ويسعَدَ برؤيته رسولى، قبلَ وُصولى ، ويَرِدَ مَشرَعَ الأُنس به كتابى ، قبلَ رِكابى ، ولكن ما الحيلةُ والعوائق جَمَّة

وعلىَّ أنْ أسعى وليـــس علىَّ إدراكُ النجاح

وقد حضرتُ دارهُ ، وقبَّلتُ جدارَه ، وما بى حبٌّ للحيطان ، ولكن شغفٌ بالقُطَّان ، ولا عشقٌ للجُدران ، ولكن شوقٌ الى السُّكان

(١) مدينة شمالىّ فارس (٢) اطلقت المقامة فى ذلك العصر على كل قصة خيالية انشئت بعبارة مسجوعة غالبا محلاة بأنواع البديع مشتملة على كثير من الغريب

(٣) هى مدينة عظيمة ببلاد الافغان قيل ان الاسكندر المقدونى هو الذى بناها

ابنُ زيدون

هو الكاتبُ الشاعرُ ذو الوزارتين أبو الوَليدِ أحمدُ بنُ عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومى الأندلسىّ. نشأ فى مدينة قُرْطُبة[١] وكان من أعيان فقهائها ، وتأدّب على كبار أئمتها ، وقال الشعر وأجاده ، وحفِظ من مشهور شعر القدماء والمُحْدَثين ما جرى مَجْرَى الأمثال ، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحِكَمها شيئًا كثيراً

ولما نبُه شأنُه بين شعراء قُرطُبةَ وكُتَّابها وأدبائها ، اتصل بأبى الوليد بن جَهْوَر أحدِ ملوك الطوائف ، فحظِىَ عنده ، ومدحه (ابنُ زيدون) بالقصائد الطنَّانة ، وصدرت عنه فى دولته الرسائلُ البديعةُ حتى أصبحَ لسانَ دولتِه الناطقَ ، وحسامَها المسلولَ . فأفسد أعداؤُه ما بينه وبين ابن جَهْوَر ، وأحسَّ منه بدالَّة عليه ظنَّها ممالأةً لأعدائه فاعتقله . ومكث فى مَحْبِسه مدةً استشفع فيها اليه بقصائدَ أبدَعها ، ورسائلَ استنفدَ فيها جُهدَه ، فما ألانتْ له قلبًا، ولا ثَنَتْ له عِطفًا . فأعملَ الحيلةَ فى فِراره من سجنه ، وخلَص الى المُعتَضِد بن عبَّادٍ ملِك إشْبِيلِيَةَ[٢] اذ كان أشدَّ ملوك الطوائف رغبةً فيه، وأكثرهم تمسكاً بالأدباء، كما كان أبسطَهم رُقعةَ مُلْكٍ، فألقى اليه مقاليدَ وِزارته، وأصبح صاحبَ أمره ونَهْيِه ، وشريكَه فى مجلس جِدّه وأُنسه

ولما مات المعتضدُ وخلَفَه ابنُه المعتمِدُ ، كان له كما كان أبوه وأغدق عليه برَّه ونعمَه

ومكث ابنُ زيدون على هذه الحال حتى مات باشبيلية سنة ٤٦٣ هـ

ولما كان ابنُ زيدون منذُ نشأتِه مطبوعًا على الشعر غلبتْ ملَكَتُه عليه فى كتابته اذ كانت مجموعةَ أبياتٍ منثورة ، وتلميحاتٍ الى حوادث مشهورة وأمثالٍ وحِكَمٍ فى فِقارٍ غير مسجوعة غالبًا ، سالِكاً فيها طريقَ التهويل والمُبالغة فى فُروضه وأقيسته وتشبيهاته . وجرى على ذلك فى رسالتَيْه : الجِدِّية التى استعطفَ بها ابنَ جَهْور ،

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير بالاندلس . وكانت قاعدة الدولة الاموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم

(٢) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير ايضاً بالغرب الجنوبى من الاندلس ولا تزال الى الان من اعمر مدنها

والهزلية التى كتبها على لسان ولّادة بنت المستكفى يتهكم فيها بالوزير أبى عامر ابن عَبْدوس

وقد شرحهما الأدباء وعُنُوا بتفصيل ما فيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء ، وأشهر تلك الشروح شرحُ ابن نُباته للهزلية والصَّفَدى للجدّية . ولولا جمعُ هاتين الرسالتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسختْ شهرتُه بالكتابة عند المتأخرين شهرتَه بالشعر عنـد المتقدِّمين حتى كان يلقب عندهم بُحْتُرِىّ المغرب . ولا يقدح ذلك فى بلاغته ، وفصاحة عبارته ، فمقام الرجل فى سَعَة اطلاعه وسرعةِ خاطره أشهرُ من أن ينوَّه به؛ فقد قيل انه دفن بنتًا له ، ووقف ليشكر الناس لتشييع جنازتها فما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، وتلك غاية لا تُدرَك فى القدرة على صناعة الكلام

ومن فصوله فى الرسالة الجدّية

هذا العَتْبُ محمود عواقبُه ، وهذه النَّبْوة (١) غَمْرةٌ (٢) ثم تنجلى ، وسحابةُ صيفٍ عن قليل تَقَشَّع (٣) ، ولن يُرِيبَنى (٤) من سيدى أن أبطأ سَيْبُه (٥) ، أو تأخر (غيرَ ضنين) غَناؤه (٦) ، فأبطأُ الدِّلاء (٧) فَيْضًا أملؤها ، وأثقل السحاب مشيًا أحفلها (٨) ، وأنفعُ الحيا (٩) ما صادف جَدْبًا ، وألذُّ الشرابِ ما أصابَ غليلًا (١٠) ، ومع اليوم غدٌ ، ولكل أجل كتابٌ ، له الحمد على اهتباله (١١) ، ولا عَتْبَ عليه فى اغتفاله (١٢)

فان يكن الفعلُ الذى ساء واحداً فأفعاله اللائى سَرَرْن أُلوفُ (١٣)

(١) الجفوة (٢) اصلها من غمرة الماء تستعمل فى كل كربة تعترى المرء
(٣) تزول (٤) يوقعنى فى الريب وسوء الظن
(٥) عطاؤه وعرفه والمراد به هنا الرضا والعفو (٦) نفعه ومعروفه
(٧) جمع دلو (٨) املؤها (٩) المطر (١٠) شدة عطش
(١١) الاهتبال الاغتنام — اى على اغتنامى منه نعمته السابقة
(١٢) اى اهماله لى (١٣) البيت للمتنبى وواحداً خبر يكن

القاضى الفاضل

هو أبو على عبد الرحيم البَيْسانى (١) اللَّخْمى (٢) ، كاتب الديار المصرية ، وصاحبُ الطريقة الفاضلية ، والكتابةِ البديعية . وُلِدَ بمدينة عَسْقَلان (٣) سنة ٥٢٩ وتعلَّمَ على أبيه (٤) وغيره . ولما شدا من العربيةَ شيئًا قدِمَ مصرَ وهو شابٌّ أواخرَ الدولة الفاطمية لتعلُّم الكتابة والخدمة فى الديوان . وتوجَّهَ الى ثغر الاسكندرية ، وتعلَّمَ فى ديوان ابن حديد قاضيها وكاتبها، وظهر فضله فيما كان يرسله الى القاهرة من الرسائل، فاستُقْدِمَ أيامَ الظافر اليها ، وكان من كُتَّاب ديوانه ، ولازم خدمةَ أكابرِ القضاة والكُتَّاب فى الديوان ، وأخذ عنهم ، وحاكاهم

ولما سقطتِ الدولةُ الفاطميةُ تولَّى وزارةَ صلاح الدين بن أيوب ، وكان يتردَّد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية، ودبَّر المملكةَ أحسنَ تدبير . وبقِىَ فى الوزارة حتى مات صلاح الدين فوَزَر لابنه العزيز على مصر . ثم وَزَر من بعده لأخيه ، ومات سنة ٥٩٦ هـ

وكان خيّرًا ، دَيِّنًا ، مُحْسِنًا ، وَفِيًّا ، مُغرَمًا بجمع الكتب . وبلغ عددُ ما جمعه من أقطار الأرض منها نحو مائة ألف مجلد . ومهرَ القاضى الفاضل فى الكتابة، وطوَّح به استقلالُه فيها الى توليد طريقة غريبة أخذ أصولها عن بعض كُتَّاب الشام والعراق ومصر فجعل أصولها السجع والاستعارة والطِّباقَ ومراعاةَ النظير والتلميح ، وغالى جدًّا فى التوريةِ والجناس فأصبحت الكتابةُ بهـذه الطريقة صناعيةً محضة تجرى مع مناسبات الألفاظ أكثرَ من جرَيانها مع اصابة الغرض والبلاغة . وكانت كتابة القاضى الفاضل مع كل هذه القيود بليغةً فى ذاتها لسَعةِ اطلاعه وغزارةِ مادّته ، وسرعة بديهته ، وصفاء خاطره ؛ الا أن طريقتَه خدَعت بعدَه كُتَّابَ مصرَ والشام، وغرَّبَتْ الى الأندلُس ؛ فتكلف الجرىَ عليها كلُّ قليلِ البضاعة من الأدب مُعْتمِدًا

(١) نسبة الى بلدة بفلسطين (٢) نسبة الى قبيلة لخم اليمانية
(٣) بلدة على ساحل فلسطين شمالى غزة وهى خربة الان
(٤) هو قاضى عسقلان بهاء الدين على البيسانى

على تعمل البديع الذى لا يكلّفُ صاحبَه اكثرَ من معرفة خمسين أو ستين نوعًا منهُ . فظهرت سيئاتُ هذه الطريقة فى العصور التى تلت عصرَه

ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عَيْذَاب[1] الى صلاح الدين يتشفع له فى توليته خَطابة الكَرَك وهى :

أدام اللهُ السلطان الملكَ الناصرَ وثبَّته ، وتقبَّلَ عملَه بقبولِ صالح وأثبته ، وأخذ عدوَّه قائلاً أو بيته ، وأرغم أنفه بسيفه وكبَته

خدمةُ[2] المملوك هذه واردةٌ على يدِ خطيب عَيْذَاب . ولما نبا به المنزلُ عنها ، وقلَّ عليه المرفقُ منها ، وسمع هذه الفتوحاتِ التى طبَّق الأرضَ ذكرُها ، ووجب على أهلها شكرُها – هاجر من هجيرِ عَيْذَاب وملحها ، سارِيًا فى ليلة أملٍ كلُّها نهارٌ فلا يَسأَلُ عن صبحها . وقد رغِب فى خَطابة الكَرَك[3] وهو خطيبٌ ، وتوسل بالمملوك فى هذا الملتمَس وهو قريب ، ونَزَع من مصر الى الشام وعن عَيذاب الى الكَرَك وهذا عجيب . والفقر سائق عنيف . والمذكور عائل ضعيف . ولُطْف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام

التدوين والتصنيف

كانت الحاجة الى التدوين قد اشتدَّت فى مبدإ الدولة العباسية لاتّساع ممالك الاسلام ، ولدخول كثير من الأُمم المُتَحضِّرة فيه ، ولتعدُّد الوقائع والحوادث التى لم يكن لها نظيرٌ فيما سبق من السنة . فهبَّ العلماء الى تهذيب ما كتب فى الصُّحُفِ المتفرِّقة ، وما حفظوه فى الصدور ؛ ورتبوه وبوَّبوهُ وصنفوه كُتُبًا . وكان من أقوى الأسباب لاقبال العلماء على التصنيف حثُّ الخليفةِ أبى جعفر المنصور عليه ، وحملُهُ الأئمةَ والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، وبذلُه فى سبيل ذلك الأموالَ الجزيلةَ . ولم يقتصر على مُعاضدة العلوم الاسلامية ، بل أوعزَ الى العلماء والمترجمين من السُّريان

(١) بلدة على شاطئ البحر الاحمر كانت فرضة سفن الديار المصرية قديماً وخربت الان وهى جنوبى القصير (٢) اى رسالة فى اصطلاح ذلك العصر

(٣) بلدة وقلعة شرق فلسطين

والفُرس أن ينقلوا الى العربيةِ من الفارسية واليونانيَّة فنونَ الطب والسِّياسةِ والحكمة والفلك والتنجيم والآداب . وتابعه فى ذلك أولادُه وأحفاده ، حتى زخَرتْ بُحورُ العلم واختُرِعَتْ الفنونُ وتفرَّعتِ المسائلُ ، ودُوِّنَت الكتبُ فى كلّ فنّ

وتميّزت بذلك العلومُ فى قسمين عظيمين

(١) العلوم الاسلامية من شرعية ولسانية

(٢) العلوم الكَوْنيَّة المنقولة

ولكل من هذين فى نشأته طريقٌ محدودةٌ ، ورجالٌ معدودة . ويعتبرون أن سنة ١٤٣ هى مبدأُ النهضة العلمية العربية[1]

كتابة التصنيف والتدوين

وكانت كتابة التصنيف والتدوين فى القرن الأول وبعض الثانى من النهضة عبارةً عن سلسلةٍ من الروايات المسندةِ الى رُواتها : من أحاديث نبويةٍ ، أو أقاويلِ صحابةٍ ، أو فتاوَى فقهاء ، أو أشعارِ أعراب ، أو أخبارِ فتُوح ، أو نوادرَ أو غير ذلك وبعضُها يُروى بلفظ أصحابها غالبًا : كما فى الشعر والخطب والرسائلِ ، وبعضُها بلفظ الراوى ، كما فى أخبار الفُتوح والتاريخ والقصص . ثم ظهرت بعـد ذلك فى العلوم الشرعية واللسانيَّة طبقاتُ الاستنباطِ والتعليل والتفريع والشرح والاختصار وجمع الفروع تحت كليّات عامة ؛ فلم يكن للمؤلّفين بدٌّ من حذفِ أسانيد الروايات وتركِ المحافظةِ على نقلها بلفظها الاَّ فى الحديث ونحوه

أما كتب العلوم المترجمةُ فكانت عبارتُها هى تفسيرَ ألفاظها الأعجمية بالعربية . ولم تكن ترجمتُها جيدةً فى عصر المنصور . ثم صُحِّحت ترجمتُها فى زمن الرشيد والمأمون ثم لما أتقنَ كثيرٌ من فلاسفة المسلمين هذه العلومَ كتبوا فيها بعبارتهم . وكانت أولَ

(١) وهى سنة حج فيها المنصور والتقى فى المدينة بمالك بن انس وامره بتأليف كتاب الموطأ فى الفقه والحديث ، وعند رجوعه الى الامصار أوعز بنفسه وبولاته الى العلماء بتدوين الكتب فى كل فن ، وكان اكثرهم يحجم عن التأليف تورعاً وخوفاً من الزلل ومن ان عملهم قد يفضى على طول الزمان الى تحريف الدين وخلطه بآراء الناس

أمرها بليغة مفهومة ثم عمَّوْها على بعض الفقهاء المُكَفِّرينَ لهم والمُغرين الأُمراء والسلاطين بقتلهم ، حتى أصبحتْ عبارةُ كُتُب الفلسفة والتوحيدِ أصعبَ ما يقرَأُ باللسان العربى

العلوم اللسانية ونشأتها

العلوم اللسانية هى الأدبُ ، والتاريخ ، والعروض ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة

الأدب

علم الأدب بالمعنى الذى ذكرناه فى أوَّل الكتاب يمتاز من بقيَّة العلوم الصناعيةِ ذواتِ القواعد كالنحو والبلاغة ومن التاريخ وفروعه، وان كان يتوقف على الإلمام بها . وكانت كتبه فى أوَّل هذا العصر رسائلَ يَبْحَثُ كلٌّ منها فى ضرب خاصٍّ من ضروبه، كرسائل ابن المقفع ورسائلِ سَهْلِ بن[1] هرونَ فى الأخلاق، وكتابِ النَّوادر، وكتاب الأراجيز، وكتاب الشعر للأصمعى، وكتاب الشعر والشعراء لأبى عُبَيدة[2] . واذا تابعنا من يقول إن ابن المقفَّع هو الذى ابتدع كتابَ كليلةَ ودمنةَ ونحلَه الهندَ والفُرْسَ كان هذا الكتابُ أوَّلَ كتاب ظهر فى الأدب العربىّ الخاصّ بموضوعٍ واحد

وأولُ كتاب ظهر فيه جامعٌ لفنون كثيرة منهُ كتابُ البيان والتبيين ، وكتابُ الحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، واقتفى أثره أحمد[3] بن طَيْفُور فى كتابه العظيم المنظومِ والمنثورِ فى أربعة عشرَ جزءاً ، ثم أبو العباس محمد المبرّد[4] فى الكامل

(١) هو احد الكتاب والمؤلفين من ابناء الفرس وكان شعوبيا يتفلسف ويفضل البخل على الجود ، وخدم فى دولة المأمون بالترجمة والتأليف والقيامة على الكتب

(٢) هو معمر بن المثنى احد أئمة العربية وقرين الاصمعى فى المنزلة والتلمذة للخليل . وكان شعوبيا ايضا توفى سنة ٢٠٩

(٣) هو من تلاميذ الجاحظ توفى سنة ٢٨٠ ويوجد من كتابه هذا ثلاثة اجزاء فى دار الكتب السلطانية

(٤) أخذ العلم عن تلاميذ الاصمعى وكان امام البصريين فى زمنه وكتابه الكامل من خيرة كتب الادب المطبوعة وتوفى سنة ٢٨٥

والروضة، ثم أبو حنيفة[1] الدِّينَوَرى، وأبو بكر محمد الصُّولى[2] وابن قُتَيْبَةَ[3] صاحب أدب الكاتب ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبو على القالى[4] صاحب الأمالى ، وأبو[5] الفرج الاصبهانى صاحب الأغانى وغيرهم

ومن أشهر المؤلفين فى الأدب الجاحظ وأحمد بن عبد ربه والحريرى وها هى ترجمتهم :

الجاحظ[6]

هو امام الأدب أبو عثمانَ عَمْرُو الجاحظُ بنُ بَحْرِ بنِ محبوب الكِنانىّ البصرىّ صاحبُ التصانيف المُمْتِعة والرسائل المبدَعة

وُلِد حوالىْ سنة ١٦٠ بمدينة البَصرة ، ونشأ بها ، فتناول كلَّ فن ، ومارس كلَّ علم عُرِف فى زمانه ، مما وُضِعَ فى الاسلام أو نُقِل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركةٌ فى عِلْمِ كلّ ما يقع عليه الحِسُّ أو يخطِر بالبال ؛ فهو راويةٌ ، متكلّمٌ ، فيلسوفٌ ، كاتبٌ ، مصنِّفٌ ، مُتَرَسِّلٌ ، شاعر ، مؤرِّخٌ ، عالمٌ بالحيوان والنبات والموَات ، وصَّافٌ لأحوال الناس ووجوهِ معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحِيَلهم الّا أنه غلَبَ عليه أمران : الكلامُ على طريقة المعتزلة ، فهو بذلك امامُ الطائفة الجاحظيَّةِ من المعتزلة ، والأدبُ الممزوجُ بالفلسفة والفُكاهة ؛ فهو أوَّلُ من ألَّفَ الكتبَ الجامعة لِفنُونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما

وكان غايةً فى الذَّكاء ودِقةِ الحِسّ وحسنِ الفِراسة ؛ الى دُعابةٍ فاشيةٍ ، وقلّةِ

(١) هو أعلم علماء النبات وكتاب النبات له من امهات كتب هذا الفن وله غيره تأليفات كثيرة فى الادب وتوفى سنة ٢٨٢ (٢) من كبار مؤلفى الادب وظرفاء الندمان وألعب اهل زمانه بالشطرنج وتوفى سنة ٣٣٥

(٣) هو ابو محمد عبد الله بن مسلم من كبار كتاب الادب وأئمة اللغة والنحو توفى سنة ٣٢٢ (٤) كان من كبار ادباء المشرق رحل الى خلفاء بنى أمية بالاندلس وحظى عندهم واصله من قالى قلا (قليقيا) بأرمينية توفى سنة ٣٥٦

(٥) هو على بن الحسين من سلالة بنى أمية — وكتابه الاغانى اشهر من ان يذكر توفى سنة ٣٥٦

(٦) يسمى الجاحظ والحدقىّ ايضا لجحوظ حدقتى عينيه وكان دميم الوجه

اعتدادٍ بما يأخذُ به الناسُ أنفسَهم وينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواعِ العصبيَّةِ المذهبية ، وعدمِ مُبالاةٍ بوُقوع المتَورّع عين فيه . وكان سَمْحًا جواداً كثير المُواساةِ لاخوانه . وكان على دَمامة خَلْقه وتناقُضِ خُلُقه خفيفَ الرُّوحِ ، فكِهَ المجلس ، غايةً فى الظَّرْف وطيبِ الفُكاهة وحلاوة الكلام . وهو على الجُملة أحدُ أفذاذ العالَم ، وإحدى حُجَج اللسان العربىّ

فصاحته وكتابته

قرأ الجاحظُ اكثرَ الكتب المعروفةِ فى زمنه اسلاميةً ومنقولةً ، فاستخلَصَ بذكائه العجيب من كلّ ذلك علوماً جَمَّةً فألَّف أشتاتَها على تنافرِها ، ونسَّق ضُروبَها مع تضاربِها ، فتطامَنَ له بلُطفِه شامخُها ، وانقادَ له بحسن رياضته حَرونُها فتهيّأ لمَلَكته منها جملةٌ مُطاوِعةٌ لارادته يستنبطُ منها ما شاء ، ويُصَرّفُها أنّى شاء ، وانتحل لنفسه من طُرُق البلغاء والمصنّفين طريقةً كان أبا عُذرتها وابنَ بَجْدتها[1] وهى طريقته التى تجبب القرَّاء فى المطالعة : بتوخّى التصنيف فى الموضوعات الشهية اللذيذة ، أو التى لم يَسْبق اليها كاتبٌ ، أو الأمورِ الحقيرة التى لا يخطُر على البال أن يُؤلَّف فيها كلامٌ ، مع سُهولةِ عبارةٍ وجزالةِ لفظٍ وإطنابٍ غير مُملّ : باستعمال كثير من مُترادِفِ الألفاظ والجمل العَذْبة ، واستطرادٍ مُروِّحٍ على النفس : بايراد طريف الأخبار والنوادر ، ومزجٍ للجد بالهزل ، واستقصاء وتَغَلْغُلٍ فى وصف ما يُعنى بشرحه أو الاحتجاج له ، وتَلَطُّفٍ لتعظيم الصغيرِ حتى يعظُم وتصغير العظيم حتى يصغر

وأقام الجاحظُ اكثرَ عُمره بالبَصرة يعيش معيشةَ الأدباء والعلماء محبوبًا لوُلاتها وأعيانها محبُوًّا منهم بالعطايا والمِنَح بما يصنّفه لهم من الكتب المتفقة مع أهوائهم المختلفة ، وكان كثيرَ الانتجاع للخلفاء والوزراء ورجال الدولة ببغداد وسُرَّ مَن رأى حتى فُلِج بالبصرة وبقى مفلوجًا بها مدّة الى أن انتقل الى بغداد فمات بها ودفن

(١) يقال فلان أبو عذرة هذا الامر أى أول من سبق اليه ، والبجدة العلم وباطن الامر وداخله وابن بجدة هذا الامر أى العالم به

بمقبرة الخيزران[2] سنة ٢٥٥ هـ وله اكثر من مائتى كتاب طبع منها فى مصر كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب التاج (فى أخلاق الملوك) ومجموع لبعض رسائله

أحمد بن عبد ربه

هو أديبُ الأندلسِ وشاعرُها أبو عُمَرَ أحمدُ بن محمد بن عبدِ ربّه القُرطبىُّ صاحب العِقد الفريد

ولد رحمه الله تعالى سنة ٢٤٦هـ ، ونشأ بمدينة قُرطبة ، ودرسَ علومَ العربيةِ من الشعر والأخبار والمُلَح والنوادر والتاريخ واللغة والنحو ، فنبغ فى جميعها ، وحفِظ منها ما لم يحفَظْه أحدٌ من علماء زمانه ، وقرأ رسائلَ المُحْدَثين من المشارقة وما تُرجِم من كتب الأوائل فى اكثر العلوم ، وأودعَ زُبْدَةَ ذلك فى كتابه العقد الفريد

وكان رحمه الله يشتغل فى حَداثته بالشعر ، ويجرى فى مضمار اللهو والطرب ، ونظَم فى ذلك من القصائد والمقَطَّعاتِ الرقيقةِ الجميلةِ ما جعلَ المتَنَبّى على صَلَفه وكِبْره — حينَ سمع شعرَه يُسَمّيه (مليحَ الأندلس) . ثم أقلَعَ فى كِبَره عن صَبْوته ، وأخلصَ لله فى تَوْبته : فاعتدَّ أشعارَه التى قالها فى الغزَل واللهو عملًا باطلاً ، وعمل على أعاريضها وقوافيها قصائدَ فى الزُّهد يُعارِضها بها ، وسمّاها المُمَحِّصات . ونال من خلفاء بنى أمية بالأندلس دُنيا عريضةً ، وحلَّ عندهم فى المكان الأسمى

وبقِىَ بقرطبة رئيساً مُسَوَّداً حتى فُلِج . وعاش كذلك عدَّةَ سنين ثم مات بها سنة ٣٢٨

كتاب العقد الفريد

لا يختلف اثنان فى أن كِتاب العِقـد الفريد من أجمل كُتُب الأدب العربى وأرباها فائدةً وأصدقِها خبراً وأحسنِها تبويباً وتفصيلاً

(٢) الخيزران هى أم الرشيد

اقتصر مؤلّفه فى اكثره على جمع أخبار المشرق ، وأخبار كُتّابه وأُدبائه ليُتحف به أهلَ وطنه ؛ الاّ أن اشتهاره وجزالةَ فائدته لم يقفا به عندَ هذا الحد، بل رجع الى أهل المشرق ، وعدَّ من أركان الأدب بين كتبهم ، فأقبلوا على دراسته والاقتباس منه ولا سيما متأخريهم . أما منزلةُ الكتاب بيننا الآن ، فهو أُستاذُ كل متأدب فى عصرنا هذا ، ولبثَ الناسُ فى نصفِ القرن الماضى وقلَّما كانت لهم فى الأدب والكتابة مادَّةٌ سِواه وسوى مقدَّمةِ ابن خلدون لسبقهما فى الطبع والنشر اكثرَ الكتب ؛ ولولا أنهما وَقَعا مُحرَّفَيْن فى جميع مرار طبعهما لما فَضَلَهما أىُّ كتاب طُبع الى الآن

وللعقد الفريد فوق هذا مزيةٌ لا يعدله فيها سواه وهى جمعُهُ لكثير من الرسائل والخُطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادتِ الأُصول المأخوذةُ هى عنها وبقيت مخلَّدةً فيه مثل مشاورة المهدى لأهل بيته وخُطَب الوفود وغير ذلك ؛ ويؤخذ عليه بعضُ هفوات صغيرة فى نقله بعض أخبار المشرق بلا تحقيق وعذره فى ذلك مقبول

الحريرىّ

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى الكاتب الشاعر اللغوى النحوى صاحب البدائع المأثورة فى مقاماته المشهورة

وهو عربى الأصل ينتسب فى ربيعة الفَرَس. ولد بمَشَانِ البصرة، وسكن مَحلّة بنى حَرَام بمدينة البصرة فنُسب اليها، وانقطع لتعلُّم اللغة والنحو والأدب حتى صار نادرة زمانه فيها ، وامتاز بصناعة الانشاء البديعى ، فحاكى بديعَ الزمان الهمذانى فى عمل المقامات ، وأنشأ خمسين مقامةً أتى فيها على كثير من موادّ اللغة وفنون الأدب ، وأمثال العرب وحِكَمها ، وبعض مسائل العلوم الدقيقة ، بعبارة مُسَجَّعة مزيَّنةٍ بأنواع البديع ، ولا سيما الجناسِ ترغيباً للطلّاب فى حفظ اللغة وأدبها وتفكيهاً لهم بمُطالعتها ؛ ونَحَل وقائعها أبا زيدٍ السَّرُوجىَّ ، وهو أعرابىٌّ فصيحٌ من سَرُوج (١) كان قد قدم البصرة وأُعجب به علماؤها ، وسمى راويَها عنه الحارث بنَ همَّام (يُريدُ نفسَه) وأهداها الى الوزير

(١) بلدة كانت بالجزيرة الفراتية

جمال الدين بن صَدَقَة وزير المسترشد العباسى ، فأصبحت هذه المقاماتُ أمثلَ مثال يُحتذى فى الكتابة البديعية التى غلبت على الكُتّاب أواخرَ العصر العباسى وتوارثها مَن بَعدهم الى قُبيلِ عصرنا الحاضر وان لم يستطيعوا الإجادة فيها، وقد شُرحت المقامات عدَّةَ شروح وتُرجِمت الى عدة لُغات. وغايةُ ما أخذه كتاب الإفرنج عليها وحدةُ مغزاها وأن اكثرها لا يخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة كالشحاذة والاستجداء

وللحريرى العذر فى ذلك لأن فرض روايتها عن الاعراب (وهم كانوا لا يقدمون المدن الا متنجعين مستجدين) يجعل خياله مقبولاً

وله غير المقامات شعرٌ كثير ورسائل بديعة وكتب فى النحو واللغة منها كتابه دُرّة الغوّاص فى أوهام الخواص، ومُلحةُ الإعراب فى النحو وتُوفِّىَ بالبصرة سنة ٥١٥

فن التاريخ

قدمنا أن أوّل ما وُضع فى التاريخ باللغة العربية هو الكتاب الذى وضعه عُبَيدُ ابن شَرْيَة لمُعاوية رضوانُ الله عليه، وفى صدر الدولة العباسية وضعَ كثيرٌ من العلماء كتباً فى التاريخ بأقسامه التى من أشهرها

(١) فن السير والمغازى – وأشهر من ألف فيه من الأوائل محمد بن اسحاق (١)

(٢) فن الفتوح – وأشهر من ألف فيه منهم الواقدى (٢) والمدائنى (٣) وابو مِخْنَف (٤)

(٣) فن طبقات الرجال – وأشهر علمائه القدماء ابن سعد (٥) كاتب الواقدى والبُخـارى

(٤) فن النسب – وأشهر قدماء علمائه الكلبى (٦) وابنه

(٥) فن أخبار العرب وأيامها – وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصمعى

(١) توفى سنة ١٥١ (٢) هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد مولى بنى هاشم توفى وهو قاض ببغداد سنة ٢٠٧ (٣) هو المؤرخ الثقة أبو الحسن على بن عبد الله المدائنى توفى سنة ٢٢٥ (٤) هو لوط بن يحيى المؤرخ الاخبارى (٥) هو أبو عبد الله محمد بن سعد ابن منيع الزهرى توفى سنة ٢٣٠ (٦) هو ابو نصر محمد بن السائب النسابة المفسر توفى سنة ١٤٠ هـ. وابنه هو النسابة ابو المنذر هشام بن محمد توفى سنة ٢٠٤

(٦) قصص الأنبياء وكتب فيه كثيرون

(٧) تاريخ الملوك ومن أقدم من كتب فيه ابن قتيبة والهيثم بن عدى[١] وابن واضح اليعقوبى[٢] ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبرى[٣] الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مرتبًا على حسب السنين الهجرية وحاكاه بعده ابن الأثير[٤] فى تاريخه الكامل

العروض والقافية

أوّلُ من اخترع علمَ العروض الخليلُ بن أحمدَ من غير سابقة تعلُّم على أستاذ أو تدرُّجٍ فى وَضْع ، بل ابتدعه جملةً واحدة وحصَر فيه أوزانَ العرب فى خمسةَ عشر بحراً وزاد عليه تلميذُ تلميذِه الأخفشُ بحراً آخرَ ثم لم يزد عليهما أحد ممن تأخر عنهما شيئاً يُعتَدّ به

أما القافية فقد كان العلماء قبل الخليل يتكلمون فيها ولكن الخليلَ هو أوّل من فصّل الكلام فيها وجعلها علماً مدوَّناً

النحو

جاءت الدولة العباسية والنحو علم يُدْرَس فى المساجد بالبصرة والكوفة ولكن البصريين سبقوا الكوفيين فى الاشتغال به كما سبقهم الكوفيون فى الاشتغال بالشعر وعلم الصرف

ومن اكبر الأئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذّبوه وفصلوه من البصريين أبو عمرو ابن العلاء[٥] وتلميذه الخليل وتلميذ الخليل سِيبَوَيه صاحب أوّل كتاب عظيم جامع وضع فى النحو ثم بعده الأخفش[٦] تلميذ سِيبَوَيه وشارح كتابه . ومن الكوفيين

---

(١) هو ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدى الراوية المؤرخ توفى سنة ٢٠٦
(٢) هو احمد بن ابى يعقوب بن واضح الرحالة توفى سنة ٢٧٨
(٣) توفى سنة ٣١٠ (٤) توفى سنة ٦٣٠
(٥) هو الحجة الثبت اللغوى النحوى الراوية واسمه كنيته توفى سنة ١٥٤
(٦) هو ابو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط توفى سنة ٢١٥

مُعاذٌ الهَرّاء[١] والرُّؤاسىّ[٢] وتلميذهما الكسائىّ وتلميذه الفرّاء[٣]

ثم لما زخرت بغداد بالعلوم وكثرت الفتن بالبصرة والكوفة ، هاجر منهما اليها كثير من العلماء امتزجت مذاهبهم وتكوَّن منها مذهب بغدادى جديد . وكذلك اختار الأندلسيون لأنفسهم مذهباً رابعاً[٤] وكل هذه المذاهب مقتبسة إما من مشافهة الأعراب الفصحاء ، أو من مدارسة دواوين شعرهم ، أو من مدارسة القرءان الكريم . وفى النحو والصرف ما لا يحصى من الكتب : مطولات ومختصرات وهو من العلوم التى نضجت وأينعت

علم اللغة

ويسمى متنَ اللغة ، ونعنى به معرفةَ معانى ألفاظها المفردة . وأوّل ما وضَع الأئمة فيه رسائلُ وكتب صغيرةٌ فى موضوعات خاصَّة : كالألفاظ المتعلقة بخلق الانسان أو الجمل أو الفرس أو النخلة أو السيف . فلما ظهر الخليلُ أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب ، ورتبه على حروف المعجم ، مقدِّماً حروفَ الحلق ومبتدئاً منها بالعين ولذلك سُمِّىَ مُعجَمه « كتابَ العين » . ثم ألف أبو بكر بن دُرَيد[٥] معجمه العظيمَ الذى سماه الجَمْهَرَة مرتِّباً له على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن . وأدرك عصرَه الأزهرىُّ[٦] فألف كتابَ التهذيب على ترتيب الخليل . ثم وضع الجوهرىُّ[٧] كتابه

---

(١) هو ابومسلم معاذ بن مسلم الهراء واضع علم الصرف وأقدم نحاة الكوفة توفى سنة ١٨٧
(٢) هو ابو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسى شيخ الكسائى والفراء وأول من الف فى نحو الكوفيين
(٣) هو ابو زكرياء يحيى بن زياد الفراء امام النحاة الكوفيين والبغداديين توفى سنة ٢٠٧
(٤) لم يتكون مذهب الاندلسيين الا بعد ان قلت رحلاتهم الى المشرق فى القرن الرابع وما بعده لكثرة الفتن فيه ولكساد سوق العلم عند ملوكه من الاعاجم وفساد السليقة فى الجزيرة . وكان الاندلسيون قد نقلوا من السنة وكلام العرب الكثير الجم فعكفوا عليه واستدركوا على المشارقة ما فاتهم من قواعده ، وعدلوا عن بعض آرائهم فيه ، وحفظوا تراثه لاهل العربية زمناً كاد يصفر الشرق من أهله أواخر العصر العباسى والعصر الذى بعده . ومن اشهرهم فى هذا العصر ابن سيده وابن خروف وابن عصفور والاعلم الشنتمرى وابن الضائع
(٥) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى توفى سنة ٣٢١ هـ
(٦) هو ابو منصور محمد بن احمد بن الازهر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ
(٧) هو ابو نصر اسمعيل بن حماد الجوهرى المتوفى سنة ٣٩٨

المسمى بالصحاح على ترتيب الجمهرة ؛ وابن سيده (١) الأندلسى كتابه المُحْكَم على ترتيب الخليل . وابن فارس (٢) كتابه المُجْمل ؛ والصاحب بن عباد كتابه المحيط . وهذه هى أُصولُ كتب اللغة ؛ وما بعدها: من العُباب والتكملة ومجمع البحرين للصاغانى (٣) والنهاية لابن الأثير (٤) ، ولسان العرب لابن مُكرَّم (٥) ، والمصباح للفيومى (٦) ، والقاموس للفيروزابادى (٧) فهو جمع لها أو اختصار منها

علوم البلاغة

المعانى والبيان والبديع

لم يصنف العلماء فى هذه العلوم الاَّ بعد أن فرَغوا من تدوين العلوم التى تحفظ الكلامَ العَربىَّ من حيث اعرابُه وتصريفُه ومادَّته. فلما أتموا ذلك بحثوا فى بلاغة الكلام

ويظهر أن أوّلَ كتابٍ دُوّن فى هذه العلوم كان فى علم البيان وهو كتاب مجاز القرءان لأبى عبيدة تلميذ الخليل ثم تبعه العلماء . ولا يُعلم أوّلُ من ألف فى المعانى بالضبط وانما أُثر فيها كلامٌ عن البلغاء ، وأشهرهم الجاحظ فى اعجاز القرءان وغيره . وأولُ مَن دوَّن كتباً فى علم البديع ابنُ المُعتَز وقُدامة بن جعفر (٨) . وقبل ذلك كان البديع يُستعمَل فى الشعر عملاً . وبقيت هذه العلوم تتكامل ويزيد فيها العلماء حتى جاء فحلُ البلاغة عبدُ القاهر الجُرجانى (٩) فألف فى المعانى كتابَه دلائلَ الإعجاز . وفى

---

(١) هو ابو الحسن على بن اسمعيل الاندلسى الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ﻫ

(٢) هو ابو الحسن احمد بن فارس الرازى المتوفى سنة ٣٩٠ ﻫ

(٣) هو ابو الفضائل رضىّ الدين الحسن بن محمد الصاغانى الرحالة المتوفى سنة ٦٥٠ ﻫ

(٤) هو ابو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٦٠٦ﻫ

(٥) هو ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المشهور بابن منظور أيضاً توفى سنة ٧١١ﻫ وهو من اهل العصر التالى

(٦) هو احمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ ﻫ من اهل العصر التالى

(٧) هو ابو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ من اهل العصر التالى

(٨) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ

(٩) هو ابو بكر عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ﻫ

البيان كتابَه أسرارَ البلاغة . وجاء بعدَه السكاكىُّ (١) فألّف كتابه العظيمَ مفتاحَ العلوم : فبسط مسائل البلاغة بما لم يزد عليه غيرُه فيها شيئاً كبيراً من أُصول الفن

الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليلُ بن أحمدَ بن عمرو بن تميم الفراهيدى الأزدى البصرى نابغة العرب ، وسيد أهل الأدب ، ومخترع العروضِ ، ومُبتكِر المعجمات ، وصاحب الشكل العربى المستعمل الآنَ

ولد سنة ١٠٠ بالبصرة ونشأ بها وأخذ العربيةَ والحديثَ والقراءةَ عن أئمة زمانه وأكثرَ الخروجَ الى البوادى ، وسمع الأعراب الفصحاء ، فنبغ فى العربية نبوغاً لم يكن لأحدٍ ممن تقدَّمه أو تأخر عنه ، وكان غايةً فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فبسطه وفرَّع على أصوله ، وجعله عاماً مضبوطاً ولقَّنَ ذلك تلميذَه سيبويه، فكان كتابُه الذى يُعتبرُ أصلَ كلِّ كتابٍ فى النحو معقوداً اكثره بلفظ الخليل . والخليلُ هو الواضع للشكل المستعمل الآن فى ضبط الحروف

ومما يشهدُ له بحدّة الفكر وبُعد النظر اختراعُه العروضَ علماً كاملاً لم يحتجْ الى تهذيب بعده ، وابتكارُه طريقةَ تدوين المعجمات بتأليف كتاب العين ، وتدوينه كتاباً دقيقاً فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية واشتغال بلهو . وزاد فى الشِطْرَنج قطعةً سماها جَملاً لعبَ بها الناس زمناً . وبَقِىَ الخليلُ مُقيماً بالبصرة طولَ حياته زاهداً متعفِفاً متقشِّفاً مُكِباً على العلم والتعليم حتى مات سنة ١٧٤ ﻫ فى أوائل خلافة الرشيد ؛ ويقال فى سبب موته إنه قال أُريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضى به الجاريةُ الى البقّال فلا يظلمُها فدخل المسجدَ وهو يُعمِلُ فكرَه فاصطدم فى سارية صَدْمة شديدة ارتج منها دماغه واعتل من ذلك ومات رحمه الله تعالى

---

(١) هو ابو يعقوب سراج الدين يوسف السكاكى الخوارزمى المتوفى سنة ٦٢٦ ﻫ

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قُنْبُرَ امام البصريين وحجة النحويين وصاحب الكتاب شيخ [1] الكتب

ولد بالبيضاء من سُلالة فارسية ، ونشأ بالبصرة ، وكان يطلب أوَّلَ أمره الحديثَ والفقه . فعِيبتْ عليــه لَحْنةٌ لحنها فى مجلس شيخه فخجل ، وطلَب النحوَ ولازم الخليلَ ، وأخذ عن غيره أيضاً . وكان الخليلُ يُؤْثِره على أصحابه ، فدوَّن جميعَ ما أخذه عنه ونقله عن غيره فى كتابه الذى لم يُجْمَع قبله مثلُه . ولولا هذا الكتابُ الذى رواه عنه وشرحه تلميذُه الأخفشُ ما كان لسيبويه خبرٌ يشهر لوفاته كهلاً ولقلة من أخذ عنه هذا الكتابَ ؛ ولأنه لا يعرف له كتابٌ غيرُه وبحسبك هو . ولما أحس بفضل معرفته فى النحو وأنه أصبحَ شيخَ البصريين ، خرج الى بغداد وافداً على البرامكة ، فجمعه يحيى بنُ خالد بالكسائى شيخِ الكوفيين . فتناظرا فى مجلس أُعِدَّ لذلك ، فكان من مسائل المناظرة أن سأله الكسائى : ما تقول فى قول العرب : (كنت أظن أن العقربَ أشدُّ لسعةً من الزُّنْبور فاذا هو هى ، أو فاذا هو اياها) فقال سيبويه : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائى : العربُ ترفَعُ ذلك وتنصبُه . واشتد بينهما الخلافُ ، وتحاكما الى رُواة الأعراب بباب يحيى فقضَوْا للكسائى ، فاستكان سيبويه ، فقال الكسائى ليحيى (أصلح الله الوزير) وفَدَ عليك مؤمِّلاً فان رأيت ان لا تردَّه خائبًا . فأمر له بعشرة آلاف درهم

وما يُروَى فى هذه الحكاية من غير هذا فمن زيادة متَعَصِّبى البصريين ، وليس فى العلم كبيرٌ . وخرج سيبويه بعد هذه المناظرة الى ناحية بلدته البيضاء بفارس ومات بها سنة ١٧٧ ه بعد نحو عشر سنين من المناظرة ، وسنه نيف وأربعون سنة

(١) كان اذا ذكر الكتاب عند النحويين والأدباء فانما ينصرف الى كتاب سيبويه فهو علم عليه بالغلبة، وهو أصل كل كتاب فى النحو ولهذا واقدم وضعه اطلقنا عليه (شيخ الكتب)

الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة أحد القراء السبعة وامام الكوفيين فى النحو واللغة نشأ بالكوفة وتعلم على الكبر بعد لحنة لحنها أمامَ جمعٍ من طلبة العلم ، فلازم أئمةَ الكوفة حتى أنفد ما عندهم ، ثم خرج الى الخليل بالبصرة وجلس فى حلقتــه ، وأعجبه علمُه . فقال له : من أين علمُك هذا ؟ قال : من بوادى الحِجاز ونجدٍ وتهامة فخرَج اليها ، وأنفدَ خمس عشرةَ قنِّينةَ حبرٍ فى الكتابة عن العرب سوى ما حفِظَ عنهم . ولما رجع من البادية وجَّه اليه المهدىُّ فخرج الى بغداد فحظِىَ عنده وضمَّه الى حاشية ابنه الرشيد ، ثم جعله الرشيدُ مؤدِّبَ ولدِه الأمين ، وبقى وجيهاً عنده فكان يُجلسُه هو والقاضىَ محمدَ بنَ الحسن [1] صاحبَ أبى حنيفة على كرسيَّيْنِ متميزين بحضرته ، ويأمرهما أن لا ينزعجا لقيامه ومجيئه . وما زالاَ على هذه الكرامة حتى خرج الرشيدُ الى الرَّىِّ [2] وهما فى صحبته ، فماتا فى يوم واحد فبكاهما وقال: دفنت الفقه والعربية بالرَّىِّ ، وذلك سنة ١٨٩ ه . وقد انتهت اليه إمامة القراءةِ والعربيةِ بالكوفة وبغدادَ ، واختار لنفسه قراءةً أقرأَ بها الناسَ ، وكان يروِى الشعرَ وليس له فيه جيِّدُ نظرٍ

العلوم الشرعية

التفسير

لم يدوَّنْ علمُ التفسير فى كتب جامعة تجمع سوَرَ القرآنِ الكريم كلَّها الاَّ فى عصر الدولة العباسية . وكان التفسيرُ عبارةً عن نقل روايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبين المرادَ من آياته . وأوّلُ طبقةٍ من المفسرين أدركتِ الدولةَ العباسيةَ أو نشأت فى صدرها طبقةُ سُفيانَ [3] بن عُيَيْنَةَ ووَكيع [4] بن الجرَّاح وشُعبةَ بن

(١) هو ابو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى احد صاحبى ابى حنيفة
(٢) كانت من حواضر بلاد فارس وبالقرب من اطلالها انشئت مدينة طهران الحالية
(٣) هو ابو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون مولى بنى هلال المحدث الفقيه المفسر توفى سنة ١٩٨ بمكة
(٤) هو ابو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح صاحب ابى حنيفة وأحد المحدثين المفسرين العباد توفى سنة ١٩٨ ه

الحجاج واسحق بن راهوَيه [1] ومقاتِل بن سليمان [2] والفرّاء.

ومن أشهر التفاسير التى رُويت من طريقهم تفسيرُ ابن عباس [3] ، وقد رُوِىَ من طرُق مختلفة صحةً وضعفًا ، وطُبِعَ ببعض طرُقه الضعيفـة فى مصر ، فهو بذلك أقدمُ تفسير نعرفه. ثم جاءت بعد هذه الطبقة طبقةُ أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى [4] وتفسيره أوَّل كتاب عظيم صحيح وضع فى التفسير على مذهب السلف . وتابعه فى ذلك الثعلبى [5] وتلميذه الواحدى [6]. ومنهم استمدَّ كل ذى تفسير بعدهم ؛ ثم نشأت طائفةٌ أدخلت فى التفسير بعضَ مباحثِ العلوم الأخرى كالنحو ، والفقه ، والأصول ، والكلام ، والبلاغة ، والقصص ؛ ثم تجردت طائفةٌ الى التفسير بالرأى والقياس فانقسم التفسيرُ قسمين ، سلفيًا ، وفنيًا . واستمر الأمر على ذلك الى وقتنا هذا

الحديث

أوَّلُ كتابٍ جُمِعَ فى الحديث الكتابُ الذى أمر الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز بتدوينه ، ولم يعرف له خبرٌ بعدُ . ثم أخذ العلماء يدوّنون فيه بحضّ الخليفة العباسى أبى جعفر وأولاده . فدوّنَ الإمامُ مالكٌ موطأهُ فى الحديث والفقه . ولما اشتدَّت رغبةُ الناس فى طلب الحديث ، وضعَ كثيرٌ من الزنادقة واليهود المتظاهرين بالاسلام كثيراً من الأحاديث فتجرد لها الأئمةُ الأعلامُ وبيّنوا صحيحها من فاسدها ، وكان من أفضل القائمين بذلك اسحق بن راهوَيه وتلميذه محمدُ بن اسمعيلَ البخارى الذى دوَّنَ

(١) هو ابو يعقوب اسحق بن ابرهيم الملقب براهويه التميمى الحنظلى نسباً المفسر المحدث توفى سنة ٢٣٨ هـ

(٢) هو مقاتل بن سليمان البلخى المفسر متهم بضعف الرواية توفى سنة ١٥٠ هـ

(٣) هو عبد الله بن العباس عم النبى (صلى الله عليه وسلم) بن عبد المطلب بن هاشم حبر قريش وعالمها توفى بالطائف سنة ٦٨ هـ

(٤) هو ابو جعفر محمد بن جرير الفقيه المجتهد المفسر المؤرخ توفى سنة ٣١٠ هـ

(٥) هو ابوعبد الله احمد بن محمد بن ابرهيم الثعلبى النيسابورى المفسر المشهور توفى سنة ٤٢٧

(٦) هو ابو الحسن على بن احمد بن محمد الواحدى المصنف المفسر توفى سنة ٤٦٨

كتابَه فى الأحاديث الصّحاح فقط ، وتبعه تلميذُه مسلمُ بن الحجّاج [1] والإمامُ احمدُ ابنُ حنبل وأصحابُ كُتبِ السنة الصحاح وهم : التِّرمذِىُّ [2] – وأبو داود [3] – والنسائى [4] – وابنُ ماجهْ [5] . هذه هى أصولُ الكتب فى الحديث . وبعضهم جمَعَها كلَّها ، وبعضهم اختصرَها

الامام البخارى

هو أبو عبد الله محمدُ بن اسمٰعيلَ بن ابرهيم بن المغيرة ، إمام المسلمين ، وسيدُ المحدِّثين ، وصاحب الجامع الصحيح أجلِّ كتبِ الإسلام وأفضلها بعدَ كتابِ الله العزيز

ولد ببُخارى من سُلالة فارسية سنة ١٩٤هـ ونشأ بها يتيمًا فحفِظَ القرآن وألمَّ بالعربية وهو صبى ، وحُبِّبَ اليه سَماعُ الحديث ، فكان أولُ سماعه من عُلماء بُخارى ، وهو لم يُناهِزِ البلوغَ ، حتى حفِظ عشراتِ الألوفِ من الأحاديث ؛ وكان أهلُ الرغبة فى الحديث يتعادَوْن خلفَه ويُجلِسونه فى بعض الطريق ويكتبون عنه وهو بعدُ شابٌّ لم يطِرَّ [6] شاربه . وخرج مع أمه وأخيه الى مكة فحجوا وتخلف هو لطلب الحديث ودخل من أجله أكثرَ ممالك المشرق : من خراسان والجبل والعراق والشام ومصر وأخذ عنهُ علماؤها وأئمتُها ومنهم أحمدُ بن حنبل ؛ وتفقه على مذهب الشافعى ، ثم صار له مذهب خاص ، ولما نضِج علمه واجتمع له يقينه ، شرعَ فى تمييز الأحاديث الصحيحة

(١) هو ابو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى احد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين ، ولد سنة ٢٠٦ وتوفى سنة ٢٦١ هـ

(٢) هو ابوعيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير المتوفى سنة ٢٧٩ (وترمذ مدينة على جيحون)

(٣) هو ابو داود سليمن بن الاشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ « وسجستان اقليم يعرف الآن بلوجستان »

(٤) هو ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ ونسا بالفتح والقصر مدينة بخراسان

(٥) هو ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣

(٦) أى لم ينبت شاربه

من غيرها بعد أن عَرَف عِلَلها ووجوهَها معرفةً لم تتمَّ لأحدٍ قبلَه ، فكان بذلك المقدَّمَ على علماء الأرض . واستخرج كتابَه (الجامعَ الصحيحَ) من ستمائةِ ألفِ حديثٍ فى ستَّ عشْرَةَ سنة جمع فيه تسعةَ آلاف حديثٍ مكرَّر بعضُها بتكرُّر وجوهها . وقال انى جعلتُه حجةً بينى وبين الله . فأجمع علماء السنةِ على أنهُ لم يكن فيها أصحُّ منه

وبقى طول حياته يتردَّد بين الأمصار حتى اشتاق الى بلاده فرجع اليها وابتُلِىَ فيها بفتنه خَلْقِ القرءان ، فأثار عليه والى بُخارَى العامةَ فأخرجوه منهـا ، ومات فى طريقه على ثلاثة فراسخ[1] من سمرقند سنة ٢٥٦ ﻫ

علم الفقه

لما كان المروىُّ عن رسول الله وظاهرُ نصِّ القرآن لا يستَوْعبان كلَّ أحكامِ الوقائع المختلفة المتجدِّدة بتجدّد الزمان والمكان ، كان الاجتهاد ضروريًّا فى الدين ، وجاءت الدولة العباسية وأهلُ الحجاز يرجحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رُواته بينهم ، وإمامُهم فى مذهبهم مالكُ بن أنس ، وأهلُ العراق يرجحون الأخذ بالقياس ، وإمامُهم فى مذهبهم أبو حنيفة لكثرة ما وضعه متزندقة العراق فى الحديث ، ثم لما دخل أهل الحجازِ العراقَ وتساوى الفريقان فى معرفة الأحاديث عملوا بهما ، ونشأ من ذلك عدةُ مذاهب أشهرُها مذهبُ الشافعى ومذهب أحمد بن حنبل ، وهذه المذاهبُ الأربعةُ هى التى ارتضاها معظمُ الأمة فى أمر دينها ودنياها

ثم كان لكل مذهب أئمةٌ مجتهدون فيه

الامام أبو حنيفة النُّعمان

هو الامامُ الأعظمُ أبو حنيفةَ النعمانُ بن ثابتٍ فقيهُ العراق وقُدوةُ أهلِ الرأى وصاحبُ المذهب المقْضِىِّ به الآنَ فى أكثر الممالك الاسلامية

ولد سنة ٨٠ هجرية ، من سلالة فارسية ونشأ بالكوفة ، وعاصر بعضَ الصحابة ،

(١) الفرسخ ثلاثة اميال والميل اربعة آلاف ذراع هاشمى

واشتغل بالفقه ، وأخذ كلَّ علمه عمَّنْ شافه الصحابة ونَقَل عنهم ، واستنبط فقهه من القرآن الكريم وما صح عنده من الحديث على قلته مع استعمال الرأى والقياسِ ، وتابعه فى ذلك أكثرُ أئمةِ العراق لقلةِ رُواة الحديث الصحيح بينهم ، وكثرتِهم فى الحجاز . وكان من أعبد الناس وأكثرهم تهجداً وقراءة للقرآن الكريم ، وأكثرهم وَرَعًا وتَوَخيًا للكسب من وجهٍ حِلٍّ . رَضِىَ أن يعيش تاجرَ خَزٍّ ورغبَ عن وظائف الملوك والخلفاء ، وعُرِضَ عليه القضاء من قِبَلِ أمراء بنى أُميـة ثم المنصورِ فأبى ، فسجنه وآذاه ، حتى قيل : انه مات فى سجنه ، وكان يعتذر بأنه لا يأمَنُ نفسه أن تَزِلَّ ؛ وقرأ عليه علماء الكوفة وبغداد وتخرج عليه منها الأئمة من أصحابه كمحمدِ ابن الحسن وأبى يوسف[1] وزُفَر[2] ومات رحمه الله ببغداد سنة ١٥٠

الامام مالك

هو أبو عبد الله مالك بن أنس امام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز وهو عربى من سلالة أقيال حِمْيَر

ولد سنة ٩٥ بالمدينة المنوَّرة ونشأ بها ، وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعُبَّادِ ، ورحَل اليهم ، وأخذ عنهم ، وما زال يدأب فى التحصيل وجَمْعِ السنة حتى صار حجةً من حُجَجِ الله فى أرضه وضُرِبَ به المثلُ فقيلَ (لا يُفتَى ومالكٌ بالمدينة) وعرَف الخلفاء قدرَه فأجلُّوه ، وحَمَلوا اليه بِدَرَهم ؛ وسُعِىَ به الى عاملِ المنصور بالمدينة فجرَّده وضربه سبعين سوطاً . ولما بلغ ذلك المنصورَ غضِبَ على عامله وعزَله وأقدمه الى بغداد على قَتَبٍ ، ولقىَ المنصورُ مالكاً من قابلٍ فى موسم الحج فاعتذر اليه ، واستسمحَه وفاتحه فى كثير من مسائل الدين ، وطلب منه أن يجمعَ ما ثبتَ لديه ويُدَوِّنَه فى كتاب ويُوطِّئَهُ للناس ، فاعتذرَ ، فلم يقبلْ منه عذراً فعمِلَ كتابَه الموطأ فى الحديث والفقه ، فجاء ولىُّ عهده المهدى من قابلٍ حاجًّا فسمِعَه منـه وأمر له

(١) هو ابو يوسف يعقوب بن ابرهيم الانصارى نسبا صاحب أبى حنيفة وناصر مذهبه وأول من تسمى بقاضى القضاة بمدينة السلام (بغداد) توفى سنة ١٨٢ ﻫ

(٢) هو ابو الهذيل زفر بن الهذيل التميمى العنبرى صاحب أبى حنيفة توفى سنة ١٥٨ ﻫ

بخمسة آلاف دينار وألفٍ لتلاميذه ، ولم يلبث ان مات المنصور ، وزاحم فقهُ أهل العراق فقهَهُ ، ولكن ذلك لم يمنع الرشيدَ أن يرحلَ هو وأولادُه اليه بالحجاز ليسمعَ موطأه فسمعه وأغدق عليه . وكان مالكٌ أوّلَ أمره فقيراً ، فلما كثرت مِنَحُ الخلفاء له حسن حاله فأظهرَ نعمة الله عليه ، ووصل أهلَ العلم وأشركهم فى ماله ومنهم الشافعى . وأخلاقه : من الكرم والطلاقة والوقار والنُّبل والتواضع والحب لرسول الله عليه الصلاة والسلام تَجِلّ عن الوصف ، حتى انه كان لا يركب دابةً فى المدينة اجلالاً لأرض ضمَّت جسدَ رسول الله . وتوفى سنة ١٧٩ بالمدينة ودفن بالبَقيع (١)

الامام الشّافعى

هو أبو عبد الله محمدُ بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع عالمُ قريش وفخرها ، وامامُ الشريعة وحَبْرُها . وهو من ولد المطلب بن عبد مناف ، ولد بمدينة غزة (٢) سنة ١٥٠ وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها فقيراً تربيه أمه ويواسيه ذوو قرابته من قريش ، وما ميَّزَ حتى صار نادرةَ الدنيا ذكاء وحفظاً : حفظَ القرآن وهو ابن تسعِ سنين وأولع بالنحو والشعر واللغة ورحل الى البادية فى تطلُّبها ولم يناهز سنَّ البلوغ حتى حفظ منها شيئاً كثيراً ، ثم تفقَّه وحفظ مُوَطَّأ مالكٍ وأفتى وهو ابن خمس عشرةَ سنة ، ثم رحل فى هذه السن الى مالك وقرأ عليه الموطأ من حفظه ، فقال مالك : ان يكن أحدٌ يُفلح فهذا الغلامُ . وأضافه وخدَمه بنفسه . ثم رجع الى مكة ، وعلَّم بها العربيةَ والفقهَ ، وصحح عليه الأصمعيُّ شعرَ الهُذليين . ثم ان الرشيد ولّى أحد أصدقاء الشافعى عملاً باليمن فخرج معه وولىَ بعض الأعمال فأحسن التصرُّف ، ثم وُشِيَ به الى الرشيد ، وقبَض عليه ، فلم يتبين شيئاً فى أمره ، فأطلقه ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وأملى بها مذهبَه القديم وفى سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠ خرج الى مصر فألقى بها عصاه وسكن الفُسطاطَ فكانت

---

(١) هى مقبرة المدينة المنورة

(٢) من مراقئ الشام قريبة من حدود البلاد المصرية

دار هجرته ، وبها أملى مذهبَه الجديد (١) بجامع عمرو . واستنبط الشافعى مذهبه من القرءان والحديث والقياس والرأى فكان مذهبه وسطاً بين أهل الرأى من أصحاب أبى حنيفة وبين أهل الحديث من أمثال مالك وأحمد ، وتُوُفّىَ سنة ٢٠٤ وقبره بمصر معروفٌ مشهور . وكان الشافعىُّ أفضلَ من رأى الناسُ ذكاء وعقلاً وحفظاً وفصاحةَ لسانٍ وقوةَ حجة ، ولم يُناظر أحداً الا ظهر عليه

واجمال القول انهُ كان اماماً فى كل شىء حتى الرمىِ بالسهام فكان يصيبُ منهُ تسعةً من عشرة

الامام أحمد بن حنبل

هو الامامُ الصابرُ المحتسِبُ أبو عبد الله أحمدُ بن حَنْبلٍ الشَّيْبانى نسباً ، حافظ السنة وقدوةُ أهل الحديث وأعبدُ أهل زمانه . وُلد ببغداد من سلالة عربية سنة ١٦٤ فتعلم العلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته ، وكان الحديثُ وقتئذٍ قد أينعَ وكثرتْ رجاله وصُنِّفَتْ كتبُه وتميَّز صحيحُهُ من موضوعه ، فلقى مَنْ لا يُحصى من رجاله ، فجاب البلادَ وطوّف فى الأمصار حتى حفظَ مئات الألوف من الأحاديث واختار منها نيفاً وأربعين ألفَ حديث ضمنها كتابَه المسندَ ؛ واستنبط مذهبَه من السنة مَشُوباً بشىء من القياس والرأى ، وظهرت فى مدَّته فتنةُ خَلْق القرءان (٢) فامتُحِنَ بها فى مجلس المعتصم ليجيبَهم الى القول بخلق القرءان فلم يفعل ، فضُرِبَ سبعةً وعشرين سَوْطاً ضرباً مُوجعاً فسال منهُ الدم وأغمى عليه ، ولما خيف عليه التلفُ أُطلِقَ فبقى فى منزله مدَّةً مريضاً ثم عُوفى واشتغل بالعلم والتعليم ببغداد حتى مات سنة ٢٤١ هـ

---

(١) لأنه اثناء اقامته بالعراق واثناء مروره بالجزيرة والشام فى رحلته الى مصر لقى كثيراً من ثقات المحدّثين وعلم منهم ما لم يعلم ورأى من عرف الناس فى الحجاز واليمن والعراق والجزيرة والشام ما جعله يعدل عن بعض آرائه فى جلب المصلحة ودرء المفسدة

(٢) كان الخليفة المأمون ينكر على من يقول ان القرءان قديم لأن ذلك يقتضى تعدد القدماء المفضى الى تعدد الالهة بل يقول انه حادث مخلوق

علم الكلام

كان السلفُ الصالحُ من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسُّنَّة. وما وقع فيهما من المتشابه أو أوهم التشبيه المنافى لتنزيه المعبود توقفوا فيه خوفَ أن يحيد بهم تغلغلُهم فى التأويل عن القصد، فيقعوا فيما وقع فيه الأممُ قبلَهم، فيتفرّق أمرُهم ويكونوا شيعاً، ومن لم يتوقف منهم لم يبعد عنهم كثيراً، غيرَ أن ذلك لم يُقنِعْ من دخل فى الاسلام من الطوائف التى امتلأت دياناتُها بالشبه والأوهام فكثر جدلُهم فى شبهِهم بالأقيسة الصناعية والعقلية، فاضطر العلماء أن يُجاروهم ويعارضوهم بمثل ذلك، وساعدهم الخلفاء وأوّلُهم المهدى الذى حرضهم على تدوين علم الكلام (التوحيد). فافترق المرضىّ عن مذهبهم من علماء الكلام فرقتين فرقة اعتقدت مايقرُب من مذهب السلف وسُمُّوا الجماعية وأصحاب الحديث، وفرقة اعتزلتها وخالفتها فى بعض المسائل ومقدّمها واصل بن عطاء[1] وسُمُّوا المعتزلةَ أو أصحابَ العدل، وجرى رجالُ الحكومة العباسية على هذا المذهب ونصروه، حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى فألف من مذهب المعتزلة ومذهب غيرهم مذهبه الكلامى الذى سمى بعدُ بمذهب الأشاعرة وغلب على كل مذهب سواه الأ بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشيعة، (وبقى كثير منها الى الآن) ومذاهب الخوارج وبقى منهم الى عصرنا بقية فى الجبل الأخضر من برقة وفى جزيرة جربة على ساحل تونس وبلاد البحرين

أبو الحسن الأشعرى

هو أبو الحسن على ابن اسمٰعيل شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وامام المتكلمين وصاحب المذهب الكلامى، المنتشر الآن فى اكثر بقاع العالم الاسلامى

(١) هو ابو حذيفة واصل بن عطاء الخطيب المتكلم كان يجلس الى الحسن البصرى يأخذ عنه العلم فلما قالت الخوارج بتكفير مرتكب الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وان فسقوا بالكبائر فخرج واصل عن الفريقين وقال ان الفاسق من هذه الأمة لا مؤمن ولا كافر ومنزلة بين المنزلتين. فغضب منه الحسن واعتزل مجلسه وانضم اليه عمر بن عبيد بن باب وتبعهما اقوام سموا المعتزلة

ولد بالبصرة سنة ٢٦٠ هـ ونشأ بها وأخذ علم الكلام عن أبى علىّ الجُبائىّ شيخ المعتزلة، وتبعه فى الاعتزال، واحتج له حتى صار لسان المعتزلة اكثر من ثلاثين عاماً، ثم هداه البحث فى السُّنَّة ومذاهب المتكلمين من الصفاتية والفقهاء وأصحاب الحديث، فرأى ان كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غالٍ فى نظره، فتوسط، وتغيّب عن الناس مدةً ألف فيها كتبه فى نصرة أهل السُّنَّة والردّ على اكثر عقائد المعتزلة، ثم خرج الى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورَقِيَ المنبر وعرّف الناس بنفسه وبمذهبه القديم والجديد ودفع الكتب التى ألّفها على مذهب أهل السُّنَّة للناس، فَنَصَبَ له المعتزلة بالردّ والتزييف فما زال يدحض حججهم حتى انقطعوا عن مناظرته وتبعه كثير منهم ومن غيرهم

وكان أبو الحسن من أورع الناس وأزهدهم مع دُعابة ومِزاح، وكان يعيش من غلة قرية وقفها جده بلال بن أبى بُردة بن أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله على ذريته، وكان شافعىّ المذهب توفى سنة ٣٢٤. وممّن نصر مذهبه الفخر الرازى والغزالى وقاربه فى مذهبه القاضى أبو منصور الماتريدىّ

الغزالى[1]

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزّالى الطُّوسى الشافعى حجة الاسلام وصاحب كتاب احياء علوم الدين.

ولد سنة ٤٥٠ ونشأ بطوس[2] وتعلم بها مبادئ العلوم ثم رحل الى نَيْسابور ولازم امامَ الحرمين الجُوينى[3] وهو يومئذ عالم الشافعية فى الشرق فما زال يتلقى عنه العلم حتى صار من اكابر متكلمى الأشاعرة وفقهاء الشافعية. وحتى أصبح أستاذه يفاخر به

(١) الغزالى بتشديد الزاى نسبة الى الغزال قال ابن خلكان وذلك هو المشهور وقيل انها مخففة نسبة الى غزالة قرية من قرى طوس

(٢) طوس مدينة عظيمة بخراسان دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا

(٣) هو ابو المعالى ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى الفقيه الشافعى توفى سنة ٤٧٨ و (الجوين) ناحية كبيرة من خراسان

العلماء ، ويتباهى بتعليمه وتخريجه ؛ ولما مات الجوينى ذهب الى بغداد ولقى الوزير نِظَامَ الملك[1] صاحبَ المدرسة النِّظَامِيَّة الشهيرة . وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم وأقر له فحول العراق بالفضل فتولّى التدريس بالمدرسة النظامية أربع سنوات . ثم طرأت عليه حال زهادة فى الدنيا فسلك طريق الصوفية باعتدال . ورغب عن الاختلاط بالناس . ثم حج وذهب الى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أنبيائها ثم دخل مصر وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد الى وطنه طوس واشتغل بتأليف الكتب الجليلة ثم لزم التدريس بنيسابور ثم عاد الى وطنه حيث مضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر حتى مات بطوس سنة ٥٠٥ . ويعتبر الغزَّالى من مؤيدى مذهب الأشاعرة المسمين بأهل السنة ومن اكبر ائمة الشافعية ، وهو يعد خير من تكلم فى التصوف بحال لم تشبها نحلُ غلاة الصوفية الخارجين بها عن مألوف العقل البشرى المعتاد ، ويعتبر كتابه (احياء علوم الدين) من أفضل كتب التصوف والأخلاق واظهار حكمة القرآن والشريعة . وأصبحت كتابته فيه أبلغ كتابة توخى أسلوبها علماء هذه المقاصد وغيرهم من المصلحين حتى عصرنا هذا .

نشأة العلوم الكونية المنقولة وترجمتها

وأشهر المترجمين والمشتغلين بها من المسلمين ومواليهم

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة . وتشمل أربعة علوم – المنطق والطبيعيات والرياضيات والالهيات .

وتشمل الطبيعيات علم الطبيعة والكيمياء وفن المواليد الثلاثة والطب والصيدلة والفلاحـة .

(١) هو الوزير ابو على الحسن بن اسحق بن العباس الملقب نظام الملك قوام الدين العالم الصالح المتصوف محب العلم والعلماء وزر للسلطان ألب ارسلان وولده السلطان ملك شاه السلجوقيين المتغلبين على خلفاء بغداد بنى مدرسته النظامية ببغداد وهى أول مدرسة بنيت خاصة بالتدريس ، وكان يكون قبل فى المساجد الجامعة وجعل لها الرواتب للمدرسين والطلبة واجرى عليهم الجرايات وقتل سنة ٤٨٥ هـ

وتشمل الرياضيات علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا[1]) وعلم الفلك الشامل للهيئة والتنجيم ، ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية

ويلحق بهذه العلوم علم السياسة وتدبير المنزل والمال وعلم الأخلاق والموسيق .

وتشمل الالهيات علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالق والقوى النفسية والجن والملائكة ونحو ذلك .

وهـذه العلوم فطرية فى الانسان من حيث أنه متفكر متمدين لاتختص بها أمة دون اخرى فكان الاشتغال بها ضروريا لكل أمة أصبحت ذات حضارة ، ولذلك ترجم المسلمون بعضها فى عصر بنى أمية واستقدم المنصورُ العباسىُّ كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود فى الطب والفلك والسياسة . ومن أشهر هؤلاء جُرْجيسُ الكبير[2] ابن بَخْتَيْشوع ونُوبختُ[3] وابنهُ ابو سهل وابن المقفَّع . ولما مات المنصور فتَرَ أمر الترجمة الى زمن الرشيد والبرامكة فحثوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية ، وصححوا بعض ما تُرجِمَ زمنَ المنصور .

ثم جاء عصرُ المأمون فزخرتْ بُحورُ الترجمة ، وبعث الى بلاد الروم جماعةً من المترجمين كابن البطريق[4] وسَلْمٍ صاحبِ بيت الحكمة ، والحجاج بن مطر ، وحُنَيْن[5] بن اسحاق ، فاختاروا كتباً حملوها الى بغداد ، وتُرجمت وتعلَّمها الناسُ وصححوا أغلاطها واستدركوا عليها . ولم يمضِ قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى برع المسلمون فى

(١) يرى بعض مهندسى عصرنا تسمية هذا العلم بعلم القوى

(٢) كان رئيس البيمارستان بجند يسابور زمن المنصور فاستدعاه اليه واتخذه طبيبه الخاص حتى سنة ١٥٢ فاستأذنه فى العودة الى بلده فات

(٣) آل نوبخت كثيرون كلهم اشتغل بالفلك والنجوم والحكمة ، وكانوا ينقلون من الفارسية وكان ينقل هو واولاده من الفارسية واليونانية ، وكان نوبخت منجماً للمنصور فلما ضعف عن الخدمة احضر ولده أبا سهل الى المنصور ليقوم مقامه فقبله وهو الذى كناه ابا سهل

(٤) هو يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان اميناً على الترجمة تولى ترجمة كتب ارسطو وبعض كتب بقراط

(٥) هو حنين بن اسحق العبادى عربى الاصل من العباديين نصارى الحيرة برع فى الترجمة من اليونانية وتوفى سنة ٢٦٠

هذه العلوم كلها وظهر منهم من الحكماء والفلاسفة مَن كاد يلحق فلاسفةَ اليونان ، ومن هؤلاء فيلسوفُ الاسلام والعرب أبو يوسفَ يعقوبُ بن اسحق بن الصبّاح الكِندىّ[1] وتلميذُه احمدُ[2] بن الطيّب السرخسى. وبنو موسى[3] بن شاكر : محمد واحمد والحسن أشهر رياضى هذا العصر وأول المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة ومحمد[4] بن موسى الخوارزمى مخترع علم الجبر والمقابلة . ومذيع الحساب الهندى بين العرب

ثم ذهب طَوْرُ الترجمة والتصحيح وتلاه طورُ التأليف والتكميل والاختراع . فأتى فيه بالعجب العجاب أبو نصر محمد بن محمد طَرْخان الفارابى[5] الحكيم الكبير. مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون . والتى استنبط الافرنج بمحاكاتها آلة المِعزف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى[6] الطبيب الكيميائى

(١) من سلالة الاشعث بن قيس كان مترجماً وعالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد والهيئة ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل وله اكثر من ٢٣٠ مؤلف

(٢) هو العالم المتفنن فى كل علم والمؤلف فى كل فن كان نديماً للمعتضد الخليفة العباسى فأنكر عليه بعض امور فقتله سنة ٢٨٦

(٣) كان بنو موسى بن شاكر وذريتهم من افاضل علماء الرياضة والفلك ، وكان ابوهم موسى من اتباع المأمون فمات وترك اولاده الثلاثة صغاراً قربهم المأمون وعنى بتعليمهم الحكمة وعلوم الأوائل فبرعوا فيها للغاية ولا سيما الرياضيات والحيل والآلات واتفقوا على نقل كتب اليونان وترجمتها اموالاً طائلة وهم الذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الارضية وصححوه وكان اجلهم أبو جعفر محمد توفي سنة ٢٥٩

(٤) ليس من اولاد موسى وكان منقطعا لخزانة كتب الحكمة للمأمون وبرع فى الفلك والعدد

(٥) هو حكيم المسلمين بلا مدافع والذى تخرج بكتبه الرئيس ابن سيناء والفارابى من اصل تركى من مدينة فاراب احدى مدن الترك فيما وراء النهر دخل بغداد فتعلم العربية ومهر بها ثم قرأ المنطق والفلسفة على أبى بشر متا بن يونس ثم ذهب الى حران بالجزيرة فقرأ على يوحنا ابن خيلان الحكيم ثم رجع الى بغداد ودرس وألف ، ثم رحل الى الشام ومصر ، ثم اقام بدمشق زمن سيف الدولة بن حمدان فأجرى عليه اربعة دراهم كل يوم حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩

(٦) هو من اهل الرى كان فى اول امره ضاربا بالعود ثم اكب على كتب الحكمة والطب وعانى بنفسه صناعة التحليل والكيمياء فاستنبط كثيراً من المركبات الكيمياوية مثل زيت الزاج (الحامض الكبريتى) والغول (الاسبرتو) وكان يقيم بالرى وبغداد ويتنقل بالبلاد ، وله اكثر من ٢٠٠ مؤلف

الشهير المتوفى سنة ٣٦٤ هـ والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو على الحسين[1] بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ وأبو الريحان أحمد بن محمد البيرُونى[2] الفلكى الرياضى المقوِّم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ

وكان لدولة الفواطم فى مصر اشتغال بهذه العلوم فاشتهر فى دولتهم فى الفلك والرياضيات ابن يونس[3] وفى الطب ابن رضوان[4] وغيرهما؛ ولم يُعْنَ أهل الأندلس بهذه العلوم عناية أهل المشرق ؛ وأشهر من نبغ منهم فيها أبو الوليد القاضى أحمد بن رشد وأبو القاسم الزهراوى ؛ ومن كتب هؤلاء الأئمة وأمثالهم اقتبس أهل (أوربا) كثيراً من أصول مدنيتهم الحاضرة .

الشعر

كان الشعر فى عصر صدر الإسلام ينبع من المعين الذى تنبع منه أئمة العربية وفحول الفصاحة أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة الفراتية ، فلما قرت دولة العرب فى العراق والأندلس أصبحت بغدادُ وقرطبة قبلةَ الشعراء ووجهةَ الأُدباء ، ومن لم يقصدهما للاقامة فى ظلال الخلفاء والملوك، قصدهما للنُّجعة والامتياح . ولم يمض على بغدادَ وقرطبةَ قرنٌ من تأسيس دولتيهما حتى صارتا عُشًّا للأدب وميدانًا لتسابق جياد الفحول فى كل فنّ ولاسيما الشعر . فقد كان له عند الخلفاء والوزراء والقوَّاد سوقٌ نافقةٌ حتى عند رؤساء الأعاجم من الديْلم والترك وحتى تكلف بعضُهم أن يُعانيه وينظمَه بل ينبغُ فيه . ودام كذلك الى انتهاء الدولة العباسية . وبهذه العناية العظيمة به وكثرةِ قائليه ومُنتحِليه تفنَّن الناسُ وأدخلوا عليه فنونًا لم تُعهَد فيه واستعملوه

(١) كان أبوه من بلخ عمل ببخارى للدولة السامانية فنشأ ابنه بها وتعلم من صغره الحكمة فبذ الاوائل والاواخر ، ولم يجئ فى الملة بعده من فاقه فيها عدا ما اهتدى اليه المحدثون في الطب الحديث ، وتنقل في اواسط آسياء وخدم فى الدولة السامانية والبويهية ووزر لاحد ملوكهم

(٢) بيرون من بلاد السند

(٣) هو ابو الحسن على الشهير بابن يونس صاحب الزيج الحاكمي في اربع مجلدات كبار وكان آية في الفلك والتنجيم والرياضيات مات سنة ٣٩٩

(٤) هو الطبيب المنجم علي بن رضوان مات سنة ٤٦٠

فى كل غرض حتى التعبُّد به، وتشكَّلَ أسلوبُه وتنوّعت معانيه بما يطابق أغراضَ استعماله ولكنهم لم يخرجوا بها فى الجملة عن أسلوب العرب فى ابتدائهم بالنسيبِ بالديار والأطلال : تذكاراً لوطنهم القديم ، وتظرُّفاً بالتشبُّه بالعرب. على أن النسيبَ بمثل هذه الأمور لم يعُدْ ملتزَماً فى مطالع القصائد منذُ صدر الدولة العباسية ، بل كثيراً ما كان يحل محلَّه ذكرُ القصور ونعيمِ العيش وصُحبةِ اخوان الطرب وغناء القِيان والرحلة الى الممدوح على السفن ونحو ذلك ، أو يستبدل به ذكرُ الخمر وأوصافها والحثُّ على اصطباحها واغتباقها ، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد حتى تعدّاه الى التنديد بالنسيبِ بالاطلال وتهجينِ من يلهج بذكرها[1]

أما التغيرات التى طرأت على الشعر إبّان الدولة العباسية فهى :

أولًا – ما يتعلق بفنون الشعر وأغراضه

ثانيًا – ما يتعلق بلفظه وأُسلوبه

ثالثًا – ما يتعلق بمعانيه وأخيلته

رابعًا – ما يتعلق بأوزانه وقافيته

الأمور التى حدثت فى فنون الشعر وأغراضه

(١) زيادةُ استعماله فى اثارة العصبية والمفاخرة فى النسب[2] والمذهب السياسى[3] والدينى والعلمى[4]

(٢) زيادةُ استعماله فى الأغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريض

(١) يظن ان اول من خلع هذا التقليد أبو نواس فى جملة قصائد له . راجع ديوانه

(٢) اما بين العرب والعجم كما فى شعر بشار وعبد الله بن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من طوائف الشعوبية، واما بين اليمانية والمضرية كما فى شعر مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وأبى نواس وخلف الاحمر

(٣) كالمفاخرة بين شيعة آل أبى طالب وآل العباس كما فى شعر مروان بن أبى حفصة والسيد الحميرى وعلى بن الجهم ودعبل الخزاعى

(٤) كما فى شعر أبى محمد اليزيدى وغيره

وُلاةِ الأمور وتهديدِهم وانتقادِ أعمالهم فى شعر كثير من شعراء الدولة

(٣) الإغراقُ فى التملق المَشين فى شعر أغلب شعراء الدولة ، وذلك لكثرة المشتغلين بالشعر من الأدباء، وقلة موارد الكسب الشريف فلم يجد الشاعر سوقاً رائجة لبضاعته الاَّ أبوابَ الخلفاء ولايرى لنفسه شعراً أسيرَ ولاجائزةً أربى الاَّ بمديح أغرق فيه وخرج به عن الذوق بل العقل بل الشرع

(٤) الإقذاعُ فى الهجاء والتصريحُ المعيبُ بأسماء العَوْرات والتعرّض للحُرَم لتناقُص الوازع الدينى وازدياد الزنادقة وفُجّار المَوالى والكُتّاب بعدوى تمازُج الأخلاق والعادات

(٥) الغزلُ بالمذكر والاستقصاء فيه حتى غلبَ على ما سواه[1]

(٦) اغراقُ شعراء المسلمين فى وصف الخمرة وتشبيهها والدعوة اليها والنشوة بها وذكر سُقاتها ونُدمائها[2]

(٧) ازدياد المُجُون والتهتُّك وحكاية المخازى والفسوق ونحو ذلك

(٨) ازديادُ وصف الرياض والبساتين والقصور ومجالسِ الأُنس وأحوال الطبيعة ومصايد الوحوش والطير والسمك والأُمور الدقيقة

(٩) ازديادُ الوعظ والتزهيد فى الدنيا والحكمة وضرب المثل[3]

(١٠) تأديب النفس والقصصِ والحكايات ، وأوّل من فعل ذلك أبَانُ بن عبد الحميد اللاحق[4] ناظمُ كليلةَ ودِمنة للبرامكة

(١١) ضبطُ قواعد العلوم من فقه وغيره[5]

(١) كما فى شعر والبة بن الحباب وابى نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وغيرهم

(٢) كما فى شعر ابى نواس ومن تابعه

(٣) كما فى شعر ابى العتاهية وبقية الصوفية

(٤) هو مولى الرقاشيين بصرى ذهب الى بغداد واتصل بالبرامكة ومنحوه على نظم كليلة ودمنة خمسة عشر الف دينار

(٥) واكثر من ذلك بعد أبان بن عبد الحميد اللاحق أبو العتاهية ومن بعده

الأمور التى حدثت فى المعانى والأخيلة الشعرية

(١) ترتيبُ الأفكار وأخذ بعضها بحُجَز بعض بحيث قلَّ الاقتضابُ وشذوذَ الانتقال من معنى الى مباين له كما كان يقع كثيراً فى الشعر القديم

(٢) استعمالُ الخيال الفرضى الوهمى الذى لا يتصوَّر تحقُّقه فى الخارج أو فى الذهن مما يستدعيه الغلوُّ والتغلغُل فى المدح أو الهجو أو التشبيه

(٣) اختراعُ الأخيلة الجميلة التصور فى التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل

(٤) الاستدلالُ بالحكم والأمثال وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك [١]

الأمور التى حدثت فى لفظ الشعر وأُسلوبه

(١) هجرُ الألفاظ الغريبة بالتدريج

(٢) زيادةُ دخول الكلمات الأعجمية فيه تظرُّفاً كما فى شعر أبى نواس وغيره

(٣) رقةُ الأسلوب مع بقاء الجزالة ووضوح المعنى

(٤) اختراعُ البديع والاستكثارُ من أنواعه

الأمور التى حدثت فى الأوزان الشعرية والقافية

(١) الاكثارُ من النظم فى البحور التى لم تنظِم منها العربُ الاَّ قليلاً

(٢) اختراع أوزان ولَّدها الخليل من عكس دوائر بحوره ونظم منها كثيرٌ من المولدين

(٣) اختراع أوزان أخرى كبعض أوزان اخترعها مسلمُ بن الوليد ونظم منها

(١) كما فى شعر صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية وابى تمام والمتنبي وابى العلاء المعرى وغيرهم

وكالمواليا[١] وزاد هـذا الأمر تفاقماً اختراع الموشحات[٢] والزجل[٣] فى أواخر الدولة العباسية

ومن الأمور التى حدثت فى القافية

(١) المخمّس : وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى الى آخر القصيدة

(٢) المزدوج[٤] : وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافيـة أخرى ، واكثروا منه جدًّا فى نظم كتب الأدب والعلوم كما فى نظم الألفية

الشعراء

لم يقْصر الشعر على الموالى فى صدر الدَّولة العباسية كالكتابة بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أعراب البادية أحياناً ومن سلائل العرب بالأمصار أُخرى ، غير أن بضعة من فحول صدر الدولة كانوا موالى مثـل بشار وأبى نُواس ومسلم وأبى العتاهيَة وابن الرومى

ومن أشهر شعراء الأمصار من العرب أبو تمّام والبحترى وابن المعتز والمتنبى وأبو فِراس وأبو العَلاء المعرّى وابن هانئ الأندلسىّ والشريف الرضى

١ — بشَّارُ بنُ بُرْد

هو أبو مُعاذٍ بشارُ المُرَعَّثُ[٥] بنُ بُرْد أشعرُ مُخَضْرَمى الدولتين ورأسُ الشعراء

(١) وأول من اخترعه مولاة للبرامكة كانت ترثيهم به وتصيح بعد كل قطعة منه (واموالياه) فحملت الى الرشيد، وكان قد تقدم بمعاقبة من يرثيهم بشعر فقالت الجارية ليس هذا شعراً لانه عامى ملحون (وان جاء على وزن البسيط) فسمى نظمها المواليا لصياحها

(٢) اخترعها مقدم بن معافر الفريرى من الاندلسيين واخذ عنه احمد بن عبد ربه صاحب العقد

(٣) اخترع بعد التوشيح فى الاندلس أيضاً وبرع فيه امام الزجالين ابو بكر بن قزمان

(٤) يقال ان اول من نظمه بشار ثم تبعه ابان وابو العتاهية

(٥) لأنه كان فى اذنه (رعثة) أى قرط

المحدَثين ، ومُمَهِّد طريق الاختراع والبديع للمتفننين ، وأحد البلغاء المكفوفين

منشؤه

وأصله من فُرس طُخارستان(١) من سَبْي المُهلَّب بن أبي صُفرة ووقع مِلْكَ أبوَيْه لبني عُقَيل بن كعب . فنشأ بشارٌ فيهم، وتربى في منازلهم، واختلف الى الاعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر، وكان أكمه مجدور الوجه قبيحَ المنظر، مفرطَ الطول، ضخمَ الجثة، متوقّدَ الذكاء، صادقَ الحس، لطيفَ الهداية. شديدَ المجون والاستخفاف بالناس ، كثيرَ الاستهتار بالدين ، قليلَ المبالاة بالوقوع فيه، متهماً بالزندقة شعوبياً متعصباً على العرب شديدَ التبرم(٢) بالناس نهاشاً لأعراضهم لا يسلم من لسانه خليفةٌ ولا سُوقة ، وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألاّ يعرفَ بشاراً ولا بشارٌ يعرفه : فانه ان لم يُصِبْه في عرضه أصابهُ في ماله

وصف شعره

وقال بشار الشعر ولم يبلغ عشرَ سنين وما بلغ الحلمَ الاّ وهو مَخْشيٌّ مَعَرَّةُ لسانه

وقد أجمع رواةُ الشعر ونقدتُه على أن بشاراً هو رأسُ المحدثين وأسبقهم الى مُعاطاة البديع وطَرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضري والهجاء المُقْذِع وانهُ أوّل من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدَثين وفتَق عن المعاني الدقيقة والأخيلة اللطيفة حتى عُدَّ شعره برزخاً بين الشعر القديم والحديث ومجازاً يَعبُر عليه الشعرُ من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة

وقد طرق كلَّ باب من أبواب الشعر التي عُرِفت قبلَه وأربى عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبُّبُ بالنساء والخروجُ به عن الحد المألوف عند أهل زمنه حتى انكره عليه العلماء والمتورّعون لما رأوْا من سوء أثره في شُبّان البصرة

وقد نهاه المهديُّ عن التشبيب فكان اذا مالت له نفسُهُ يذكر منهُ ما يشاء ويقول إن الخليفة منعَه من كذا وكذا وأنهُ له مطيعٌ

وضمَّن ذلك بعضَ قصائد مدح بها الخليفةَ فلم يزد على أن حرمه الجائزةَ ، وشجّعهُ على ذلك وزيرُه يعقوبُ بنُ داود وكان متورّعاً فهجاهما فكان ذلك الى زندقته

(١) اقليم بناحية ما وراء النهر على جيحون
(٢) التضايق بالناس

سببَ قتله سنة ١٦٨ ؛ وهاجى بشارٌ الشعراء المُفلقين ونصَبَ له منهم حمّادُ عجْرِدٍ واحتدم بينهما اللَّجاجُ والتقاذُفُ بالأقوال المقذعة وظهر حمّادٌ عليه في بعض أهاجيه وآلَمهُ وان لم يُسقط منزلته

ومن شعره في المشورة والحكم والنصائح

طائفة من شعره

قوله :

اذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعن ... برأي نَصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولاتجعل الشُّورى عليك غضاضةً(١) ... فانّ الخوافي قوةٌ للقوادمِ
وما خيرُ كفٍ أمسك الغُلُّ(٢) أختَها ... وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائمِ
وخلِّ الهُوَيْنى(٣) للضعيف ولاتكن ... نئوماً فانّ الحرَّ ليس بنائمِ

وقوله :

اذا كنتَ في كل الأمور معاتباً ... صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبُهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فانه ... مُقارِفُ(٤) ذنبٍ مرةً ومُجانبُهْ
اذا أنت لم تشرَبْ مراراً على القذَى ... ظمِئتَ وأيُّ الناس تصفو مشاربُهْ

وقوله :

خليليَّ إنّ المالَ ليس بنافعٍ ... اذا لم ينَلْ منهُ أخٌ وصديقُ
وكنتُ اذا ضاقت عليَّ محلةٌ ... تيممتُ أخرى ما عليَّ مَضيقُ
وما خاب بين الله والناس عاملٌ ... له في التقى أو في المحامد سُوقُ
وما ضاق فضلُ الله عن متعفّفٍ ... ولكنَّ أخلاقَ الرجال تضيقُ

٢ — أبو نواس

هو أبو عليّ الحسنُ بن هانئ الشاعرُ المتفنّنُ الجادُّ الماجنُ، صاحبُ الصِّيت الطائر والشعرِ السائر، ورأسُ المحدَثين بعدَ بشار

(١) مذلة ونقيصة (٢) حديد أو حبل تشد به اليد الى العنق
(٣) تصغير الهونى مؤنث الأهون ومعناها التباطؤ والتمهل (٤) جان

منشؤه

وهو فارسى الأصل ولد بقريةٍ من كورة خوذستان[1] سنة ١٤١ ونشأ يتيماً فقدمت بهِ أُمه البصرةَ بعد سنتين من مولده فتعلم العربيةَ ورغب فى الأدب فلم تَعبأ أُمُّه بمحاله وأسلمته الى عطار بالبصرة، فمكث عنده لايفترُ عن مُعاناةِ الشعر والاختلاف الى الأُدباء والمُجّان الى أن صادفه عند العطار والبة بن الحُباب الشاعرُ الماجنُ الكوفىُّ فى احدى قَدَماته الى البصرة فأُعجِبَ كلٌّ منهما بالآخر، فأخرجهُ والبة معه الى الكوفة فبقِىَ معهُ ومع ندمائه من خُلَعاء الكوفة، وتخرَّج عليهم فى الشعر وفاقهم جميعاً. وقدِم بغدادَ وقد أربتْ سنُّه على الثلاثين فاتصل ببعض الأُمراء ومدحهم وبلغ خبرُه الرشيدَ فأذن لهُ فى مَدْحه فمدحه بقصائد طنانة

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحُهم، ومنهم الخصيب عاملُ مصر، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد سنة ١٩٩

صفة شعره

وكان أبو نواس جميلَ الصورة، فَكِهَ المَحْضَر، كثيرَ الدُّعابة، حاضرَ البديهة، متيناً فى اللغة والشعر والأدب متعصِّباً لليمانيَة على المُضَرية ... اكثرُ علماء الشعر ونقدتُه وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعرُ المحدَثين بعد بشار وأكثرُهم تفنناً، وأرصنُهم قولاً، وأبدعُهم خيالاً مع دقة لفظ وبديع معنى. وأنه شاعرٌ مطبوع برَّزَ فى كلِّ فن من فنون الشعر، وامتاز من كل الشعراء بقصائده الخمريات ومقطّعاته المجُونيات. وكان شعرُه لِقَاحَ الفسادِ والقُدوةَ السيئة لنقلة الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم، اذ لم يكن ذلك معروفاً قبلَه وقبل شيطانه والبة، وزاد على ذلك انفراده بالابداع فى وصف الخمر وصفاً لم يخطر ببال أحد ممن تقدّمه من المسلمين فصار نَموذَجَ سوء لمن تأخر، فافْتَتَنَ بشعره الشبان فى زمانه وبعده وحاكَوْه، وغلب عليهم هذا المذهبُ حتى صار الشاعرُ لا يُعَدُّ ظريفاً الَّا اذا مزج شعرَه بشىء من ذلك وإن لم يقع فى محظوراته

(١) شرق البصرة

طائفة من شعره

ومن جيد شعره قوله فى التشبيب والمدح:

تقولُ غداةَ البين احدى نسائهم ... لى الكبِدُ الحرَّى فسِرْ ولك الصبرُ
وقد خضَبَتها عَبْرَةٌ فلدمعها ... على خدِّها خدٌّ[1] وفى نحرها نحرُ[2]
وقالت: الى العباس؟ قلتُ: فمن اذاً؟ ... ومالى عن العباس مَعْدًى[3] ولا قَصْرُ!
فهل يُكفلَنَّ الَّا براحته الندى؟ ... وهل يزهوَنْ الَّا بأوصافه الشُّكرُ

وقوله لما حضرته الوفاة:

يا رب ان عظمت ذنوبى كثرةً ... فلقد علِمتُ بأن عفوك أعظمُ
ان كان لا يرجوك الَّا محسن ... فبمن يلوذُ ويستجير المجرمُ
أدعوك رب كما أمرت تضرُّعاً ... فاذا رَدَدْتَ يدى فمن ذا يرحمُ؟
مالى اليك وسيلة الَّا الرجا ... وجميلُ عفوك ثم إنى مُسْلِمُ

ومن أبياتهِ السائرة قوله فى ذم الدنيا:

اذا امتحن الدُّنيا لبيبٌ تكشَّفت ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ

وقوله فى الشكوى وسوء الحال:

ولو أنى استزدتُك فوق ما بى ... من البلوى لأعجزك المَزيدُ
ولو عُرِضتْ على الموتى حياةٌ ... بعيشٍ مثل عيشى لم يُريدوا

٣ — مسلم بن الوليد

هو صريع الغوانى أبو الوليد مسلمُ بن الوليد الانصارى أحدُ الشعراء المفلقين والبلغاء المُبْدِعين

منشؤه

قال الشعر فى صِباه ولم يتجاوزْ به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، وينفقهُ على مَلَذّاته مع اخوانه من خُلَعاء الشعراء، ثم انقطع الى يزيد بن مَزْيَد الشَّيْبانى قائد الرشيد ثم اتصل بالخليفة هرونَ الرشيد وعُدَّ من شعرائه ومدحه ومدح البرامكةَ وحَسُنَ رأْيُهم فيه؛ ولما أصبح الحلُّ والعقد بيد ذِى الرياستين: الفضل بن

(١) شق (٢) شق ايضاً (٣) اى تجاوزا لانه مصدر ميمى من عدا بمعنى تجاوز

سهل وزير المأمون فى أوّل خلافته، قرّبه وأدناه : لأنهُ كان من خاصته قبل وزارته وولّاه أعمالاً بجُرْجان اكتسب منها ألفَ ألفِ درهم ثم لزِم منزلَه الى أن أنفقها فى الكرم والسخاء وعاد الى الفضل فقلده الضياعَ بأصْبَهان فاكتسب منها ألفَ ألف أيضاً، ولما قُتل الفضلُ لزم منزلَه ونسَك ولم يمدح أحداً حتى مات بجُرْجان[1] سنة ٢٠٨

وصف شعره — ومسلم أوّل من تكلّف البديعَ فى شعره واستكثر منهُ فى قوله ، وسبقه بشارٌ الى ذلك الّا أنهُ لم يبلغ شأوَ مسلم فيه وقد عدَّ العلماء هذا التصنعَ والتكلفَ إفساداً للشعر اذ قد تبِعهُ فى ذلك الشعراء مثل أبى تمام والبُحترى وابن المعتز وغيرهم

وقد مزج مسلمٌ كلامَ البدويّين بكلام الحضَريين فضمّنهُ المعانىَ اللطيفةَ وكساه الألفاظَ الظريفةَ . فله جزالةُ البدويّين ورقةُ الحضريين

طائفة من شعره — ومن كلامه فى المدح :

وَرَدْنَ رِواقَ الفضلِ فضلِ بن خالد   فحطَّ الثناء الجزلَ نائلُه الجَزْلُ
بكفّ أبى العباس يُستمطَرُ الغنى   وتُستنْزَلُ النُّعمى ويُسترعَفُ[2] النَّصْلُ
ويُستعطَفُ الأمرُ الأبىُّ بحزمه   اذا الأمرُ لم يعطِفْه نقضٌ ولاَ فَتْلُ

ومن هجائه لدِعبل الخزاعى

أما الهجاء فدَقَّ عرضُك دونَه   والمدحُ عنك كما علمتَ جليلُ
فاذهبْ فأنتَ طليقُ عِرضِك إنه   عِرضٌ عززْتَ بهِ وأنت ذليلُ

ومن جيد قوله :

أرادوا ليُخْفُوا قبرَه عن عَدُوّه   فطيبُ تُراب القبر دلَّ على القبرِ

يجود بالنّفس إن ضنَّ الجوادُ بها   والجودُ بالنفس أقصى غاية الجُودِ

٤ — أبو العتاهية

هو أبو اسحق اسمعيلُ بن القاسم بن سُوَيْد ، أطبعُ أهل زمانه شعراً وأكثرُهم

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرقى منه
(٢) رعف سال بالدم أى يستدمى السيف

قولاً وأسهلُهم لفظاً وأسرعهم بديهة وارتجالاً وأوّلُ من فتح للشعراء بابَ الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها وأكثر من الحكمة

منشؤه — ولد بالكوفة سنة ١٣٠ ونشأ فى عمل أهله وكانوا باعةَ جِرار الّا أنهُ ربأ بنفسه عن عملهم . وقال الشعرَ فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه (لو شئتُ أن أجعل كلامى كلَّهُ شعراً لفعلتُ) فذاع صيتهُ وسلك طريقَ خُلعاء الكوفة ثم قدم بغداد ومدح المهدىَّ وتعرَّفَ ببعض خدَم قصر الخلافة وجواريه فتعشَّقَ منهنَّ فتاةً تدعى عُتْبَةَ ولما يئس منها لها عنها بعضَ الشىء ، ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين والشيعةِ والجَبْرِيةِ والزُّهاد فكان يسلُك كلَّ مذهبٍ منها مدةً ثم ينتقل عنهُ الى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدةً مختلطةً أفضتْ بهِ الى العبادة والزهد فى الدنيا قولاً ومعيشةً على إفراط منهُ فى حب المال والجمع له والبُخْل به على الأهل والولد والخدم

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزَل وقصر قولَه على الزهد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفةَ وملوكَ الدولة ويأخذ جوائزَهم ثم عرضت له حالٌ امتنع فيها عن قول الشعر بتّةً حتى حبسه الرشيدُ لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ثم أطلقه بعد أن أجاب طِلْبَتَه وعاد الى قول الشعر على عادته فيه ؛ وترك الغزلَ والهجاء وبقى على ذلك مدّةَ الرشيد والأمين وأكثرِ أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ ببغداد

ومن شعره يمدح المهدى

نبذة من شعره —

أتتْــه الخلافةُ مُنقادةً   اليــهِ تجرِّرُ أذيالَها
فلم تك تصلُح الّا له   ولم يكُ يصلح الّا لهــا
ولو رامهـــا أحدٌ غيرُه   لزُلزِلتِ الأرضُ زلزالَها
ولو لم تُطِعْهُ بناتُ القلوب   لما قبلَ اللهُ أعمالَهــا
وان الخليفة من بُغضِ لاَ   اليهِ ليُبغضُ مَن قالَهــا

وكتب على البديهة فى ظهر كتاب

ألا إننا كلُّنا بائدُ وأىُّ بنى آدمٍ خالدُ
وبدؤُهمُ كان من ربهمْ وكلٌّ الى ربِّه عائدُ
فياعجباً كيف يعصى الالـــهَ أم كيف يجحَدُه الجاحدُ
ولله فى كلّ تحريكةٍ وفى كلّ تسكينةٍ شاهدُ
وفى كلّ شىءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنهُ واحدُ

ومن حكمه وأمثاله مزدوجتهُ التى ضمَّنها أربعةَ آلاف مثل ، ومنها :

حسبُك مما تبتغيه القوتُ ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ
هى المقاديرُ فلُمنِى أو فذَرْ إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ

ومنها :

ان الشبابَ والفراغَ والجِدهْ مَفْسدةٌ للمرءِ أىُّ مَفْسَدهْ

٥ — أبو تَمَّام

هو أبو تمام حبيبُ بنُ أوسٍ الطائىُّ أسبقُ ثلاثةِ الشعراء الذين سارتْ بذكرهم الرُّكبانُ . وخلَّد شعرَهم الزمانُ . ثانيهم البحترىُّ ، وثالثُهم المتنبىُّ . والمشهور فى نسبه أنهُ عربى طائى[1] ولد سنة ١٩٠ بقرية جاسِم من أعمال دمشقَ ، وكان أبواهُ فقيرين ، ونُقل صغيراً الى مصر فنشأ بها فقيراً وكان يسقى الماء بالجَرَّة فى جامع عمرو ولعل طولَ مُقامه بالمسجد (وهو يومئذٍ عش العلماء) حبب اليه العلم والأدب فتعلم العربيةَ وحفِظَ ما لا يُحصى من شعر العرب ونبغ فى قوله ، ثم خرج الى مقرّ الخلافة فمدح المعتصمَ وحظِىَ عنده ومدح وزيرَه محمدَ بن الزيات[2] والحسنَ بنَ وَهب[3]

منشؤه

(١) اختلف فى صحة نسبه الى طى فكثير يقول ان أباه كان نصرانيامن أعاجم الشام وكان اسمه (تدوس) فغير الى (أوس) ونحن نرجح رأى من يقول بعربيته ومنهم صاحب الاغانى الذى يقول فيه انه (من نفس طى صلبية)

(٢) هو الوزير العظيم الشاعر الكاتب السياسى الجبار محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل نكبه المتوكل لحقد قديم وعذبه حتى مات سنة ٢٣٣

(٣) أجداد آل وهب وذريتهم أهل كتابة وبلاغة كتبوا للامراء والخلفاء منذ صدر الاسلام الى أواسط الدولة العباسية

صاحبَ ديوان رسائله وغيرَهم ، ورحل الى كبار العُمال بممالكهم ومدحهم بالقصائد الخالدة ، وقربوه منهم الى حد الصداقة والإخاء ورغبوا به عن التكسب بالشعر فولَّاه الحسن بن وهب بريد الموصل فأقام بها الى أن مات[1] سنة ٢٣١ هـ

وكان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام فيهِ تمتمة يسيرة ، حاضر الذهن ، سريع الجواب قلَّما عرُف من أهل زمانه مثلُه فى حِدّة الخاطر ولطافة الحِس

صفة شعره

ويُعَدُّ أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المُحدَثين ، انتهت اليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهرَ والدنيا قد مُلِئت بترجمة علوم الأوائل وحِكَمها : من اليونان والفرس والهند فحصُف عقلُه ولطُف خيالُه بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويدَ المعنى على تسهيل العبارة ، وكان أوَّلَ من استكثر من الحِكَم والأمثال فى القصائد والاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، والكنايات الخفية ، ولو أفضى بهِ ذلك الى التعقيد أحياناً ، وحاول ستر ذلك بالجناس والطباق والاستعارة فسلِم له بعضُها واعتلَّ عليه بعضُها ، فأتى من الجناس بما التاثَ به شعرُه وصار كالكلَف فى صفحة البدر ، ومع هذا قد سلِمَ له من كلامه جملةٌ لم يحُمْ حولها سابقٌ ، وعجَز عن مُحاكاتها كلُّ لاحق

وهو الذى مهَّد طريقَ الحِكَم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء وغيرهما ؛ ولذلك كان يقال ان أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر هو البحترى

ولم يُرزَق أحدُ السعادةَ فى شعره وتناوُلَ الناس له نقداً وشرحاً واشتهاراً به مثل هؤلاء الثلاثة

وأجاد أبو تمام فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلَق بها أحدٌ جاش صدره بشعر

نموذج من شعره

وأشهرها القصيدةُ التى رثى بها محمدَ[2] بن حُمَيْد الطائى ، ومنها :

كذا فليَجِلَّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمرْ فليسَ لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عُذْرُ

(١) فى مولد أبى تمام ووفاته روايات عديدة اخترنا منها هذه

(٢) هو ابو نصر محمد بن حميد وهو واخوته من شيعة الدولة العباسية وأنصارها وقوادها قتل فى احدى وقائع الخرمية أصحاب بابك الخرمى

تُوفيتِ الآمالُ بعد محمد   وأصبح فى شُغلٍ عن السَّفْرِ السَّفْرُ
وما كان الأ مالَ من قلَّ مالُه   وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جودِ كفِّه   اذا ما استهلّتْ أنهُ خُلِقَ العُسْرُ
ألاَ فى سبيل الله من عطلت له   فِجاجُ سبيل الله وانثغرَ الثَّغْرُ
فتى كلما فاضت عيون قبيلة   دماً ضحكت عنهُ الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبُه   ففى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة   تقوم مقامَ النصر إنْ فاته النصرُ
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه   من الضرب واعتلت عليه القَنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه   اليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تَعاف العارَ حتى كأنما   هو الكفرُ يوم الرَّوْع أو دُونَه الكفر
فأثبتَ فى مُسْتَنقَعِ الموت رجلَه   وقال لها من تحت أخْمَصِك الحشر
غدا غُدْوة والحمد نسج ردائه   فلم ينصرف الا وأكفانهُ الأجر

ومنها :

فتى كان عذبَ الروح لا من غضاضةٍ   ولكنَّ كبرا أن يقالَ به كِبرُ
فتى سلبتْه الخيل وهو حمًى لها   وبزَّته نار الحرب وهوَ لَها جمرُ

وله من قصيدة يمدح بها الحسنَ بن رجاء[1]

لا تنكرى عَطَلَ الكريم من الغنى   فالسيل حربٌ[2] للمكان العالى
وتنظرى[3] خبَبَ[4] الركاب[5] ينصّها[6]   محيى[7] القريض الى مميت المال

ومن قوله فى الحجاب

يأيها الملك النائى بغرّته   وجوده لمرجّى جوده كَثَبُ[8]
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملا   ان السماء ترجّى حين تحتجب

(١) من رؤساء الكتاب فى دولة المأمون والمعتصم
(٢) أى محارب (٣) انتظرى (٤) سرعة سير (٥) ابل السفر
(٦) يسوقها (٧) يريد نفسه (٨) قريب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صوّرت نفسَك لم تزدْها   على ما فيك من كرم الطباع

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عَمُّورية ويسخر بالمنجمين وأوّلها :

السيف أصدق أنباء من الكتب   فى حدّه الحد بين الجِد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى   متونهن جلاء الشك والرِّيَب

ومن قوله :

واذا أراد اللهُ نشرَ فضيلة   طويت أتاح لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النار فيما جاورت   ما كان يُعرَفُ طيبُ عَرْفِ العود

٦ – البُحتُرِى[1]

هو أبو عُبادةَ الوَليدُ بن عُبَيْدٍ الطائىُّ الشاعرُ المطبوعُ ، أشهر من استحق لقب (شاعر) على الاطلاق بعد أبى نواس

منشؤه وُلد سنة ٢٠٦ بناحية مَنْبِج[2] فى قبائل طىّ وغيرها من البدو الضار بين فى شواطئ الفُرات ، ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحةُ العرب ولازَم وهو فتى أبا تمام وعليه تخرّج واقتبس طريقته فى البديع بغير افراط، وخرج الى العراق وأقامَ فى خدمة المتوكل والفتح ابن خاقان محترماً عندهما، مَرْعىَّ الجانب الى أن قُتلا فى مجلس كان هو حاضرَه فرجَع الى منبج، وبقى يختلف أحياناً الى رؤساء بغداد وسُرَّ مَن رأى حتى مات سنة ٢٨٤هـ

وكان على فضله وفصاحته ورقة كلامه وبديع خياله من أبخل خلق الله وأوسخهم ثوباً وأبغضهم إنشاداً . وأكثرهم فخراً بشعره، حتى كان يقول اذا أعجبه شعرُه أحسنتُ والله، ويقول للمستمعين : مالكم لا تقولون أحسنت؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله

والكثير على أنه لم يأت بعد أبى نواس من هو أشعر من البحترى ولا بعد البحترى

(١) نسبة الى بحتر بطن من طى (٢) بين الفرات وحلب

من هو أطبع منهُ على الشعر ولا أبدع منه فى الخيال الشعرى؛ ولنشأته البدوية ابتعد فى شعره عن مذاهب الحضريين ونعمتهم وفلسفتهم فكان شعره كله بديع المعنى حسن الديباجة، صقيل اللفظ، سلس الأسلوب، كأنهُ سيل ينحدر الى الأسماع، مجوّداً فى كل غرض سوى الهجاء، ولذلك اعتبره كثير من أهل الأدب هو الشاعر الحقيق واعتبروا أمثال أبى تمام والمتنبى والمعرى حكماء، ولسهولة شعره ورقته كان أكثر الأصوات التى يتغنى بها فى زمنه من شعره، وله ديوان كبير طبع فى جزأين فى الأستانة وغيرها وصف شعره

ومن أحسن قوله : نبذة من شعره

دنوتَ تواضعاً وعلوت مجداً   فشأناك انحدار وارتفاع

كذاك الشمس تُبعد أن تُسامى   ويدنو الضوء منها والشعاع

ومن قوله فى سُرَى الليل وطلوع الفجر :

ولقد سريت مع الكواكب راكباً   أعجازها[١] بعزيمة كالكوكب

والليل فى لون الغراب كأنه   هو فى حُلوكته[٢] وان لم ينعب[٣]

والعيس[٤] تنصل[٥] من دجاه كما انجلى   صبغ الخضاب عن القذال[٦] الأشيب

حتى تبدى الفجر من جنباته   كالماء يلمع من خلال الطحلب[٧]

ومن قوله فى الحكمة :

اذا ما نسبت الحادثات وجدتَها   بناتِ زمان أُرصِدتْ لبنيه

متى أرت الدنيا نباهةَ خامل   فلا ترتقب الاّ خمولَ نبيه

ومن قوله فى مدح الخليفة المتوكل يصف موكب خروجه لصلاة عيد الفطر وخطبته فى الناس

بالبرّ صمتَ وأنتَ أفضلُ صائم   وبسنة الله الرضيّة تُفطرُ

(١) مآخيرها (٢) فى شدة سواده وظلامه (٣) نعيب الغراب صياحه
(٤) الابل البيض (٥) تخرج
(٦) شعر مؤخر الرأس (٧) ما يطفو على وجه الماء الآسن من الخضرة

فانعم بيوم الفطر عيناً إنهُ   يومٌ أغرُّ من الزمان مُشَهَّرُ

أظهرتَ عزَّ الملك فيه بجحفل   لجِب يُحاطُ الدّين فيه ويُنصَرُ

خلنا الجبالَ تسير فيه وقد غدتْ   عُدداً يسير بها العديدُ الأكثرُ

فالخيل تَصهلُ والفوارسُ تدّعى   والبيض تلمَع والأسنةُ تَزْهَرُ

والأرضُ خاشعةٌ تَميد بثقلها   والجوُّ معتكِرُ الجوانب أغبرُ

والشمس طالعة تَوَقَّدُ فى الضحى   طوْراً ويُطفئُها العجاجُ الأكدرُ

حتى طلعتَ بضوءِ وجهك فانجلى   ذاكَ الدُّجى وانجاب ذاكَ العِثْيَرُ

فافتنَّ فيك الناظرون فإصْبَعٌ   يُومأ اليك بها وعينٌ تنظرُ

يجدون رؤيتَك التى فازوا بها   من أنعُمِ الله التى لا تُكفَرُ

ذكروا بطلعتك النبيَّ فهلَّلُوا   لمّا طلعتَ من الصفوف وكبّروا

حتى انتهيتَ الى المُصَلَّى لابساً   نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرُ

ومَشَيْتَ مِشيةَ خاشعٍ متواضعٍ   لله لا يُزهَى ولا يتكبرُ

فلو انَّ مُشتاقاً تكلَّفَ فوق ما   فى وُسعه لسعى اليك المنبرُ

أبديتَ من فصل الخطاب بحكمة   تُنبى عن الحق المُبين وتُخبِرُ

ووقفتَ فى بُرْد النبيّ مذكّراً   بالله تُنذِر تارةً وتُبشِّرُ

٧ — ابن الرّومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُريج الرّومى مولى بنى العباس، الشاعر المكثر المطبوع، صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، والمعانى المخترعة، والأهاجى المقذعة ولد ببغداد سنة ٢٢١ ونشأ بها، وأقام كل حياته، وكان كثير التطيُّر جدًّا وله فيه أخبار غريبة حتى كان أصحابه اذا أرادوا أن يعبثوا به، أرسلوا اليه من يتطيَّر من اسمه فلا يخرج من بيته، ويمتنع من التصرف سائرَ يومه؛ وكان القاسم بن عُبيد الله وزيرُ المعتز يخاف هجوه وفلتاتِ لسانه، فيقال انه دسّ عليه مَن أطعمه خُشْكَنانة[١] مسمومة فأكلها ثم أتى منزله وأقام به أياماً ومات سنة ٢٨٣ ببغداد، وقيل بل مرض

(١) ترادف ما يسمى الان (بسكوتا)

صورة شعره

ووصف له الطبيبُ دواء فيه سُم فغلَط فى مقداره وأكثر منه فمات. وقال ابن الرومى الشعر فى كل غرض ولا سيما الوصفِ والهجاء، ونبَغ فى الشعر نبوغاً لم يقصّر به كثيراً عن درجة البحترى ، وربما فاقه فى اختراع المعانى النادرة أو توليدها من معانى من سبقه بشكل جديد، ووضعها فى أحسن قالَب؛ وكان اذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غيره لا يزال يستقصى فيه وينظمه بوجوه مختلفة حتى لا يدع فيه بقية؛ وهو ممن جمع صِقال اللفظ وإجادة المعنى، ويكفيه فضلاً أن يكون المتنبى أحدَ رواة ديوانه والآخذين عنه؛ وكان يكثر القول فى مطوّلاته . فيرذل منها الكثير . وله ديوان كبير يطبعه الوزير الخطير احمد حشمت باشا، ويشرحه الأستاذ الجليل محمد سليم شريف

نبذة من شعره

ومن معانيه البديعة قوله :

وإذا امرؤٌ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه

لو لم يقدِّر فيه بُعدَ المستقى ... عند الورود لما أطال رِشاءه[1]

وقوله :

كأنّ آذَرْيُونَها[2] ... والشمسُ فيه كالية[3]

مَدَاهن[4] من ذهب ... فيهـا بقايا غالية[5]

وقوله فى صانع الرُّقاق :

ما أنسَ[6] لا أنسَ خبازاً مررت به ... يدحو[7] الرُّقاقةَ مثلَ اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفّه كُرَةً ... وبين رؤيتها قَوْراء[8] كالقمر[9]

الاَّ بمقـدار ما تَنداح[10] دائرةٌ ... فى لُجَّة الماء يلقَى فيـه بالحجر

(١) حبله (٢) هو نوع من زهر الاقحوان يختلف لونه، ومنه ما لونه ذهبى فى وسطه رأس صغير اسود (٣) من كلا بصره فى الشئ، ردّده فيه

(٤) جمع مدهن (بضم الميم والهاء) وهى حقة الدهن ووعاؤه

(٥) هى نوع من الطيب مركب من عدة أخلاط، قيل انها اخترعت لمعاوية بن أبى سفيان

(٦) (ما) شرطية و (انس) فعل الشرط و (لا أنس) جوابه – والمعنى ان نسيت شيئاً لا أنس كذا (٧) يبسط (٨) واسعة (٩) فى حسن الاستدارة والبياض

(١٠) تعظم وتنبسط

وقال فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلد صَحِبت به الشَّبيبةَ والصِّبا ... ولبستُ ثوبَ اللهو وهو جديد

فاذا تمثّل فى الضمير رأيته ... وعليه أغصانُ الشباب تميـد

وقال وهو يجود بنَفْسه :

غلِطَ الطبيبُ علىَّ غلطة مُوردٍ ... عجزَت مواردُه عن الإصدار

والناسُ يلحَوْنَ الطبيبَ وإنما ... غلطُ الطبيب إصابةُ الأقدار

٨ — ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبدُ الله ابن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله، أشعر بنى هاشم ، وأبرع الناس فى الأوصاف والتشبيهات

وُلدَ سنة ٢٤٩ هجرية فى بيت الخلافة، وتربى تربية الملوك، وأخذ عن المبرّد[1] وثعلب[2] ومُؤدّبِه أحمد بن سعيد[3] الدمشقى وغيرهم، ومهر فى العربية والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره وفلاسفة دهره، حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كُتّابها وعمِلوا على أن لا يقلدوه الخلافةَ خشيةَ أن يكفَّ أيديَهم عن الاستبداد بالملك، ووَلّوا المقتدرَ صبياً، ثم حدثت فتنٌ عظيمة فتسرع محمد بن داود بن الجرّاح[4] (وكان من أفاضل الكُتّاب والأدباء) وجَمَع العلماء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة على غير طلب منه ، فلما رأى غِلمانُ المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم حمَلوا على أتباع ابن المعتز فاختفى فى دار بعض[5] التجار فقُبض عليه وخُنِق من ليلته ودفن بخربة بجوار داره سنة ٢٩٦ هجرية

(١) هو النحوى البصرى العظيم والاديب الكبير ابو العباس محمد بن يزيد المبرد الازدى المتوفى سنة ٢٨٥ صاحب الكامل والروضة والمقتضب

(٢) هو النحوى العظيم الكوفى ابو العباس احمد بن يحيى المشهور بثعلب، توفى سنة ٢٩١

(٣) كان أديبا متفلسفا أدب عبد الله وروى عنه أخباره وشعره

(٤) كان كاتبا عارفا بأخبار الناس ودول الملوك، له جملة مصنفات، قتل فى فتنة ابن المعتز سنة ٢٩٦

(٥) هو ابو عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر الجوهرى أخذ منه المقتدر فى حادثة ابن المعتز الفى الف دينار وسلم له بعد ذلك سبعمائة الف دينار، وكان فيه غفلة وبله على غنى مفرط ، توفى سنة ٣١٥

وصف شعره

وكان ابن المعتز سهلَ العبارة، كثيرَ مراعاة البديع فى قوله مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع، ولما كان مقامه يجلُّ عن الاكتساب بالشعر قلَّ المدحُ فى كلامه الاّ فى أهل بيته من الخلفاء وبعض وزراء الدولة، وزاد فى التشبيهات البديعة، وأوصاف محاسن الطبيعة، ومجالس الأنس ومراسلة الاخوان فى الدعوة اليها، ووصفِ الصيد وكلابه وبواشقه وفهوده والقلم والقرطاس، ونحو ذلك

والمتأمل فى شعره يعرف فيه نَضْرة النعيم، وترف الملك، ورقة الخيال، ولطف الوِجْدان

نبذة من شعره

ومن ابتداءاته الجميلة قوله :

أخـذتْ من شبابى الأيامُ　　وتولَّى الصِّبا عليـه السلامُ
وارعوى باطلى فبان حديثُ النـــفس منى وعفَّت الأحلامُ

وقوله :

ما المَغَانى من بعدهم بالمَغَانى　　فليكن شأنَك البكاء وشانى
امتحَى ربعُهم وكان جديداً　　ونأى منهمُ الذى كان دانى
ما مررْنا على لوًى فيه نُعْمٌ[1]　　مذ مررنا على لِوَى نعمان[2]

ومن شعره قوله :

تفقَّدْ مساقطَ لحظ المُرِيبِ　　فان العيونَ وجوهُ القلوبِ
وطالع بوادرَه فى الكلام　　فانك تجنى ثمارَ الغيوبِ

ومن تشبيهاته قوله فى الهلال :

وانظر إليه كزَوْرق من فضة　　قـد أثقلته حَمولةٌ من عنبر

وقوله :

انظر الى حسن هلال بدا　　يهتك من أنواره الحِندِسا[3]
كمِنجل قـد صيغ من فضة　　يحصد من زهر الدجى نرجِسا

---

(١) من أسماء نسائهم　(٢) مكان وجبلان ببلاد العرب
(٣) الظلام

٩ – أبو الطيب المتنبى

هو أبو الطَّيبِ أحمدُ بنُ الحُسين الجُعفى الكندى الكوفىّ المتنبى، الشاعر الحكيم صاحب الأمثال السائرة والمعانى النادرة، وخاتم ثلاثة الشعراء وآخر من بلغ شعره غاية الارتقاء

وهو من سُلالة عربية من قبيلة جُعْفِيّ بن سعد العشيرة احدى قبائل اليمانية ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ فى محلة كِندةَ ونُسِبَ اليها، وليس بكندى. ونشأ بها وأُولِعَ بتعلم العربية من صباه، وكان نادرة فى الحفظ لا يُسأل عن شئ الاّ استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، وكان أبوه فيما يُقال سقّاء فخرج به الى الشام. ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون الاّ بالمعيشة فى البادية فخرج الى بادية بنى كَلْب وهو بَعدُ فتًى لا يزيد عمره على عشرين سنة فأقام بينهم مدّة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية حتى أحاط بغريبها وحُوشيها: فعظم شأنه بينهم؛ وكانت الاعراب الضاربون بمشارف الشام شديدى الشغب على ولاتها فوشَى بعضهم الى لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية[1] بأن أبا الطيب ادّعى النبوة فى بنى كلب[2] وتبعه منهم خلق كثير ويخشى على ملك الشام منه، فخرج لؤلؤ الى بنى كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلاً ثم استتابه وأطلقه[3]

فخرج من السجن وقد لصِق به اسم المتنبى مع كراهته له، ثم تكسب بالشعر مدّة

---

(١) الدولة الاخشيدية هى دولة استقلت بمصر والشام والحجاز استقلالا داخليا من سنة (٣٢٤ — ٣٥٨ هـ) ورأسها (محمد بن طغج الاخشيد) مات سنة ٣٣٥ وخلفه ابنه ابو القاسم أنوجور وكان صغيراً فحمل الاستاذ ابو المسك كافور الخصى الاسود فيها عليه فمات انوجور سنة ٣٤٩ وخلفه ابنه على ولم يكن له مع كافور من الامر شئ، ومات سنة ٣٥٥ فتولى كافور ملك مصر وجاءه تقليد الخليفة ومات سنة ٣٥٧ فتولى احمد بن على بن الاخشيد فاقام شهوراً حتى جاءت الدولة الفاطمية وفتحت مصر
(٢) راجع مصور جزيرة العرب المرفق بهذا الكتاب
(٣) راجع كتاب تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى

انتهت بلحاقه بسيف الدولة بن حَمْدان (١) فمدحه بما خلَّد اسمه أبد الدهر، وتعلم منه الفروسية وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم حتى عُدَّ من أبطال القتال رجاء أن يكون صاحبَ دولة . وبقى أثيراً عنده مُقدَّماً على جميع حاشيتــه وبطانته مع صَلَفه وتِيهه فوَشَوْا به الى سيف الدولة وكان أشدَّهم حسداً له ابنُ خالويه (٢) النحوى مؤدّب سيف الدولة : فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة فضرب به ابن خالويه بمفتاح حديد فى وجهه فشجَّه ولم يُنصفه سيف الدولة منه فقصَدَ أبو الطيب كافورا الاخشيدى أمير مصر طمعاً أن ينال عنده ما لم ينل عند سيف الدولة ومدحه بقصائد سنية ووعده كافور أن يقلده امارة أو ولاية ولكنهُ لما رأى تعاليه فى شعره وفخرَه بنفسه عدل أن يوليه ، وعاتبه بعضهم فى ذلك فقال: يا قوم من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدَّعى المملكة بعد كافور فحسبكم، فعاتبه أبو الطيب عتاباً أمضّه وآلمه، واستأذن فى الخروج من مصر فأبى، فتغفَّله فى ليلة عيد النحر وخرج منها يريد الكوفة، ومنها قصد عضدَ الدولة بن بويه بفارس مارًّا ببغداد، فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد الى بغداد، وخرج الى الكوفة فخرج عليه أعراب بنى ضَبَّة وفيهم فاتك بن أبى جهل ، وكان المتنبى قد هجاه هجاء مقذعاً فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤

منزلته فى الشّعر

لاخلاف عند أهل الأدب فى أنه لم ينبغ بعد المتنبى فى الشعر من بلغ شأوه أو داناه ، والمعرّى على بعد غوْره وفرط ذكائه وتوقد خاطره وشدّة تعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية يعترف بأبى الطيب ويقدّمه على نفسه وغيره

---

(١) هو ابو الحسن على اشهر أمراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب ، وكان سيف الدولة يملك حلب والعواصم ثم أخذ دمشق من الاخشيدية ومات سنة ٣٥٧ وكان أخوه الحسن ناصر الدولة يملك الموصل والجزيرة وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة وخلف ناصر الدولة ابنه ابو تغلب ثم أخوه الغضنفر

(٢) هو ابو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه كان اماماً فى اللغة والنحو توفى سنة ٣٧٠

موازنة بين المتنبي والطائيين

على أنهم مجمعون أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أبا تمام والمتنبى ويختلفون فى المفاضلة بين الأخيرين من حيث الحِكَم والمعنى ولعل المتنبى أرجحهما . وقد قال المتنبى الشعر فى كل غرض من أغراضه، وأجاد فى وصف المعارك والعتاب والمراثى، أما مدائحه فهى أكثر بضاعته وقلّما ترك فيها معنى لم يطرقه . ولثقته

وصف شعره

بنفسه فى اللغة وعلوم العربيــة جعل غايته فى شعره ابراز معانيه الشريفة وأفكاره الدقيقة على أىّ لفظ كان وبأى أسلوب تهيأ له ولو لم يجر على مشهور القياس أو ينطبق على وجوه البلاغة والأساليب الشعرية السهلة ؛ ولذلك تجد فى كلامه كثيراً من الغَرابة والتعقيد اللفظى ؛ وله من الحكم والأمثال ما يربو به على كل شاعر تقدّمه ، وقد أصبح للغة العربية من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه، وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرّس الاَّ وله من حكم المتنبى مدد أيُّما مدد

شىء من شعره

ومن قوله :

اذا رأيتَ نُيوبَ اللّيث بارزةً ... فلا تظنَّنَّ أنَّ الليث يبتسم
أعيذُهـا نظراتٍ منك صادقةً ... أن تحسَبَ الشحمَ فيمن شحمهُ ورمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيـا بناظرِه ... اذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ
يا من يعزُّ علينـا أن نفارقهمْ ... وِجداننا كلَّ شىء بعدكم عدمُ
ان كان سَرَّكمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجرحٍ اذا أرضاكمُ ألمُ
وبيننـا لو رعيتمْ ذاكَ معرفةٌ ... ان المعارفَ فى أهل النُّهى ذِممُ
كم تطلبون لنـا عيباً فيُعجزُ كم ... ويكره اللهُ ما تأتون والكرمُ
اذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ... ألاَّ تفارقهمْ فالراحلون همُ

ومن قوله :

ذو العقلِ يَشقى فى النعيم بعقله ... وأخو الجهالةِ فى الشقاوة ينعَمُ
لا يخدعنَّكَ من عدوٍّ دمعهُ ... وارحمْ شبابَك من عدوٍّ ترْحَمُ
لا يسلَم الشرفُ الرفيعُ من الأذى ... حتى يُراقَ على جوانبــه الدَّمُ
والظلمُ من شِيَم النفوس فان تَجِدْ ... ذا عفَّةٍ فلِعلةٍ لا يظلِم

ومن البليَّة عذلُ من لا يرعوى — عن غيِّه وخِطابُ من لا يفهَم
ومن العـداوة ما ينالُك نفعُه — ومن الصداقة ما يَضُرُّ ويُؤلم

ومن قوله :

ما كنتُ أحسَبُ قبل دفنك فى الثرى — أن الكواكبَ فى التراب تمورُ
ما كنت آملُ قبل نعشِك أن أرى — رَضْوَى(1) على أيدى الرجال يسير
خرجوا به ولكل باكٍ حولَه — صعقاتُ موسى يومَ دُكَّ الطُّورُ
حتى أتوا جَدَثًا كأن ضريحه — فى كل قلبٍ مُوجَدٍ محفور
كفلَ الثناء له بردّ حيـاتِه — لمَّا انطوى فكأنه منشور

وديوان شعره مشهور شرح وانتقد وكتب فيه أكثر من أربعين تأليفًا ومن شروحه المطبوعة شرح العُكبرى فى جزأين

١٠ — ابن هانئ الأندلسى

هو أبو القاسم محمدُ بن هانئ الأزدىُّ الأندلسىُّ، شاعرُ الغَرْب ومتنبِّيه، والمؤثرُ فخامة ألفاظه على رِقَّة معانيه، وأحد المفرطين فى غلو المدح واستعمال الاستعارة والتشبيه

وُلد بأشْبيليَةَ سنة ٣٢٦ ولما نبُه شأنُه اتصل بعامل اشبيلية زمن المستنصر الأُموى(2)، ومدحه بغرر القصائد فأحله منه منزلة سنية وأغدق عليه العطايا فأكب على اللهو والطرب والاستهتار؛ واتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة وظهور أثرها فى شعره باستعمال الغلو المفرط فى وصف ممدوحـه بصفات المعبود وغير ذلك

ولما شاع ذلك عنهُ نقَمه عليه أهلُ اشبيلية واشركوا عاملها فى التهمة وكادوا يهمون به فأشار عليه بالهجرة من اشبيلية فاجتاز البحرَ الى عُدْوة المغرب ، ومدح

(١) راجع مصور جزيرة العرب المرفق بهذا الكتاب
(٢) هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بالاندلس والمؤسس بها دولة بنى أمية المغربية توفى المستنصر سنة ٣٦٦

ولاته من قبـل المعز الفاطمى ؛ ثم نُمى خبرهُ الى المعز(1) فوجه فى طلبه فوفد عليه بأفريقية ومدحه فبالغ فى الانعام عليه ودخل فى دعوة الفاطميين وأغرق فيها فاصطفاه المعز واتخذه شاعر دولته

ولما فتح جوهر مصر وبنى القاهرة ورحل اليها المعز ليتخذها دار ملكه شيَّعه ابن هانئ ورجع لأخذ عياله والالتحاق به فتجهز وتبعه؛ فلما وصل الى بَرْقة نزل على بعض أهلها فأقام عنده أيامًا فى مجلس أنس فيقال انهم عربدوا عليه وقتلوه سنة ٣٦٢ وعمره ٣٦ سنة ، وقيل فى سبب موته غير ذلك

منزلته فى الشعر

لم ينبغ فى شعراء جزيرة الأندلس ولابر المغرب جميعها من متقدّميهم أو متأخريهم من يفوق ابن هانئ فى صناعة الشعر أو يساويه فقد كان عندهم فى الشهرة والاجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبى عند المشارقة لا فى الطريقة والمعانى وكانا فى عصر واحد ، ويسميه كثير من الأدباء بمتنبى المغرب

صفة شعره

ولما بلغ المعز الفاطمى خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً وقال (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقدَّرْ لنا ذلك) ويمتاز شعره بكثرة غريبه وفخامة لفظه وطنطنة تراكيبه وجلَبة عبارته وهوْل وقعها فى نفس سامعها وان لم تكن كل معانيه مشاكلةً للفظه فى العِظم والرَّوْعة كما امتاز بحسن تصوير الخيال واجادة التشبيه والاستعارة المتلائمة العلائق والقرائن وكثرةِ الغلوّ الذى يقرُب من الكفر فى المديح ونحوه مع شدَّة تحامى الأندلسيين ذلك فى شعرهم وانشائهم . وابن هانئ ممن يجيد المطوَّلات من القصائد ولو كانت صعبة القوافى

(١) هو ابو تميم معد بن اسماعيل رابع خلفاء الدولة الفاطمية وباعث القائد جوهر لفتح مصر ففتحها وأسس القاهرة وانتقل اليها المعز ومات بها سنة ٣٦٥ وأوائل خلفاء هذه الدولة كانوا بالمغرب ورأسهم عبيد الله المهدى توفى سنة ٣٢٢ ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله ابو القاسم محمد وتوفى سنة ٣٣٤ ثم خلف هذا ابنه المنصور اسماعيل وتوفى سنة ٣٤١ ثم ابنه المعز المذكور آنفا وحكم بمصر من أولاده وأحفاده أشهرهم ابنه العزيز ثم ابن العزيز الحاكم بأمر الله ثم ابنه الظاهر ثم عدة منهم وانقرضت دولتهم سنة ٥٦٧

ومن قوله فى وصف الخيل :

وصواهلٍ لا الهضبُ(١) يوم مَغَارها(٢) — هَضْبٌ ولا البيدُ الحُزون(٣) حُزُون
عُرِفَتْ بساعة سَبْقِها لا أنها — عَلِقتْ بها يومَ الرِّهان عُيون
وأجلُّ عِلْم البَرْق فيها أنّها — مرّت بجانحتَيْه وهى ظُنُون

ومن قوله الموهم الكفر فى مطلع قصيدة يمدح بها المعزّ :

ما شِئْتَ لا ما شاءتِ الأقدارُ — فاحكُمْ فأنت الواحدُ القهّار

وقوله من قصيدة فى مدح المعز ويخاطب حامل مِظَلّته

أمُدِيرَها من حيث دارَ لَشَدَّ ما — زاحمْتَ تحت رِكابه جبْرِيلا

ومن قوله فى مبدإ قصيدة رثاء :

صدَق الفَناء وكُذِّب العُمُرُ — وجَلا العظاتُ(٤) وبالغَ النُّذُرُ
إنّا وفى آمال أنفُسِنا — طولٌ وفى أعمارنا قِصَرُ
لنَرَى بأعيننا مَصَارعنا — لو كانت الألبابُ تعتبِرُ
ممّا دهانا أن حاضِرنا — أجفانُنا والغائبُ الفِكَرُ
واذا تدبَّرْنا جوارحَنا — فأكلُّهنّ العيْنُ والنظرُ
أىّ الحياةِ ألذُّ عيشتَها — من بَعْدِ علمى أنّنى بَشَرُ
خَرِسَتْ (لعَمْرُ اللهِ) ألسُنُنا — لمّا تكلّمَ فوقَنا القدَرُ

١١ — أبو العلاء المعرّى

هو أبو العلاء أحمدُ بن عبد الله بن سليمان المَعَرّى التَّنُوخىّ(٥) الشاعرُ الفيلسوف المتفنن ، الزاهد ، صاحب التصانيف والرسائل المأثورة

وهو عربى النسب من قبيلة تَنُوخ من بطون قُضَاعةَ وبيتهُ بيت علم وقضاء

(١) الهضب والهضبة الجبل المنبسط على الارض (٢) أى يوم اغارتها
(٣) جمع حزن ضدّ السهل
(٤) المفعول محذوف أى جلا العظات الشبهات والغفلات فى أمر الدنيا
(٥) راجع مصور جزيرة العرب فى هذا الكتاب

وُلِد بمعرّة النعمان(١) سنة ٣٩٨ وجُدِر فى الثالثة من عمره فكف بصره ، وتعلم النحو والعربية على أبيه وغيره من أئمة زمانه ، وكان يحفظ كل مايسمعه من مرة ، وانتفع كثيراً من دار كتب آل عمار(٢) بطرابلس الشام ، وقال الشعر وعمره احدى عشرة سنة ودخل بغداد وأقبل عليه السيد المرتضى(٣) اقبالاً عظيماً ثم جفاه

ولما رجع الى المعرة أقام ولم يبرح منزله ونَسَك وسمّى نفسه رهنَ المحبِسَيْن : محبِس العمى ومحبِس المنزل . وفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفون ، وكاتبه الوزراء والعلماء وبقى فى منزله مكبّاً على التدريس والتأليف ، ونظم الشعر مقتنعاً بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عقَار لهُ ، مجتنباً اكلَ الحيوان وما يخرج منه مدّة ٤٥ سنة ، مكتفياً بالنبات والفاكهة والدِّبس(٤) متعللاً بأنهُ فقيرٌ وأنهُ يرحَم الحيوان ، وعاش عزبًا الى أن مات سنة ٤٤٩ بالمعرة . وأوصى أن يكتب على قبره

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحد

وله كثير من الشعر يناقضُ بعضهُ فى حقيقة العالَم والشرائع والمعبود ، وللناس فى اعتقاده أقوال كثيرة والظاهر أنه كان شاكاً متحيراً

وكان أبو العلاء المعرى أحكمَ من رأى الناسُ بعد المتنبى ، ويزيد عليه فى الغريب والأخيلة الدقيقة والتكلم فى الطبائع ووسائل الاجتماع وعادات الناس وأخلاقهم ومكرهم وظلمهم ونظام الحكومات والقوانين والشرائع والأديان ، وهو من هذه الوجهة يمتاز من المتنبى ؛ ولذلك يفضله الإفرنج ومستعربوهم عليه ، وهو فى هذه الأمور معدوم النظير ولم ينظم فى الملة أحد غيره فيها . وشعره فى المدائح والمراثى والوصف وبقية أغراض الشعر الأدبية أرق من شعره فى النقد والفلسفة ، إلا أن اكثر شعره من هذا القبيل — وصف شعره

(١) بلدة بين حماه وحلب اضيفت الى النعمان بن بشير الصحابى لانه اجتاز بها فدفن بها ولداً له ثم أقام بها
(٢) هم أسرة استبدوا زمنا بطرابلس الشام وملحقاتها وجمعوا من الكتب ما لا يحصى فأحرقها الصليبيون عند استيلائهم على طرابلس ، وأشهر هذه الاسرة ابو طالب بن عمار قاضى طرابلس المتوفى سنة ٤٦٤ ثم ابن أخيه جلال الملك ابو الحسن بن عمار
(٣) هو السيد الشريف ابو القاسم على بن الحسين اخو الشريف الرضى وهو صاحب (امالى السيد المرتضى) توفى سنة ٤٣٦
(٤) هو عسل التمر والفاكهة

ضمنه ديوانه المسمى لزوم ما لا يلزم فتقيد فيه بقيود حبست أفكاره ونهكت معانيه فجاءت ألفاظه فيه غريبة وأساليبه معقدة . وعندنا أن هذا أمقت شذوذ له والاَّ فما للفيلسوف والقيود ؛ وقد كان له فى نظم الأفكار التى لم تخطر على قلب أحد سواه غنية وشهادة على براعته وسبقه ؛ ولله فى خلقه شؤون

ومن مراثيه مرثيته المشهورة ، ومنها :

غيرُ مُجْدٍ فى ملّتى واعتقادى نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّم شاد
وشبيهٌ صوتُ النَّعِىّ اذا قيـ ـس بصوت البشير فى كل ناد
أبكتْ تِلْكم الحمامةُ أمْ غنَّـ ـتْ على فرْعِ غُصنها الميَّاد[1]
صاحِ هذى قبورُنا تملأ الرُّحْـ ـبَ فأين القبورُ من عهْد عاد
خفِّفِ الوطء ما أظنّ أديم الـ أرض الاَّ من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهْـ ـدُ هوانُ الآباء والأجداد
سرْ إن آسطعتَ فى الهواء رويْدا لا اختيالاً على رُفاتِ العباد
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مرارا ضاحك من تزاحُم الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدين[2] عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كمْ أقاما على زوال نهار وأنارا لِمُدلجٍ فى سَواد
تعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعْـ ـجَبُ الاَّ من راغبٍ فى ازدياد
إنّ حزنًا فى ساعة الموت أضعا فُ سرورٍ فى ساعة الميلاد
خُلِقَ الناسُ للبقاء فضلَّتْ أُمَّةٌ يحسَبُونهم للنفادِ
انما يُنقَلون من دار أعما لٍ الى دار شِقوةٍ أو رشاد

(١) أى انى لا أعرف الفرق بين صوت النعى وصوت البشير كما لا يعرف الناس صوت الحمامة فبعضهم يسميه بكاء وبعضهم يسميه غناء

(٢) هما نجمان فى بنات نعش الصغرى (الدب الاصغر)

وهى طويلة ومنها :

بان أمرُ الإله واختلف النا سُ فداعٍ الى ضَلال وهاد
والذى حارت البريةُ فيه حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد
فاللبيبُ اللبيبُ من ليس يغتـ ـرُّ بكَوْنٍ مَصيرُه للفساد

ومن قوله الموهم فى اللزوميات :

ضحِكْنا وكان الضِّحْكُ منا سفاهةً وحُقّ لسُكّان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعادُ لنا سبك

١٢ — ابن خفاجة الأندلسى

هو أبو اسحق ابرهيم بن عبد الله بن خفاجة ، شاعر شرقىّ الأندلس ، وأشهر وُصَّاف الطبيعة

ولد بجزيرة شُقر[1] من أعمال بَلَنْسِية سنة ٤٥٠ فتعلم وتأدّب ونظم الشعر وأحسن فيه ، وكتب الرسائل الاخوانية البليغة ؛ وما زالت شمس أدبه فى صعود حتى صار واحد زمانه فى الأندلس: شعراً ونثراً، وحلاوة منطق، وحسن محاضرة، وعلوَّ همة فقلما تعرض لاستماحة ملوك الطوائف[2] مع تهافتهم على أهل الأدب ؛ وكان فى صباه طَروبًا عاكفًا على الملذات ثم أقلع فى كهولته عن صَبْوته وغلب على شعره وصف الحوادث الجوّية ومناظر الطبيعة ؛ وله غزل رقيق ، ومدح بارع ، ورثاء بليغ ؛ ويمتاز شعره بالجزالة وكثرة المعانى وازدحامها فى اللفظ حتى يحتاج فى فهمها الى التأمل على خلاف مذهب الأندلسيين فى ذلك . وتوفى سنة ٥٣٣ ﻫ

وصف شعره

ومن قوله يصف زهرة :

طائفة من شعره

ومائسةٍ تُزْهَى وقد خلع الحيا عليها حِلَى حُمْراً وأرديةً خُضْرا

(١) هى بليدة بين شاطبة وبلنسية من شرق الاندلس، وسميت جزيرة لان الماء محيط بها من اكثر جهاتها

(٢) لما انقرضت دولة بنى أمية بالاندلس تقسم ولاتها نواحيها واستبد كل منهم بعمل وسموا ملوك الطوائف

يذوبُ لها رِيقُ الغمائم فِضَّةً ‏ ‏ ويجمُدُ فى أعطافها ذهبًا نَضْرا

وقوله :

يأهل أندَلُسٍ لله دَرُّكُمُ ‏ ‏ ماءٌ وظلٌّ وأنْهارٌ وأشجارُ

ما جنةُ الخُلد الاَّ فى دياركُمُ ‏ ‏ ولو تَخَيَّرتُ هذِى كنتُ أختارُ

لا تختشوا بعدَ ذا أنْ تدخلوا سَقَرًا ‏ ‏ فليس تُدخَلُ بعد الجنة النَّارُ

وقوله فى تربية الصبى :

نَبِّهْ وليدكَ من صباه بزَجْرَةٍ ‏ ‏ فَلَرُبما أخفى هناك ذكاؤُهُ

وأنهره حتى تستهلَّ دموعهُ ‏ ‏ فى وجنتيه وتلتظِى أحشاؤُهُ

فالسيفُ لا تذكو بكفك نارُه ‏ ‏ حتى يَسِيلَ بصفحتيه ماؤُهُ (١)

الرواية والرواة

جاءت الدولةُ العباسية وقد اتسع نِطاق الرواية واختصَّ كلُّ فريق من الناس برواية شىء : فمنهم من انقطع لرواية القِراءات ، ومنهم من انقطع لرواية الحديث ، ومنهم من انقطع لرواية العربية والشعر والأخبار ، ومنهم من انقطع لرواية الفتوح والسير وغير ذلك

فلما دُوِّنت الكتب فى عصر الدولة العباسية أفرغ الرواةُ ما حفِظوه فى هذه الكتب خوفًا عليه من الضياع فكان عصرُهم الأوَّلُ عصرَ جَمْعٍ وتدوين حتى اذا ما جمعت كل هذه العلوم فى بطون الكتب ، أخذ أمر الرواية يضمحلّ شيئًا فشيئًا فى اكثر العلوم ولا سيما الأدب ثم اقتُصِرَ فى الرواية على تصحيح النطق والأداء فيقرأُ التلميذُ على الشيخ القرآنَ أو الحديثَ أو اللغةَ أو الشعرَ وهو يُجيزُ له أداءها كما سمِع

وكانت الروايةُ الشغلَ الشاغلَ للعلماء فى صدر الدولة العباسية لاهتمام الأمة بها وبذل الخلفاء المعونةَ لأربابها ، فاندس بين الرواة كثيرٌ من الوضَّاعين وأدخلوا كثيرًا

(١) ماء السيف رونقه وصفاء جوهره

من الروايات المكذوبة فى الحديث وغيره واضطرَّ العلماء الى البحث عن تمحيص الصحيح فعُنُوا شديدَ العناية بتاريخ الرجال ومراتب الأخذ عنهم ، وميَّزوا ما أمكن تمييزُه من الموضوع . ولكل علم رواةٌ مشهورون وقد سبق الكلام على رواة العلوم والفنون فى تاريخ وَضْعِها ونَزِيد هنا من ذكر بعض رُواة الأدب اذ كان هو غايةَ درسنا

فمن رواة الأدب والشعر خاصَّةً حمادٌ الراويةُ الكوفىُّ (١) وخَلَفٌ الأحمرُ (٢) البَصْرىُّ ، وأبو عمرو الشيبانىُّ (٣) الكوفىُّ ، والسكرىُّ البغدادىُّ (٤)

ومن رواة الأدب بجميع فنونه لغة وشعراً وأخباراً أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة مَعْمَرَ بن المثنى والأصمعى وأبو زيد الأنصارى وأبو عبيد (٥) القاسمُ بن سلاَّم ومحمد ابن سلاَّم الجُمحى (٦) وغيرهم . ونذكر على سبيل الاختصار ترجمة أشهرهم فى الرواية وهو الأصمعى فنقول :

(١) هو ابو القاسم حماد الراوية ابن أبى ليلى سابور الكوفى الديلمى مولى بكر بن وائل كان اعلم الناس بايام العرب واشعارها واخبارها وانسابها ، وهو الذى جمع السبع الطوال المسماة بالمعلقات توفى سنة ١٥٥

(٢) هو أبو محرز خلف الاحمر بن حيان مولى بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الاشعرى وفيه يقول الاخفش لم ندرك أحداً اعلم بالشعر من خلف ، مات فى حدود سنة ١٨٠ هـ

(٣) هو أبو عمرو اسحق بن مزار الشيبانى الكوفى كان راوية اهل بغداد واسع العلم باللغة والشعر ثقة فى الحديث نبيلاً فاضلاً جمع اشعار العرب فى عدة دواوين لكل قبيلة ديوان فكانت نيفاو ثمانين قبيلة . عمر كثيراً حتى أتى عليه ١١٩ سنة وتوفى سنة ٢٠٦

(٤) هو أبو سعيد الحسن بن الحسين كان راوية ثقة من كبار الجامعين للشعر جمع شعر جماعة من الشعراء منهم امرؤ القيس والنابغة الذبيانى والجعدى وزهير ولبيد وأشعار بنى هذيل وبنى شيبان وبنى يربوع وبنى ضبة والازد وبنى نهشل وتوفى سنة ٢٧٥

(٥) كان أبوه عبداً روميا لرجل من اهل هراة اشتغل بالحديث والأدب والفقه فبرع فى جميعها . وكان ثقة دينا توفى سنة ٢٢٤

(٦) هو أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى البصرى صاحب كتاب طبقات الشعراء وكان من اعلم الناس بالشعر والاخبار توفى سنة ٢٣٢

الأَصْمَعِيُّ

هو شيخُ رُواة الأدب الامامُ الثَّبْتُ الحُجة الثِقةُ التَّقيُّ، أبو سعيد عبدُالملك بن قُرَيْب بن عبد الملك بن على بن أصمعَ الباهلى البصرى

نسب الى جدِّه أصمعَ. وولد سنة ١٢٣ هجرية من بيت عربى قديم العهد فى الكتابة

ونشأ بالبصرة فأخذ العربيةَ والحديث والقراءةَ عن أئمة البصرة كأبى عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، وأخذ عن فصحاء الاعراب الذين كانوا يفِدون على البصرة . وأكثر الخروجَ الى البادية وشافه الأعرابَ وساكَنهم . وربما استغرقت بعضُ رحلاته سنواتٍ يَحُج فى أثنائها ويلتقى بالفصحاء فى المواسم حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره

وتعلَّم من خلَفٍ الأحمر نَقْدَ الشعر ومعانيه . وكان أحفظَ أهل زمانه حتى قال مرةً إنى أحفَظ اثنىْ عشَر ألفَ ارجوزةٍ فقال له رجلٌ : منها البيتُ والبيتان . فقال: ومنها المائةُ والمائتان . وراجت بضاعةُ الأصمَعى عند الرشيد وأخذ جوائزَه الكثيرةَ ورُزق السعادةَ فى رِواية الأخبار والمُلَح دونَ أهل زمانه فتهافت الناسُ على قتْلِها فى كُتُبهم لرضاهم عن مذهبه وتسننه[1] . وكان يُحجِمُ عن تفسير القرآن الكريم والحديث تحرُّجاً[2] وخوفاً من الزلل . وكان مع كل صفاته الحسنة بخيلاً مخشوشنا وعمّر حتى أدركَ زمنَ المأمون. وأراد المأمونُ أن يُقدِمَه اليه فاعتذر بكبر السن، ومات سنة ٢١٦ هجرية وله من الكتب المؤلفة والرسائل والأمالى شىء كثير

(٣) أى اخذه فى اعماله بالسنة النبوية المطهرة
(٤) أى ابتعاداً عن الحرج والاثم

العصر الرابع

عصر المماليك التركية

٦٥٦ – ١٢٢٠ هـ

حالة اللغة العربية وأدبها فى ذلك العصر

لما اكتسح التتارُ ممالكَ الدولة العباسية وخرَّبوا البلادَ وقتَّلوا العبـادَ وأبادوا الكتبَ، افترقوا الى ممالكَ متعدّدةٍ بآسيا وشرقىّ أوربا، ولم يلبثوا أكثرَ من نصف قرن حتى أسلموا وشرعوا يخدُمون الاسلامَ : بتقريب العلماء اليهم وترغيبهم فى التأليف فأفاد ذلك فى ادامة الحركةِ العلمية فى الجملة وإن لم يفد اللغةَ العربيةَ فائدةً تذكر لمكان العُجْمةِ منهم ؛ أما علومُ العرب وأدبُها فلم يكن لها مَباءةٌ ترجع اليها الاَّ البلادَ العربية كالشام ومصر، فأصبحت القاهرةُ هى المثابةَ الأخيرةَ للعرب والعربية، نعم إن حكومتها كانت تركيةً أو شركسيةً ولكن لم يكن لرجالها وجُنودِها عصبيةٌ قويةٌ تجعَل لغتَهم تُزاحِمُ العربيةَ فبقيت بطبيعة الحال اللغةُ الرسميةُ هى العربيةَ، وأصبح العلماء هم رجالَ الإدارةِ والكتابةِ والقضاء وغيرها من المناصب الملكية، إذ كان أكثرُ المماليك جنوداً أميين، غير أن تلك الحال لم تَدُمْ أكثرَ من مُدة المماليك وصدرِ الدولة العثمانية الوارثةِ لهم، ثم أصبحت اللغةُ التركيةُ العثمانيةُ هى اللغةَ الرسميةَ للأعمال الديوانية والسياسية فى جميع الممالك العثمانية ، فزاحمت العربيةَ مزاحمة ظهر أثرُها بيّنا فى تحرير الرسائل الديوانية والمعاهدات السياسية ؛ ودخل فى اللغة أثناء دولتى المماليك والعثمانيين كثير من الألفاظ التركية والفارسية[1]

(١) من ذلك : الاتابكى ، الجاشنكير ، الدوادار ، الخواجة ، اسفهلار ، شراب خاناه ، فراش خاناه ، طبلخاناه

قال فى صبح الاعشى : (الطبلخاناه) ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الالات ، ويحكم على ذلك أمير من امراء العشرات يعرف (بأمير علم) يقف عليها عند ضربها فى كل ليلة، ويتولى امرها فى السفر ولها (مهتار) متسلم لحواصلها يعرف (بمهتار الطبلخاناه)

وعاصر دولةَ المماليك بمصر والشام دولةُ بنى الأحمر[1] بالأندلس ودولةُ بنى مَرِين[2] والدولة الحَفْصية[3] بشمالىّ افريقية فكانت حالة لغة الأدب فيها وخاصةً الأندلس خيراً منها فى مصر إذ كانت جمهرة السلائل العربية فيها حافظةً صبغتها لقلة طروء العناصر الأجنبية عليها

النثر

لغة التخاطب

كادت تحل محلَّ اللغة العامية العربية (فى أعالى الجزيرة وشرقىّ العراق) : اللغة الفارسيةُ والتركيةُ والكرديةُ ممزوجة بشىء من الألفاظ العربية

أما فى بقية الجزيرة والعراق ومصر والشام فقد بقيت العامية العربيةُ لسانَ الجميع فيها حتى الملوك والسلاطين لغلبة العناصر العربية فيها

ولما لم يتهيّأ لرؤساء المماليك وسلاطينهم اجادةَ العربية الفُصْحى عضَدُوا العاميةَ باقبالهم على أُدبائها واحسانهم الى من ينظم بها : فكان ذلك سبباً فى اتساع دائرة الزجل والمَوَاليا ومزاحمتهما للشعر الفصيح، بل دوّن بها بعضُ العلماء وان لم يكن ذلك كثيراً فأصبحت بذلك لغةَ أدب وكتابة وقراءة ، ثم أخذت العنايةُ بها فى الانحطاط فى أواخر هذا العصر حتى صارت أحطَّ ما كانت عليه فى عصر من العصور، وكادت تتساوى فيها لغة النساء والرجال

وله رجال تحت يده ما بين (دبندار) وهو الذى يضرب على الطبل و (منفر) وهو الذى يضرب بالبوق (وكوسىّ) وهو الذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير اولئك من الصناع اه .

ومن ذلك أيضا أون باشا وبيك باشا ويوز باشا وبرنجى وآخرنجى وقهوجى ونوبتجى وباطجى وخستخانة وكتبخانة وأدب خانة

(١) هى آخر دولة عربية بالاندلس ويسمى سلاطينها بنى نصر

(٢) هى دولة بربرية احدى الدول المتفرعة من دولة الموحدين، كانت تملك المغرب الاقصى

(٣) هى احدى الدول المتفرعة من دولة الموحدين ورثها الترك العثمانيون

الخطابة

لم تتغير الخطابةُ عما كانت عليه أواخرَ الدولة العباسية من حيث قُصُورُها على خطب الجمع والأعياد وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات

وبقيت لغةُ الخَطابة العربيةَ وحدَها أو معَ الترجمةِ الى الأعجمية فى الممالك التى استعجم لسانُها لمكان : العربية من الدين . ولم يبق من أمرها أواخرَ هذا العصر الاَّ ما كان يُقْرأ مكتوباً فى الكتب، بل قلَّ حفظُها واستظهارُها فى غير القاهرة، وانتقل وعظُها من حسن الذكرى فى أمر الدين والدنيا الى التخويف من القبر ووحشته ووصف الجنة ونعيمها وجهنم وأهوالها

الكتابة

الكتابة الخطية

دَرَج الخط فى هذا العصر فى الطريق التى مهدها ابن مقلة وابن البوّاب وياقوت المَلَكى وياقوت المستعصمى ، واستعملت فيه أكثر أنواعه ، الاَّ أنهُ اشتهر من بينها تسعةُ أنواع :

(١) الجليل (على قاعدة الثلث المعروفة لنا) وتشاهد نماذجه المتعدّدة على جدران مساجد القاهرة ، ومدارسها ، وأربطتها ، وخرائب قصور أمرائها

(٢) قلم الطُّومار (على قاعدة الثلث أيضاً) وكان تكتب به أسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود ونحوها (راجع صبح الأعشى جزء ثالث)

(٣) قلم الثلث ويشبه قلم الثلث عندنا ، ومنه الثلث المبسوط الحروف المسمى الآن بالريحانى كما فى هذا الشكل

(٤) النسخ على قاعدته المعروفة الا أن بعض حروفه معلّق الأطراف الى فوقُ ويقرب مما نسميه الآنَ خط التعليق ، وكانت تكتب به كتب العلم والأدب

(٥) التعليق – وكان يطلق على الثلث الخفيف عندنا مع تعليق خراطيم الحروف الى أعلى

(٦) قلم الرقاع – وكان وسطاً بين النسخ والتوقيع، وكان تكتب به كتب العلم والأدب والرسائل

(٧) القلم المسلسل المشتبك الحروف ، وكانت تكتب به عامة الرسائل المطوّلة والعقود وكتب الوقف ونحوها

(٨) الخط الفارسي ، وكان استعماله عاماً فى أواسط آسيا وفارس

(٩) الخط الأندلسي – وكانت أنواعه لا تختلف الّا بالصغر او الكبر ، وربما مال الجليل عنه الى بعض قواعد الثلث فى أواخر عصورهم كما يشاهد على جُدْران الحمراء بغرناطة

وكان النقط والشكل فى هذا العصر قليليَ الاستعمال فى الرسائل الديوانية والإخوانية كثيريهما فى كتب العلم

وما زال الخط يجرى فى مضماره حتى قبض على عنانه مُكتِبو الترك العثمانيين فحوّلوا بعض أنواعه وخاصةً قلم الرقاع (الرقعة) الى ما نعرفه ، وارتقوا بالمسلسل الى الغاية وولدوا منهُ خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وأبدعوا فى بقية الأنواع بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق

ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الأماسى إمام الخطاطين العثمانيين وجلال الدين والحافظ عثمان

الكتابة الانشائية

كتابة الرسائل

اتُّبعت فى كتابة الرسائل أثناء هذا العصر طريقةُ القاضى الفاضل، التى أساسها المعانى الخيالية والتزام السجع والاستعارة والطباق، ومراعاة النظير والتلميح والغلُوّ فى التورية والجناس؛ وعضَدَ هذه الطريقةَ من كُتّاب هذا العصر شهابُ الدين محمودٌ الحلبى [1] ومُحيى الدين بن عبد الظاهر، وابنُ فضل الله العُمَرى وأولاده. وبقيت هذه الطريقة مرعيةً فى مصر والشام حتى نهايةِ دولةِ المماليك وصدر حكومة العثمانيين

(١) ولد بدمشق وتخرج على ابن مالك النحوى وعلماء الشام ثم انتقل الى مصر وأقام بها مدة يتقلب فى مناصبها ثم جهز الى دمشق رئيسا لديوان انشائها الى ان توفى سنة ٧٥٥

ولما غلبت اللغة التركيةُ العثمانيةُ على كتابة الدواوين وأصبحت رسميةً فى الحواضر والأمصار، أخذ شأنُ الكتابة العربية فى الاضمحلال، وتناقصت الرغبةُ فى إحسان صناعتها، وقلّ النابغون فيها، ولم يعُد فى استطاعة الكاتب العربى إصابةَ وجوه البلاغة فضلاً عن إحسانه استعمالَ المحسّنات اللفظية فأصبحت الكتابةُ بذلك مُجرَّدَ فقار من السجع المتكلف، خاليةً من كل مزية الاّ المبالغة والتهويل

وأكثر ما كانت تستعمل فى الرسائل الاخوانية وما أشبهها، بل عجزَ الكتاب فى أواخر هذا العصر أن يكتبوا لاخوانهم من انشائهم فوُضِعت دواوينُ كتابيةٌ تشمل عدّة صور من المكاتبات المعتادة، يستعير منها المراسل صورة قد تناسب غرضه وقد لا تناسبه – أما كتابةُ من عاصر المماليكَ من أهل الأندلس فكانت أمثلَ كتابة فى هذا العصر على ما فيها من التكلف أيضاً بحيث يمكن قياسها بكتابة المتأخرين من أهل العصر الماضى

الكُتّاب

القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجُذامى المصرى مؤيد الطريقة الفاضلية ورأس المترسلين فى دولة المماليك البحرية

وُلد سنة ٦٢٠ ورباه والده تربية شريفة جمع بها بين علوم الفقهاء وبلاغة الأدباء وظَرْف الشعراء: فكان فى زمانه زعيم كل هؤلاء. وبرع فى كتابة الرسائل سالكاً طريقة القاضى الفاضل، وخدم فى ديوان الإنشاء مدّةَ الملك الظاهر بيبرس البندقدارى (١) وولديه وبعض أيام المنصور قلاوون (٢) ويعتبر محيى الدين وابنه محمد فتح

(١) هو اشهر سلاطين المماليك البحرية توفى سنة ٦٧٦ اما ولداه فهما الملك السعيد محمد بركة، تولى الملك سنتين وشهراً وخلع، والملك العادل سلامش ملك خمسة اشهر وخلعه الامير قلاوون وتولى بدله

(٢) هو الملك المنصور قلاون الصالحى النجمى من اعظم ملوك المماليك توفى سنة ٦٨٩

الدين من واضعى اصطلاح الانشاء ونظامِ ديوانه الذى بقى مرعياً فى مصر والشام حتى نسخه النظام التركى العثمانى، وتوفى سنة ٦٩٢ وله تآليف ورسائل ومكاتبات سلطانية كثيرة، وشعر رائق

ومن فصوله فصل من رسالة كتبها على لسان الملك المنصور قلاوون يردُّ على صاحب اليمن فى تعزيته على موت ابنه، ويظهر التجلد على فقده

«ولنا (والشكر لله) صبرٌ جميلٌ، لا نأسف معه على فائت، ولا نأسىَ على مفقود، واذ علم الله (سبحانه) حسنَ الاستنابة الى قضائه، والاستكانة الى عطائه، عوّض كلَّ يوم ما يقولُ المبشرُ به: هذا مولىً مولود، وليست الإبل بأغلظَ أكباداً ممن له قلبٌ لا يُبالى بالصدَمات كثُرتْ أو قلّتْ، ولا بالتباريح حَفَرتْ أو جلّت، ولا بالأزمات إن هى توالتْ أو تولّتْ. ولا بالجُفون ان ألقتْ ما فيها من الدموع والهجوع وتخلّتْ ويخافُ من الدهر من لا حلَبَ أشطُره، ويأسفُ على الفائت مَن لا بات بنبأ الخطوب الخطره. على أنَّ الفادحَ بموت الولد الملك الصالح (رضى الله عنه) وان كان مُنكيًا، والنافح بشجوه وان كان مُبكيًا، والنائحَ بذلك الأسف وان كان لنار الأسف مُذكيًا، فإن وراء ذلك من تثبيت الله عز وجل ماينْسِفهُ نسْفًا، ومن إلهامه الصبرَ ما يُجدِّدُ لتمزيق القلوب أحقَّ ما به تُرفى، وبكتاب الله (تعالى) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) عندنا حسن اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحاً»

شهاب الدين

ابن فضل الله العمرى

هو الشاعر الكاتب المصنف القاضى أبو العباس شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمرى، سليل عمر بن الخطاب، وصاحب كتاب مسالك الأبصار

ولد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ وتفقه وتأدب على أبيه وغيره من أئمة وقته فخرج واحدَ زمانه علماً وأدباً وترسّلاً وتصنيفاً وشعراً، ولم يكن بين عصره وعصر القاضى الفاضل من يدانيه فى شىء من ذلك على كثرة النابغين فيهما، وكان أعلمَ أهل

القُطرين بتاريخ الملوك وطبقات العلماء، والأدباء، وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية : كالهند والصين والترك وغيرها ، فوق الفقه الذى نال فيه مرتبة الافتاء؛ وكان أبوه وعمه يتناوبان كتابة السر فى مصر والشام لسلاطين آل قلاوون ونوابهم ، وخلفهما فى ذلك شهاب الدين وأخوه وأولادهما فى مناصب رياسة دواوين الانشاء وكتابة السر وغيرهما لآل قلاوون وآل برقوق ؛ وتوفى ابن فضل الله سنة ٧٤٩

ومن انشائه فى وصف قِطّ زَبَاد من رسالة طويلة (وقط الزباد الذى لا تحكيه الأسود فى صُوَرها، ولا تسمح غِزلانُ المسك بما يخزُنه من عَرفه الطيب فى سُرورها، كم تنقل فى بيوت طابت موطنًا، ومشى من دار أصحابه فقالوا (ربنا عَجِّل لنا قِطَّنا)

ومن فصول رسائله فصل كتبه من رسالة عن لسان سلطانه الى نائب الشام مع طيور صيد جَوَارح أرسلها اليه :

صدرت هذه المكاتبة الى الجناب العالى بسلام جميل الافتتاح، وثناء يطير اليه وكيف لا تطير قادمة بجناح ، ونُعلمه ان مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التَّذكار من الجوارح بما بقى من رسمه، وجرت عادة صدقاتنا الشريفة أن تُحسَب فى قسمه، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مَطار، ولا يوقد للقِرى فى غير حماليقها جذوة نار، ولا تؤمُّ طيراً الاّ وترشُّ الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار، وهى طائر كَمْ لها من فتكٍ أخذ الطير من مأمنه، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيًّا بأحسنه .

ومن تأليفه كتاب «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» فى بضع وعشرين مجلدة ولا يعلم قبله كتاب وَسِع من علوم التاريخ ووصف الأرض والفلك والأدب ماوسعه، وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » فى فن انشاء الدواوين وكتاب « فواضل السمر فى فضائل آل عمر »

لسان الدين بن الخطيب

هو ذو الوزارتين، الكاتب الشاعر، الفقيه، المصنف، الحكيم المتطبب، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب

ولد سنة ٧١٣ بمدينة غرناطة من بيت عربى عريق فى العلم والأدب والخطابة

والرياسة وقيادة الجند ، وقرأ وتأدب وتفقه على مَشْيَختها . واجتمع له من الحكمة والأدب ملكة بذّ بها أُدباء الأندلس كتابةً وشعراً وتصنيفًا وسياسة

واشتهر بادئ أمره بنظم الشعر فأنشأ القصائد البليغة ، وأشاد بمدح السلطان أبى الحجاج يوسف أحد ملوك بنى الأحمر فجعله فى عداد كُتَّابه، ثم اجتباه وأضاف اليه الوزارة وفوض اليه جميع شؤون المملكة ؛ وما برح على هذه الحظوة حتى مات سلطانه وتولى ابنه مكانه فأقره على الوزارة، ثم وشى به حساده من الفقهاء والكتاب عند السلطان، وكادوا له المكايد، واتهموه بالإلحاد فى الدين حتى أحفظوه عليه فلما أحس بتنكره له فر الى المغرب الأقصى فأكرمه سلطانه ثم ابنه من بعده، الى أن ثار عليه ثائر وساعد ملك بنى الأحمر هذا الثائر بشرط تسليمه ابن الخطيب له فتم له أمره ، وسُجن بفاس وخُنِق فى سجنه ثم دفن من الغد بها سنة ٧٧٦

وكان ابن الخطيب خاتمة بلغاء الأندلس وآخرَ الرؤساء الأعيان من كتاب الرسائل والتأليف، وكان فى عدوة الأندلس يضارع ابن خلدون فى عدوة افريقية : فقهًا ولغة وأدبًا وتاريخًا وشعراً. غير أن ابن خلدون كان قليل الحفل بالسجع والزخرف، وكان بابن الخطيب لوثة منهما

وكانت عبارة رسائله مشوبة بصبغة يسيرة من أسلوب الفقهاء ورسوم العلماء . وتُشفع غالبًا بشىء من شعره إما متخللاً لها أو متقدمًا صدرها، وقلَّما صدرت عنه رسالة موجزة ، شأن أكثر كتاب الأندلس

ومن قصار رسائله رسالة فى الشوق كتبها الى ابن خلدون وهى بعد الديباجة (أما الشوقُ فحدِّثْ عن البحر ولا حرج ، وأما الصبرُ فَسَلْ به أيَّةَ درج ، بعد أن تجاوزَ اللِّوى والمنعرَج ، لكن الشدَّةَ تعشَق الفرَج ، والمؤمن ينشَقُ من رَوْح الله الأرَج ، وأنَّى بالصبر ، على إبر الدَّبْر ، بل الضرب الهَبْر ، ومطاولة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ؛ وهل للعين أن تسلو سلوَ المُقْصِر ، عن إنسانها المُبْصِر ، أو تذهل ذهولَ الزاهد ، عن سِرِّها الرائى والمُشاهد ، وفى الجسد مضغةٌ يصلُح اذا صلَحت ، فكيف حالُه ان رحلت عنه ونزحت ، واذا كان الفراقُ هو الحِمامَ الأوَّل ، فعلامَ

المعوَّل ، أعيتْ مُراوضةُ الفِراق ، على الراق ، وكادتْ لَوعةُ الاشتياق ، أن تُفضيَ الى السِّياق

تركتمونى بعد تشييعكمْ أُوسعُ أمرَ الصبر عِصيانا
أقرَعُ سنّى ندمًا تارةً وأستميحُ الدمعَ أحيانا

التدوين

ألَّف علماء هذا العصر تآليف جمّة أخلفت على العربية بعضَ ما أباده التتار والصليبيون : من الكتب النفيسة ، ويرجع أكثر الفضل فى ذلك الى علماء مصر والشام وجالية الأندلس . أما أعاجم المشرق وان ألَّفوا فى العلوم الاسلامية والفلسفية فان تأثير بيئتهم الأعجمية جعل كتبهم على شرف موضوعها وجلال مباحثها صعبة التناول ، ضعيفةَ الأثر فى تقدُّم اللسان العربى

ونذكر هنا لُمَعًا يسيرةً من أحوال العلوم العربية ومؤلفيها فى هذا العصر

الأدب

قد كان لأدباء القاهرة من الكُتّاب السبقُ فى وضع الكتب الجامعة التى تبحث فى عدة علوم أدبية أو ملحَقةٍ بها : ومن هؤلاء

شِهاب الدين النُّوَيْرى صاحبُ نهاية الأرب [1] وابنُ فضل الله العُمَرى صاحب مسالك الأبصار ، وشهاب الدين القَلْقَشَنْدِى صاحب صُبح الأعشى [2]

وممن ألَّف فى الأدب بمَناحٍ مختلفة

جمال الدين الوطواط صاحب الغُرر والعرر وشهاب الدين الحلبى صاحب منازل

(١) هو شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب بن احمد البكرى النويرى المؤرخ الاديب ، نسب الى نويرة احدى قرى مديرية بنى سويف توفى سنة ٧٣٣

(٢) هو شهاب الدين احمد بن على بن احمد القلقشندى نزيل القاهرة ، تفقه ومهر وعانى الادب وكتب فى الانشاء وكتابه صبح الاعشى فى صناعة الانشا احسن ما كتب فى تاريخ الانشاء طبع فى مصر فى ١٤ مجلدة ، وتوفى سنة ٨٢١ و (قلقشندة احدى قرى مديرية القليوبية)

الأحباب ، وحسن التوسل الى صناعة الترسل ، وشهاب الدين احمد الأبشيهى صاحب المستطرف ، والنواجى [1] صاحب حلبة الكميت

بقية العلوم الاسلامية

لم تكن مصر ولا الشام فى العصور الأُولى مَيدانًا لتسابق جِياد علماء اللغة كما كان العِراقان والأندلسُ

ولما أباد التتارُ بقيةَ العلماء والنحاة فى الشرق ، كاد أفق المشرق والشام ومصر يصفَر من النحاة وأهل اللغة لولا أن تداركها الله بدخول التتار فى الاسلام ومعاضدتهم هم والدول التى خلفتهم للعلم والعلماء ، وبجلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الأندلس والغرب قبيل حادث التتار وبعده كابن مالك [2] والشاطبى [3] وأبى حيان [4] وابن منظور الافريقى ، فجدّدوا النحو واللغة بمصر والشام ، وتخرج عليهم تلاميذ أفاضل كانوا كواكب العصور المتأخرة ، فدوّنوا العلم وحفظوه لمن أتى بعدهم ممن نشئوا فى العصور المظلمة

على أن أكثر هؤلاء العلماء المتأخرين لم يكونوا منقطعين للعربية وحدها بل كان لهم تخرُّجٌ فى كثير من العلوم ولاسيما الشرعية التى كانت الرغبة فيها حينئذ تفوق كلَّ رغبة . ولم يُعْنَ فى مصر والشام والغَرْب من العلوم الكونية الّا بالرياضة العملية من الهندسة والحساب والميقات وهُجِرت العلومُ الفلسفية والمنطق ، بل حكم بعضُهم بكفر منتحلها ، وبقى كثيرٌ من علماء المشرق من الفرس والأفغان والهنود يزاولها الى وقتنا هذا من غير تأثير لهم فى ترقية شأنها عما كانت عليه

(١) هو شمس الدين محمد بن حسن بن على فاق أهل عصره فى الادب وألف كتباً كثيرة فيه توفى سنة ٨٥٩ و (نواج) احدى قرى مديرية الغربية

(٢) هو العلامة جمال الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائى ، الجيانى ، نزيل دمشق الشام امام النحاة ومجدد النحو فى المشرق ، وحافظ اللغة وصاحب الألفية والتسهيل توفى سنة ٦٧٢ و (جيان) بفتح الجيم وتشديد الياء مدينة من مدن الاندلس شرق قرطبة

(٣) هو الشاطبى النحوى محمد بن على بن يونس الاندلسى البلنسى تصدر بالقاهرة فى اللغة والنحو وروى عنه أبو حيان وتوفى سنة ٦٨٤

(٤) هو الامام أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطى نحوى عصره ولغويه ومقرئه توفى سنة ٧٤٥

كتابة التدوين والتصنيف

أما كتابة التدوين فكانت فى المتون ونحوها موجزة جدًّا، جارية على أسلوب الأقيسة المنطقية، وكانت فى الشروح والمطولات مبسوطة، كثيرة النَّقل عن الأئمة، غزيرة الاستدلال بالبراهين والأدلة العقلية والنقلية؛ وكان للشافعية فى الايجاز وتنقيح التحرير الباعُ الطولى، وبقيت هذه الحال حتى أوائل الحكم العثمانى، ثم اخترع تأليفُ الحواشى والتقريرات والرسائل الخاصة بشرح قاعدة أو جملة أو قصيدة، وضعُفت عبارتُها وازدادت تعقيداً وغموضاً حتى أصبح ذلك مما يتنافس فيه ويظن فى صاحبه العلم والدقة

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر ابن خلكان – وابن خلدون – والسيوطى – وابن مكرم – والفيروزابادى – وعز الدين بن عبد السلام [1] – وابن حجر العسقلانى [2] وابن هشام النحوى [3] – ولسان الدين بن الخطيب – وسعد الدين التفتازانى [4] – والسيد الجرجانى [5] والشهاب الخفاجى

ابن خلّكان

هو قاضى القضاة شمسُ الدين أبو العباس أحمد بن ابرهيم بن أبى بكر خلّكان الإربِلى

(١) هو الفقيه المجتهد الشافعى علامة الزمان عز الدين، نشأ فى الشام وتعلم بها وتصدر، وقدم مصر فأقام بها اكثر من ٢٠ سنة وتوفى سنة ٦٦٠

(٢) هو امام الحفاظ فى زمانه قاضى القضاة ابو الفضل احمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى ثم المصرى صاحب شرح البخارى والاصابة فى الصحابة توفى سنة ٨٥٢

(٣) هو امام النحويين، وفخر المصريين، عبد الله بن يوسف بن احمد بن عبدالله بن هشام الانصارى صاحب مغنى اللبيب، عن كتب الأعاريب، ولد سنة ٧٠٨ وتوفى سنة ٧٦١ ودفن بجوار باب النصر ولا يزال قبره معروفاً

(٤) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله العلامة فى النحو والتصريف والبلاغة والتوحيد والفلسفة والفقه والاصول، انتهت اليه معرفة العلوم بالمشرق توفى بسمرقند سنة ٧٩١

(٥) هو علامة المشرق السيد الشريف على بن محمد بن على الحنفى الجرجانى، كان نظير سعد الدين فى اكثر العلوم ويزيد عليه فى فصاحة المنطق، وجرت مناظرات بينهما فى مجلس الطاغية تيمور لنك وتوفى بشيراز سنة ٨١٦

وُلد سنة ٦٠٨ بمدينة إربِل [1] من بيت كبير عريق فى الفضل، وتوفى والده وهو ابن سنتين. فنشأ باربل وأقام بها الى سنة ٦٢١ فرحل الى حَلَب ومكث بها سنين ثم الى دمشق وأقام مدة، ثم أقام بمصر وتولى القضاء بها، وفيها ألف أكثر تاريخه العظيم (وَفَيَات الأعيان) ثم تقلبت به الأحوال بين مصر والشام الى أن مات بدمشق سنة ٦٨١

وكان كاتبًا بليغاً، وشاعراً مجيداً، حسن المحاضرة، لطيف المعاشرة، واسع الاطلاع شديد التحرى والضبط

(وتاريخه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) أفضل ما بأيدى الناس من كتب التراجم لشدّة عنايته بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان، وتحقيق الحوادث بحسب الامكان، هذا فوق مَزيته الكبرى، وهى بناؤه على تعيين الوفيات، وتنزُّهه عن رواية أقوال الفحش والخَنا، وان كان يؤخذُ عليه روايتهُ لكثير من الأخبار التى لا تخلو من مبالغة أو وضعها على عِلاتها متوخيًا فى ذلك أمانةَ النقل. وقد اشتمل هذا التاريخ على ٨٤٦ ترجمة ثم تمم عليه محمد بن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ بكتابه الذى سماه فوات الوفيات ولكنه لم يدرك شأو سابقه لا فى الضبط ولا فى ذكر تاريخ الوفيات

ابن خلدون

هو حكيمُ المؤرّخين، وعلَم المحققين، الفقيهُ القاضى الكاتب الشاعر المصنف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون

وكان بيت خلدون هذا من أشرف بيوتات الشرف والرياسة وقيادة الجند بأشبيلية من قديم الزمان، ولم ينقطع منهم الى خدمة العلم والأدب غير المترجم وأبيه. وكان أهله قد انتقلوا الى تُونُس عند تغلّب الأسبان على إشبيلية. ويتصل نسبهم بوائل بن حُجْر من أقيال اليمن من حَضْرَمَوْت

وُلد ابن خلدون بتُونُس سنة ٧٣٢ هجرية فحفظ القرآن الكريم وقرأه بالسبع

(١) تقدم أنها من مدن الجزيرة

وتلقى العلمَ والأدب من أبيه ومن كبار العلماء، وقرأ العلوم العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب

ولم يزل مُكبًّا على تحصيل العلم حتى دهم افريقية طاعونٌ جارف مات فيه أبواه وأكثر ذوى قرابته وشيوخه فاحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يَطُرَّ شاربُهُ. فكتب لبعض ملوك الدولة الحفصية بتونس ودولة بنى مَرين بفاس، ثم وصل بعد ذلك الى ملوك بنى الأحمر فحظى عندهم حتى حسده على ذلك صديقه لسان الدين ابن الخطيب فأقلع عنها، وذهب الى صاحب بجايةَ بالمغرب الأوسط فوزَر له، وبقى يتردَّد بين المغرب الأوسط والأقصى وافريقية والأندلس حتى حسن فى عينه التخلى عن السياسة والانقطاع الى العلم فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربعة أعوام ألف فيها تاريخه ومقدّمته التى لم ينسج أحد من المتقدمين ولا المتأخرين على منوالها، ثم عزم على الحج فدخل مصر سنة ٧٨٤ ﻫ زمن سلطانها برقوق [1]. ثم استقدم أهله وولده من المغرب فغرقت بهم السفينة فأقام بمصر حزيناً وجلس للتدريس بالجامع الأزهر وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦ ﻫ وأظهر العدل فى أحكامه، واستقال من القضاء ثم عاد اليه، وخرج مع كثير من علماء مصر فى جيش السلطان فرج [2] ابن برقوق لمدافعة تيمورلنك [3] عن الشام فوقع مع كثير من العلماء فى أسر تيمور فأدخل عليه فخلبه بسحر بيانه فأكرمه وسرّحه الى مصر ليأتى له بتاريخه ومقدّمته فذهب ولم يعد اليه؛ وبقى بمصر يشتغل بالتدريس تارة والقضاء أخرى حتى مات وهو قاضى المالكية بمصر للمرة السادسة [4] سنة ٨٠٨ ﻫ

---

(١) هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن انص الجركسى أول ملوك الجراكسة وسمى برقوق لجحوظ عينيه، حكم مصر والشام ثم خلع ثم حكم ثانية وبقى سلطاناً حتى توفى سنة ٨٠١

(٢) هو الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق حكم ثم خلع ثم حكم ثم قتل سنة ٨١٥

(٣) هو الطاغية الجبار تيمورلنك من سلالة جنكيز خان من جهة النساء ملك أواسط آسيا وأعلى الهند وفارس وكاد يقضى على الدولة العثمانية فى بدء نشأتها مع اسلامه والمامه بكثير من العلوم توفى سنة ٨٠٧ ودفن بسمرقند

(٤) كذا فى حسن المحاضرة للسيوطى

منزلته فى الكتابة والتاريخ والشعر

أحيا ابن خلدون فى عصره الكتابة المرسلة الفطرية الخالية من السجع وتكلف البديع فى عصر بلغ فيه غايته، والى ذلك عمد فى كثير من فصول مقدمة تاريخه فجاء بعض كتابته فيها بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن الثالث، ولم يكن الانتفاع بالمقدمة وكتابته فى وقت أظهر مما كان فى العصر الحاضر، اذ كانت هى الأسلوب الأكبر لكتاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة

وكان ابن خلدون إماماً حكيماً فى التاريخ أكثر مما كان إماماً فى الكتابة فانهُ يعتبر أكبر واضعى علمى العمران والاجتماع بما خطه فى مقدّمته، ولم تعد أحكامه فى سياسة الممالك الاستبدادية التى ذكرها فى مقدمته مطردة فى عصرنا هذا اذ أصبحت طريقة حكومة ممالك عصرنا دستورية فضلاً عن أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عما كان قبل

ويؤخذ على ابن خلدون فى مقدمته انحاؤه على العرب وقسوته فى الحكم عليهم فى كثير من سياسة الملك

ويمتاز تاريخه بأنه التاريخ الوحيد الذى فصل الكلام على دول المغرب من البربر وغيرهم

وكان ابن خلدون شاعراً، طويل النفس، وشعره بالاضافة الى شعر عصره غاية فى الجودة وان وصفه هو بأنه متوسط بين الجودة والقصور تواضعاً منه

جلال الدّين السّيوطى

هو عبد الرحمن جلال الدين ابن الامام كمال الدين الخُضَيْرى السيوطى العالمُ المحدّث المفسر المتفنن الجامع المختصر، صاحب التصانيف المشهورة، ورسائل العلم المأثورة

ولد سنة ٨٤٩ ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وعمره دون الثمان، ثم حفظ متونَ الفقه والنحو، وأخذ العلمَ عن مشايخ وقته وابتدأ فى التصنيف وسنّه ١٧ سنة ثم لازم الأشياخَ

وطلبَ العلمَ فى بقاع الأرض فدخل الشامَ والحجازَ واليمنَ والهند والمغربَ والتكْرُور (١) ونبغ فى كثير من العلوم ، ورزق التبحُّر فى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع

وتولى التدريس والافتاء ولم يكن أشهرُ منه فى زمنه . ويُعَدُّ السيوطى من الأئمة الذين حفظوا العلمَ للخلف وسهَّلوا سُبُلَه للمتأخرين ، وقد ترك للناس أكثرَ من ثلثمائة مُصنَّف، ولو لم يكن له الاَّ الإتقان فى علوم القرآن، والمزهر فى أصول اللغة، والأشباه والنظائر فى دقائق النحو وأصوله، والهَمْع على الجمع فى فروع النحو والصرف، لكفاه ذلك فخراً

وتوفى سنة ٩١١ هجرية ودفن بالمقبرة المنسوبة اليه شرقى القاهرة الجنوبى

الشعر (٢)

لما كان أكثرُ سلاطين الاسلامِ وملوكهِ وأمرائه فى هذا العصر بالمشرق والشام ومصر أعاجمَ بالفطرة، كان ميلُهم الى الشعر العربى غيرَ طبيعىّ، وعطفُهم على فحول الشعراء البلغاء ضعيفاً، ولذلك انقرض الشعرُ العربىّ من أواسط آسيا وبقيت صُبابةٌ منه بالعراق والجزيرة، وبقى على شئ من الرونق فى الشام ومصر والأندلس والمغرب غير أنهُ قل التكسُّبُ به فيها . فمال أكثر الشعراء الى انتحال الكتابة فى الدواوين صناعة، واستعملوا الشعر فى تملُّق الملوك والرؤساء وفى إظهار التفصُّح والتسلية . فهُجِرَ قولُه فى الأغراض الهامَّة، وعُدِلَ به الى اغراضٍ مبتدَعةٍ غيرِ طبيعيةٍ إما مستحسنةٍ فى الجملة كمدح النبىّ صلى الله عليه وسلم والشكوى اليه أو مدحِ بعض الأولياء أو اللَّهَجِ بأحوال التصوف والزهادة ونحو ذلك . وإما تافهةٍ كالأغراض الآتية :

(١) هى جزء من السودان الغربى يقابل بلاد مراكش جنوباً والسنغال شرقاً وهى المسماة عند الاوربيين بأعالى (النيجر) وكان من أعظم بلاده مدينة (تنبكتو) بضم فسكون مكررين لاتا ومدينة (مالى) وهى البلاد التابعة لفرنسا الآن

(٢) يجدر بمن يريد التوسع فى معرفة احوال الشعر غرضاً ولفظاً ومعنى فى هذا العصر ان يقرأ على الأقل شرح بديعية ابن حجة المسماة بخزانة الادب

(١) الغزل غير الحقيقى وبخاصَّة المذكر، وزاده مقتاً وسَماجة صدوره عن كبار العلماء ومشايخ الصوفية

(٢) اظهار البراعة بنظم مقطَّعات تتضمن غزَلاً أو وقائعَ خيالية لمجرد العثور على لفظ تصح فيه توريةٌ أو يلتئم معهُ جِناس

(٣) ازدياد المَجَانة والخَلاعة والهجاء المقذِع بذكر العورات وأوصافها

(٤) وصف كثير من الأشياء والآلات التى لا يُؤبَه لها : كالمروحة والسكين والدواة والسراج والمِبخرة ورقعة المصلى

(٥) الألغاز والأحاجى .

أمَّامعانيه فقلَّ فيها الاختراع ودقة التصوير وضربُ الأمثال وإبراز الحكمة، وان كثر تنوع التشبيه وتخيل الاستعارة .

وأما ألفاظه وأسلوبه فحَدَث فيهما ما يأتى :

(١) الاقتصارُ على الألفاظ السهلة ، وهجرُ الغريب بل اللفظِ الجَزْلِ حتى استعملوا الألفاظ العامية أو التركية الفاشية فى ذلك الزمان

(٢) الاقتصارُ على التراكيب السهلة ، واستعمالُ كثير من الأمثال العامية

(٣) تكلُّف البديع ولا سيما التوريةُ والجناس ، ثم قلَّ ذلك فى أواخر هذا العصر : لضعف الشعراء عن استخراجه والترفق فى استعماله

(٤) اظهار الحِذق بالاستكثار من الألفاظ المصغَّرة أو المهملة أو المعجمة جملة أو بصورة خاصة ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو ما لا يستحيل بالانعكاس ، أو التاريخ الشعرى ، ولا سيما آخر هذا العصر الذى بلغ فيه التاريخ الشعرى غايته

(٥) كثرة تضمين الشعر المشهور ، وكذلك التشطير والتخميس

(٦) كثرة الاقتباس من القرءان الكريم والحديث ، وقلما يكون بغير تورية

أما أوزان الشعر فلم يحدُث فيها فى هـذا العصر أوزان جديدة ، وانما شاع فيه استعمال الأوزان المولدة ونظم كثير من الموشَّحات الفصيحة والعامية وكثير جدًّا من

الموالیا[1] والزجل[2] والقومة[3] وكان وكان[4] ونحوها، وأعجب ذلك ملوك مصر ولا سيما بنى قلاوون[5] وبرقوق فأثابوا الزجالين وقربوهم، وراج الزجل فى أيامهم حتى كاد ينسخ الشعر الفصيح . ومن أشهر هؤلاء الزجالين شيخهم الشيخ خلف الغبارى زجال آل قلاوون الذى استخدم الزجل فى كل أغراض الشعر

الشعراء

ظهر فى هذا العصر شعراء كثيرون، من أشهرهم :

(١) شيخ شيوخ حماة شرف الدين الانصارى المتوفى سنة ٦٦١
(٢) جمال الدين بن نباتة المصرى وسنترجم له
(٣) شهاب الدين التَّلَّعْفَرى المتوفى سنة ٦٧٥
(٤) الشاب الظريف المتوفى سنة ٦٨٧
(٥) الامام البوصيرى وسنترجم له
(٦) ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩
(٧) أبو بكر بن حجة المتوفى سنة ٧٧٦
(٨) صفى الدين الحلى وسنترجم له
(٩) فخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤
(١٠) ابن معتوق الموسوى وسنترجم له

---

(١) تقدم الكلام فى المواليا
(٢) لاحد لأوزانه وانما اشهرها (مستفعلن فعلن فعلن) اربع مرات لكل دور، وربما قالوا (فعلان) بدل (فعلن) الأخيرة
(٣) نوع من الزجل كان يوقظ به الناس للسحور فى رمضان ووزنه (مستفعلن فعلان) اربع مرات لكل دور
(٤) نوع من الزجل ودوره مركب من أربعة شطور: الاول وزنه (مستفعلن فاعلاتن) والثانى (مستفعلن مستفعلن) او (مستفعلن مستفعلان) والثالث مثل الاول والرابع (مستفعلن فعلان)
(٥) هم اولاد الملك المنصور قلاوون الصالحى النجمى سابع سلاطين المماليك البحرية واشهرهم الملك الناصر محمد بن قلاوون

١ — البوصيرى

هو الكاتب الشاعر المتصوّف، شرف الدين محمد بن سعيد بن حمّاد الصّنهاجى[1] البوصيرى صاحب البردة والهمزية

كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص، وُلد بدَلاص[2] ونشأ ببُوصِير[3] ثم انتقل الى القاهرة، وتعلم علوم العربية والأدب فقال الشعر البليغ فى جدّه وهزله ونظم من جزْله ومرذوله وفصيحه وعاميه، وكتب الرسائل الأنيقة، واتخذ كتابة الدواوين صناعة فتصرف فى مناصبَ كثيرة بالقاهرة والأقاليم، وباشر مديرية الشرقية مدّة، وله فى ذم مباشرى الشرقية قصيدةٌ طويلة

نبذة من شعره

ومن أشهر شعره قصيدة البردة الشهيرة التى وقع الاجماع على أنها أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بانَتْ سعاد ونحوها من مدائح الصحابة؛ قيل انه فُلِج فنظمها فى مرضه وتوسّل بها الى رسول الله فشُفِى من مرضه

وأوّلها :

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مزَجْتَ دَمعًا جرى من مُقلَةٍ بدَمِ
أم هبّتِ الريحُ من تلقاءِ كاظمةٍ[4] ... وأومض البرقُ فى الظلماء من إضَمِ[5]
فما لعينيك إن قلتَ اكْفُفَا همَتَا ... وما لقلبك ان قلتَ استفق يهِمِ
أيحسَب الصبُّ أن الحبَّ مُنكتِمٌ ... ما بينَ منسجمٍ منه ومضْطرِمِ

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله

والنفس كالطفل أن تُهمِلْه شبّ على ... حُبِ الرَّضاع وإن تفْطمْه ينفطمِ
فاصرف[6] هواها وحاذرْ أن تُوَلّيه ... إن الهوى ما تولّى يُصْمِ[7] أو يصِمِ

---

(١) صنهاجة احدى قبائل البربر وأصل وطنها الصحراء جنوبى المغرب الاقصى
(٢) قرية من قرى مديرية بنى سويف (٣) هى بوصير قوريدس من قرى بنى سويف أيضا (٤) راجع مصور بلاد العرب بهذا الكتاب (٥) واد يبتدئ من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) (٦) الصرف فى عرف زمانهم العزل عن الحكم ضد التولية (٧) من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه
(٧) من وصم العود اذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب

وراعها وهى فى الأعمال سائمة (١) ... وان هى استحلت المرعى فلا تُسِمِ
كم حسّنتْ لذةً للمرء قاتلةً (٢) ... من حيث لم يدر أن السُّم فى الدَّسَمِ
واخشَ الدسائس من جُوع ومن شِبع ... فربَّ مَخْمَصَةٍ شرٌّ من التُّخَمِ
واستفرغِ الدمعَ من عَيْن قد امتلأت ... من المحارم والزمْ حِميةَ الندمِ

وقد اتخذ شعراء المدائح النبوية هذه القصيدةَ نموذجًا ينسِجون على مِنْواله فكانت من أقوى الأسباب التى حملت شعراء هذا العصر وما يليه على الإكثار من المدائح النبوية، وكذلك اتخذها أصحابُ البديعيات مثالاً يحتذونه فعارضوها بقصائدهم وزنًا وقافية فلم يَلْحقوا لصاحبها غُبارًا

وقصيدة البوصيرى الهمزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقلُّ عن البردة فى فصاحتها

وأوَّلها :

كيف تَرقَى رُقيَّك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتْها سماء
لم يساووك فى عُلاك وقد حا ... ل سنًا منك دونهم وسناء

وله قصيدة أُخرى على وزن بانت سعاد ، وأوَّلها :

الى متى أنت باللذات مشغولُ ... وأنت عن كل ما قدَّمت مسئول

وتوفى البوصيرى سنة ٦٩٥ بالاسكندرية وقبره بها مشهورٌ يُزار

٢ – صفى الدين الحِلّى

هو الشاعر البديعُ عبد العزيز بن علىّ الشهير بابن سَرَايا الطائى الحِلّى شاعر الجزيرة ولد سنة ٦٧٧ ونشأ بمدينة الحِلّة من مدن الفُرات فتأدّب ونظم الشعر وأجاده وأصبح فيه أشهرَ شعراء عصره ، وخدم به الملكَ المنصورَ نجمَ الدين غازى بن قره

(١) يلمح الى ما يستعمل فى رعى الابل
(٢) الابيات الاتية يلمح فيها الى صناعة الطب والاستفراغ والامتلاء والحمية من ألفاظها

ارسلان : أحد ملوك الدولة الأُرْتُقية ملوك ماردين (١) وديار بكر (٢) من ذيول الدولة السَّلْجوقية فحظِىَ عنده ومدحه بكثيرٍ من القصائد، ومنها جملةٌ بعدد حروف المُعْجَم أوائلُ حروفِ أبياتها كرَوِيِّها وتُسمى القصائدَ الأرْتُقيَّات، وطبعت على حدتها ومع ديوانه

واتصل بعده بابنه الملك الصالح شمس الدين ثم ذهب الى الحج، وعرَّج مُنْصَرَفَه منهُ على مصر فمدح الملك الناصرَ بنَ قلاوون ، وأشار عليه كاتبُ سره القاضى علاء الدين بن الأثير بجمع ديوانه فجمعهُ مرتَّبًا على اثنى عشر بابًا

شعره

وتوفى سنة ٧٥٠ ويعتبر صفى الدين من أئمة البديع المبتدعين فى أنواعه المُغالين فى استعماله فى شعرهم بلا كثير تكلف ؛ وهو أوَّلُ من نظم القصائدَ النبويةَ الجامعةَ لأنواع البديع المسماةَ بالبديعيات على مثال بُرْدة البوصيرى . وقد نظم من كلّ فنون النظمِ الفصيح والعامىّ من جِدّيهما وهزليهما فقال القصائد المطوّلةَ والمقطَّعات والموشَّحات والمخمَّسات والمشطرات والمواليا والزَّجل والقومة وكان وكان، وغيرها ؛ وله جملة مصنَّفات غير ديوانه

نبذة من شعره

ومن قوله فى الأدب :

اسمعْ مخاطبةَ الجليس ولا تكنْ ... عجلاً بنُطقك قبلما تتفهَّمُ
لم تُعْطَ مع أذنيك نُطقًا واحدًا ... الاَّ لِتسمعَ ضِعفَ ما تتكلمُ

وقوله :

اذا الجَدُّ لم يكُ لى مُسعدًا ... فما حَرَكاتى الاَّ سكونُ
اذا لم يكنْ ما يُريد الفتى ... على رَغْمه فليُرِدْ ما يكونُ

وقوله :

بقدر لُغاتِ المرء يكثُر نفعهُ ... فتلك له عند المُلِمَّات أعوانُ
تهافت على حفظ اللغات مجاهدًا ... فكل لسان فى الحقيقة انسانُ

وقوله فى وصف عُود الطرَب :

وَعُودٍ به عاد السرورُ لأنه ... حوى اللهوَ قِدْمًا وهو رَيَّانُ ناعمُ
يغرِّبُ فى تغريده فكأنه ... يُعيدُ لنا ما لقّنتْه الحمائمُ

(١) من مدن الجزيرة (٢) هى التى كانت تسمى قديما آمد

وقوله يصف القاهرة المُعزّية :

لله قاهرةُ المعزّ فانها بلد تخصّص بالمسرة والهنا
أوَ ما ترى فى كل قطر مُنيةً[1] من جانبيها وهى مجتمع المنى

وقوله يصف نيل مصر حين وفائه :

وفى النيل اذ وفّى البسيطةَ حقّها وزاد على ما جاده من صنائع
فما إن تُوفّى الناسُ من شكر منعم يُشار الى انعامه بالأصابع

٣ — ابن نباته

هو الشاعر الأديب والكاتب المصنف، جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك ، وصاحب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، ووارث القاضى الفاضل فى التعصُّب للتورية

وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمدانى

ولد رحمه الله تعالى بمصر الفسطاط سنة ٦٨٦ ونشأ بالقاهرة ، وتلقى العلم والأدب على كبار مشيختها ورؤساء دواوينها ، وأكب على قراءة شعر القاضى الفاضل ورسائله فرسخت فيه طريقتـه من الوَلوع بالتورية والتلميح والطباق ، فعمل على تأييدها والإشادة بها ، فكان بعد الفاضل إما ما لهذه الطريقة نظمًا ونثرًا ، وحاكاه آخرون من أدباء عصره كصلاح الدين الصفدى[2] وكثيرًا ما أغار على معانيه وتورياته، وكزين الدين بن الوردى وغيرهما، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة اللفظ وانسجام العبارة واستعمال المعانى البلدية ‎ شعره

وابن نباتة ممن لا يُعنَى باستعمال الجناس ، ولا يحفِل به كابن الوردى وابن حجة وان وقع أحيانًا فى شعره ، واختلَط فى أواخر عمره ومات بالبيمارستان المنصورى بالنحاسين سنة ٧٩٨[3]

---

(١) كمنية ابن الخصيب ومنية الشيرج ومنية عمر
(٢) هو خليل ابن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ ه
(٣) هو المشهور الآن بمستشفى قلاوون ولم يبق منه الا قسم الرمد

ومن شعره قوله : ‎ نبذة من شعره

يا مشتكى الهمّ دعه وانتظر فرجًا ودار وقتك من حين الى حين
ولا تعاندْ اذا أصبحت فى كدَر فانما أنت من ماء ومن طين

وقوله فى رثاء ولده عبد الرحيم :

يا لهفَ قلبى على عبد الرحيم ويا شوقى اليه ويا شجوى ويا دائى
فى شهر كانونَ وافاه الحِمامُ لقد أحرقتَ بالنار يا كانونُ أحشائى

وله ديوان عظيم طبع فى مصر ، وله عدّة مصنفات منها سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون، وكتاب مجمع الفوائد، وكتاب القَطر النباتى، والفاضِل من انشاء الفاضل ، وفرائد السلوك فى مَصايد الملوك

٤ — ابن مَعْتوق المُوسَوِىّ

هو شهاب الدين بن معتوق الموسوى شاعر العراق فى عصره، وسابق حلبته فى رقة شعره

ولد سنة ١٠٢٥ ونشأ بالبصرة وبها تعلم وتأدب وقال الشعر وأجاده ، وكان فى نشأته فقيراً فاتصل بالسيد على خان أحد أمراء البصرة من قبل الدولة الصَفَوِيّة الإيرانيَّة وكانت وقتئذٍ تملك العراقَ والبحرين ، ومدحه مِدَحًا رقيقةً وأكثرُ شعره مقصورٌ عليه وعلى آل بيته فغمره باحسانه

وابن معتوق من كبار شعراء الشيعة لنشوئه فى دولة شيعية غالية فأفرط فى التشيع فى شعره، وجاء فى مدح على والشهيدين بما يخرج عن حد الشرع والعقل؛ ويمتاز شعره بالرقة وكثرة الاستعارات والتشبيهات حتى لتكاد الحقيقةُ تُهمَلُ فيه جُملة ‎ وصف شعره

وله ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وغيرها، ويشتمل على قصائد ومقطعات ودوبيت وموالِيا وبعض فصول من النثر سماها ابنه جامعُ ديوانه بنوداً

ومن قوله : يهنئ أميراً بالنصر على أعدائه ويصف ايقاعه بهم ويلمح لآيات من القرءان الكريم

وأخرجْتَهمْ فى زعمهم عن ديارهمْ ... وما اعتقدوا هذا الى أوّل الحشر
وألقَوْا حِبالَ المُنكرَاتِ وخيّلوا ... فعارضتهمْ فى آية السيف لا السحر
كفى الله فيك المؤمنينَ لدى الوغى ... قتالَ العِدَا حتى سلِمتَ من الأزر
ولو لم يكفَّ البأسَ عفوُكَ عنهمُ ... لعدت وقدعاد الحديدُ من التبر (١)
فما لبثوا الاَّ قليلاً فكم ترى ... لهم من ظليم (٢) فرّعن بيضة الخِدْر
تولوا مع الخُفَّاش فى غَسَق الدجى ... وخافوا طِلابَ الشمس فى عقِب الفجر
اذا ما لهم عِقبانُ راياتك انجلتْ ... أعيروا من الغربان أجنحةَ الغر
رميتَهمو فى فيلق قد تغرّدت ... به طائرات النجح فى عذَب السُّمر

وله من قصيدة :

لله أيامُ لَهْوٍ بالعقيق وا... ... كانت قصاراً وساءتنى قُصاراها
أوقاتُ أُنسٍ كأنَّ الدهرَ أغفلَها ... إذ من صُروف الليالى ما عرَفناها
لم نَشْكُ من مِحَنِ الدنيا الى أحد ... من البرية إلاّ كان إحداها

(١) اى حمرة الدماء (٢) الظليم ذكر النعام يريد به الفارس الفار عن حرمه

العصر الخامس

وهو عصر النهضة الأخيرة

من ١٢٢٠ – الى الوقت الحاضر

حالة اللغة العربية وآدابها فى هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية فى أوائل القرن الثالث عشر غاية ما وصلت اليه من الفساد والاضمحلال حكومةً وأخلاقاً ولغةً وأدباً، فرأت أوربا أن قد آن الأوان لأن تُجدِّدَ غاراتها عليها ففعلت، ولكن لا بشكل الحروب الصليبية الممقوتة، بل بدعوى نشر متاجرها وبث علومها وآدابها، وبمحاربة الواقفين لها فى طريقها، فابتُدِئ ذلك بحملة نابليون على مصر والشام، فكانت هى أوّل ناشر لعلم أوربا وأدبها فى البلاد العربية وان سبقها بقليل بعضُ الدعاة المسيحيين من أُممها

محمد على باشا

فلما استولى ساكنُ الجنان محمدُ علىّ باشا على مصر بحذقه ودهائه، كان أولَ قاعدة أراد أن يبنى عليها مملكته وسلطانه متابعةُ الأوربيين فى الإدارة والتربية وتنظيم الجيش: لما رآه من آثار الفرنسيين بمصر، ولِما شاهده من تقدُّمهم أثناء اشتراكه فى حربهم مع الترك والانجليز، فاستعان بفرنسا وبعض ممالك أوربا على ادخال المدنية الأوربية فى بلاده فتمّ له بعضُ ذلك، الاَّ أن أحوال البلاد الطبعية والدينيةَ واللغوية لم تكن تُسَهِّل على مستخدمى الأوربيين ومن معه من الألبانيين والترك أن يستقلوا

البعوث الى أوربا — بجميع أمور البلاد. فرأى بحكمته أن يرقِّىَ من أبناء البلاد وجاليةِ الترك والألبانِ مَنْ يكونُ خيرَ واسطة لنقل معارف الأوربيين اليها، فبعث الى أوروبا بثلاثة بُعوث علمية فى أزمنة مختلفة كونت بعدُ ثلاثَ طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط فنقلوا الى اللغة العربية عشراتِ الكتب الجليلة فى العلوم المختلفة فأحدث ذلك فى

أثر البعوث فى اللغة — اللغة العربية انقلابًا عظيمًا، واكتسبت من سَعة الأغراض والمعانى والألفاظ العلمية والأساليب الأجنبية وطرق البرْهنة والاستنباط وترتيب الفكر ثروةً طائلةً، وعهِدَ الى هؤلاء الاساتذةِ ومَن سبقهم ومن لحِقهم من الأوربيين انشاء المصانع الوفيرة، والمدارس الكثيرة من ملكية وحربية، وحاول أن يجعل اللغةَ التركيةَ أساسية أو شبه أساسية فى التعليم والسياسة والادارة فتعذَّر عليه ذلك، واضطرَّ الى مُجاراة طبيعة البلاد فأصبحت العربيةُ لغةَ كل ذلك، وظهرت على اللغة التركية واللغات الأوربية المختلفة

أثر الازهر — التى كانت تدرسُ وجوبًا معها، وكان من الأزهر الشريف كلُّ المدد الذى استمده محمدعلى لتربية البعوث العلمية وتدريس العلوم العربية بالمدارس، ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة متحضرة تتقبل منهم بقبول حسن كلَّ ما يُحسنونه من نتيجة كدِّهم وثمرة أفكارهم، فالتفُّوا حولها وصار للدولة كتابٌ وشعراء ومنشئون فى جريدتها الوقائع أوّل جريدة عربية

أثر السوريين — واقتدى بمصر أهل الشام وصادف ذلك امتداد نفوذ دعاة المسيحية من الامريكان البروتستانت واليسوعيين الكاثوليك وغيرهم فهاجر كثير من السوريين الى مصر وانتظم فى سلك الحكومة والمدارس المصرية، ودخل كثير من نصاراهم مدارس

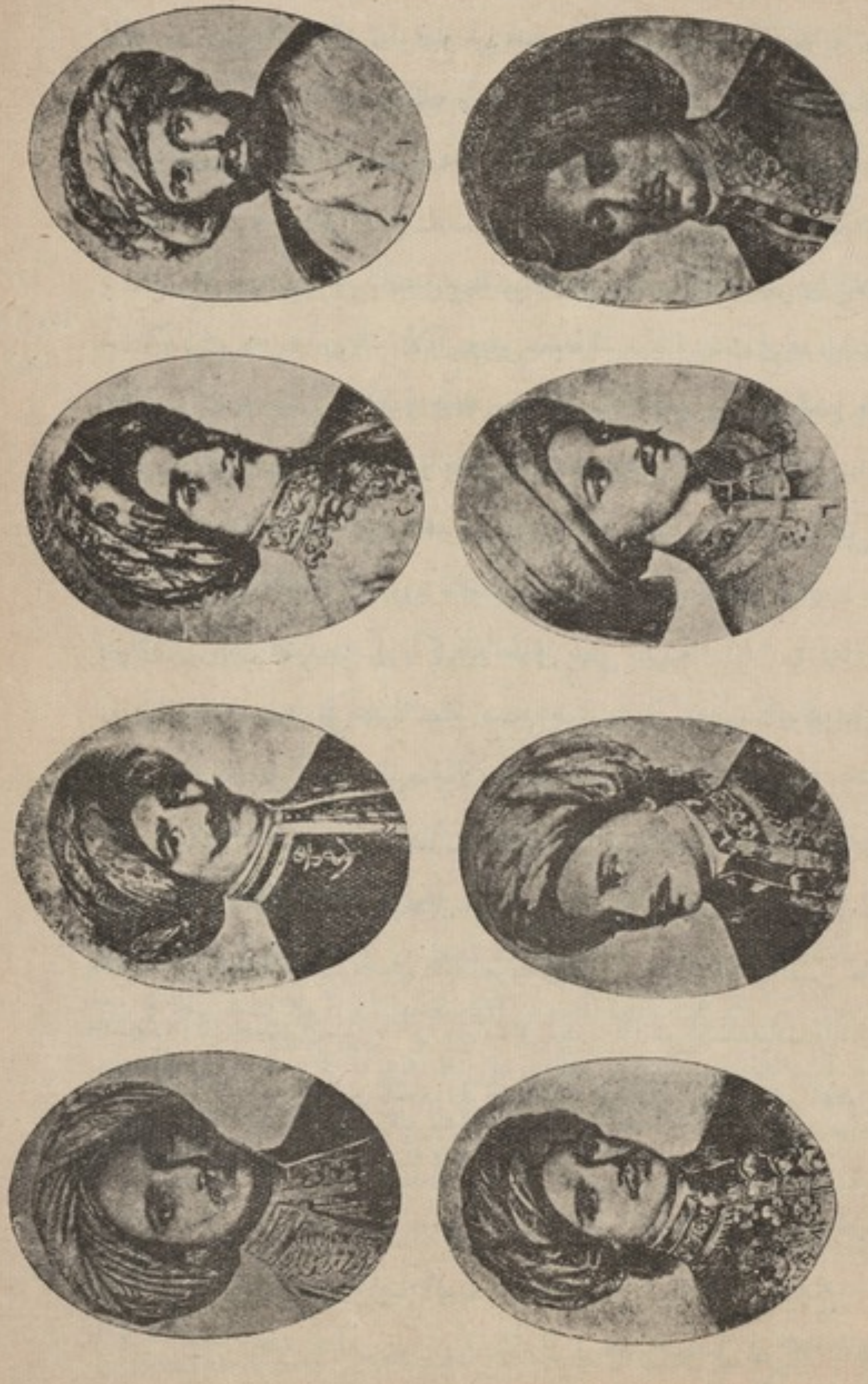

رجال البعثة العلمية الى أوربا

الدّعاة الذين كان أكثرهم من المستعربين العارفين باللغة العربية فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربى، ونبغ من مدارسهم رجال كانوا زهرة سُورِيةَ، وغلب عليهم الأدبُ: من الشعر والكتابة وترجمة الرّوايات الأدبية، واتخذوا ذلك صناعة لهم يتكسبون بها فى الشام ومصر، فعاد ذلك على القطرين بالتقدم فى الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإرادة

أثر اسماعيل باشا فى النهضة

ومن الأسف أن هذه النهضة لم يستمر سيرها فى مصر كما استمر فى الشام بل ركدت ريحها زمن عباس باشا الأول وزمن سعيد باشا، ثم تنسمت فى عصر اسماعيل وما لبث أن صارت رُخاء طيبة فأعاد رحمه الله سيرةَ جده فى نشر العلم فافتتح المدارس والمكاتب وأنشأ الجسور والقصور والمصانع، ووجد أكثر رجال البعوث العلمية الذين رباهم جدّه على قيد الحياة فاتخذ منهم المدرّسين ورؤساء الإدارة، وزاد على جده فى ارسال البعوث العلمية الى أوربا، وظهرت ثمرةُ أعماله فى حياته، وكادت مصر توشِك أن تكون قطعة من أوربا كما قال هو فى بعض حديثه

وباضطراد سيرها على هذا النظام تصبح زهرة الشرق كله ان شاء الله تعالى

ويمكننا تلخيص أسباب النهضة الأدبية فى الأمور الآتية :

(١) اتصال المدنية الغربية بالمدنية الشرقية من أوائل القرن الماضى وابتدأ ذلك بحملة بونابرت واتخاذ الدعاة المسيحيين من الأمريكان البروتستنت واليسوعيين وغيرهم بلاد الشرق مجالاً لأعمالهم، وجعلهم اللغة العربية فى أوّل أمرهم اللغة الرسمية لنشر تعاليمهم وآدابهم، وكان لعملهم فى سورية أثر أبين منه فى مصر، فأنشئوا المستشفيات والمدارس وانتظم فيها كثير من نصارى الشام، فخرجت عدة طبقات منهم كان لهم الفضل فى نشر اللسان العربى وتوسيع دائرته وعلومه وآدابه

ومن أركان هذه النهضة فى سورية الشيخ ناصيف اليازجى وابنه الشيخ ابراهيم والدكتور فنديك المتعرب الأمريكانى واحمد فارس وأديب اسحاق وغيرهم

(٢) ازدياد عدد المستعربين بأوربا والشرق وسعيهم المتواصل فى ايجاد المطابع العربية وطبعهم فيها نفائس كتب العرب وعنايتهم بطبعها وتنقيحها. وانشاء الجمعية

الأسيوية الباحثة فى أحوال الشرق وعلومه؛ وتعد مجلتها الأسيوية من كنوز العلم والأدب

(٣) ايجاد المدارس النظامية المتعددة التى أنشأها المغفور له محمد على باشا بمساعدة الأساتذة الأوربيين ثم علماء المصريين، والمدارس التى أنشأها المغفور له الخديو اسماعيل وأعظمها خدمة للعربية وآدابها مدرسة دار العلوم التى أنشئت فى زمنه باقتراح رجل مصر وعالمها المرحوم على مبارك باشا فتخرج فى هذه المدرسة مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتاب الدواوين، وتربى على أيديهم إما مباشرة أو بواسطة جميع مُتعلمى العصر الحاضر وفيهم أفاضل الامة من محرريها وكتابها وقضاتها ومحاميها وشعرائها، ولا يغمطها هذه الفضيلة الأكل جاحد مكابر، ويكفى دليلاً على اثبات هذا الفضل لها ما أورده حكيم المصريين الأستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده فى تقريره عن الامتحان النهائى للمدرسة الذى رأسه سنة ١٩٠٤ قال: « وانى أنتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة فى نفسى وما أعتقده من منزلتها فى البلاد المصرية ومن اللغة العربية. ان الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية واهمال أهلها فى تقويمها ويوجهون اللوم الى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة، فإن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان ووجدها تحيا فى هذا المكان، وإن أوّل فضل فى تقدم اللغة العربية بتسهيل طرق تناولها وتأليف بعض الكتب المفيدة للمتعلمين فى المدارس الابتدائية كان للمتخرجين منها، ثم هم أساتذة المدارس الابتدائية والثانوية ولا يشك عاقل فى أن تلامذة تلك المدارس يكتبون وينطقون على نمط أقوم مما كان يكتب وينطق عليه أساتذتهم من قبل » اه والفضل كل الفضل فى تأهيل طلاّبها لقبولهم فيها راجع للأزهر الشريف الذى كان ويكون ان شاء الله المورد العذب لطلاّب العربية وفنونها

(٤) البعوث العلمية الذين أرسلهم محمد على باشا ثم اسماعيل باشا الى ممالك أوربا لتلقى العلوم المختلفة، وقد كانت مدد هذه البعوث تصل أحياناً الى ١٢ سنة

(٥) شيوع تعلم اللغات الأجنبية وجعل تعليمها اجبارياً بمصر والشام فى مدارس الحكومة والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة فنشأ من ذلك نقل كثير من المعانى

والأساليب الافرنجية التى يقبلها الذوق العربى فأثرتْ بذلك اللغة وحَصُفَت أفكارُ أهلها واتسعت أغراض القَوْل فى وجوههم ، وترجم منها ألوف الكتب والروايات والمقالات السياسية والعلمية الى العربية ، فاستفاد منها أيضاً من لا يعرف اللغات الأجنبية علماً جمًّا وأدباً غزيراً

(٦) ايجاد المطابع العربية بمصر والشام والقسطنطينية والعراق والهند وتونس وطبعها كثيراً من الصحف السيارة وكتب العلم والأدب؛ ومن أهم الكتب المطبوعة التى جدّدت حياة اللغة والأدب كتبُ المعجمات اللغوية مثل الصحاح والقاموس وشرحه ولسان العرب والمخصَّص، وكتب الأدب مثل الأغانى والعقد الفريد وكامل المبرد والمقامات للحريرى والبديع وأمالى القالى والمرتضَى ودواوين الشعراء والرسائل الكثيرة وأمهات كتب التاريخ كتاريخ الطبرى وابن الأثير وابن خلدون ومقدمته الجليلة ذات الأثر العظيم فى رقى الكتابة فى العصر الحاضر ونفح الطيب ومروج الذهب وغيرها

وأقدم مطبعة عربية وصلت الى الشرق كانت مع اللجنة العلمية التى صحبت حملة بونابرت، ثم أسس محمد على دار الطباعة ببولاق فطبع فيها ألوف الكتب العلمية والأدبية ثم فشت المطابع فى الشام ثم القسطنطينية ثم شرع المصريون فأنشئوا مطابع كثيرة كان لها أعظم فضل فى نشر الكتب المتداولة الآن

(٧) انشاء الصحف والمجلات العربية بمصر والشام والقسطنطينية وأوّل صحيفة عربية هى الوقائع المصرية التى أسست سنة ١٨٢٨ وحرر أوّل اعدادها باللغة التركية ثم حررت فصولها بالعربية والتركية ثم اقتصر فيها على العربية وتصدر نسخة منها بالفرنسية . ومن محررى الوقائع الشيخ العطار ، والشيخ شهاب ، والشيخ رفاعه ، والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان

ومن أوّل الجرائد التى ظهرت فى مصر بعد الوقائع جريدة وادى النيل لأبى السعود افندى ثم تلتها جرائد أخرى بعضها باق الى الآن ، وأوّل جريدة عربية ظهرت فى سوريا الأخبار الصادرة فى سنة ١٨٥٨ وفى القسطنطينية الجوائب لأحمد فارس سنة ١٨٦٠

(٨) تنظيم التقاضى والترافع منذ انشاء المحاكم الأهلية ونشأ عن ذلك صناعة مستقلة أداتها فصاحة اللّسان وقوة الحجة فى الخصومة : وهى صناعة المحاماة ونشأ بجانبها نظير لها فى مناصب المحاكم هى مرافعة وكلاء النيابة فى اثبات التهم واستتبع كلاهما الاجادةَ فى تحرير القضاة صُوَرَ الأحكام ووجدت لغة قانون قضائية اكسبت العربية ثروة عظيمة

(٩) حدوث الأندية والجمعيات العلمية والأدبية لإلقاء الخطب والمحاضرات وللسيد جمال الدين الافغانى الفضل فى احداثها بمصر

(١٠) حدوث فن التمثيل باللغة العربية – وأوّل ما ظهر فى الشام ثم انتشر فى مصر، بيد أنه لم يُؤدِّ الغرض المطلوب منه لجهل اكثر الممثلين صناعته وضعفهم فى العربية الفصيحة وسوء اختيار القصص الممثلة

(١١) احداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول عليها شرطاً فى خدمة الحكومة ، والاحتراف بالحرف العلمية كالطب والهندسة والمحاماة

(١٢) تنظيم التعليم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية وادخال كثير من العلوم الحديثة بين مواد دراستها؛ وللشيخ محمد عبده جليل الفضل فى اقتراح هذا الاصلاح الذى جعل مساعدة الأزهر بالمال والآراء السديدة وضمان مستقبله موضوع عناية حكومتنا السنية – هذا وقد سبقت مصر والشام غيرهما من البلاد العربية ثم اقتفى أثرهما العراق والحجاز واليمن والهند وتونس

النثر

المحادثة أو لغة التخاطب

كانت العامية فى أوائل هذه العصور غاية فى الانحطاط ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين دخل فى عباراتهم كثير من الفصيح وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين وبعض النساء، ومما ساعد على ذلك أيضاً جعل التقاضى باللغة الفصيحة وكثرة

الصحف والمجلات والروايات وترقى الزجل والمواليا والواو [1] وبلغ الزجل فى عصر اسماعيل باشا وتوفيق باشا غايته ، ومن أشهر رجاله المرحوم محمد عثمان جلال بك ، والمرحوم السيد عبدالله النديم ، والمرحوم الشيخ محمد النجار ، والمرحوم الشيخ أحمد القوصى وغيرهم الاَّ أنهُ أخذ يضمحل فى عصرنا هذا بغلبة الشعر الفصيح عليهِ وترفع كبار الرجال عن استماعه

الخطابة

كان المصريون والسوريون أوائلَ هذا العصر لا يستعملون الخطابةَ فى غير الأغراض الدينية ، ثم اتسعت دائرة الأفكار فى عصر اسماعيل باشا ، وصادفَ ذلك مجىء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر ، والتف حوله كثيرٌ من الأزهريين ولفيف من أُدباء المصريين والسوريين ، فأدخلهم فى عداد جمعيته وألف منهم أندية كانوا يتناوبون الخطابة فيها فى الأمور الدينية والأخلاق ، ثم تعدّت ذلك الى الأمور السياسية وانتشرت الخطابة بين شبان مصر وفشَتْ بعد عصر اسماعيل فى زمن توفيق باشا وولدت رجال الثورة العرابية

ومن أشهر خطبائهم السيد عبدالله النديم وكان لا يجارَى فى سرعة البديهة وشدة التأثير فى سامعيه ، ويحسن الخطابة بالفصيحة والعامية والشيخ محمد عبده وغيرهما

ولما أسست الجمعيات والأندية الأدبية بمصر ، شغلت موضعاً عظيماً فى عالم الخطابة وبلغت فى عصرنا هذا مبلغًا عظيماً وأصبحت بها الخطابة فى حال زاهرة لا تقل كثيراً عما كانت عليهِ فى عصور الدول العربية القديمة

الكتابة

الكتابة الخطية

وقف الخط فى سبيل تقدّمه عند الحد الذى رسمته له الطبقة الناشئة فى القرن العاشر والحادى والثانى عشر من خطاطى الترك ، وكل من نشأ بعدهم فانما هو متبع طريقهم وحاذٍ حذوهم

---

(١) هو نوع من الزجل وزنه مثل بحر المجتث (مستفعلن فاعلاتن) أو فاعلاتان أربع مرات واخترع هذا النوع أواخر العصر الماضى وفشا جدًّا فى صعيد مصر صدر العصر الحالى ومنه قول ابن عروس المتصوف

مسكين من يطبخ الفاس	ويريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس	ويريد من لا يريده

وأشهر من نبغ فى العصر الذى نحن بصدد الكلام فيه عبد الله الزهدى وهو الذى خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوى وجدران سبيل والدة عباس باشا الأول بالصليبة بالقاهرة ، ومحمد مؤنس افندى وتخرج عليه وعلى تلميذه محمد جعفر [1] بك جميع خطاطى قطرنا المصرى

الكتابة الانشائية

مضى العصر المتقدم وليس لكتاب الدواوين فى أواخره شأن يذكر لجعل التركية هى اللغةَ الرسمية ، وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير فى الممالك العثمانية الاَّ قليلاً وشرعت تتغير فى مصر الاَّ أنهُ لم يكن تربى بها من فتيان المسلمين من يتولى الكتابة فى مناصب الحكومة ، فكانت مقاليدها فى يد كتبة القبط واشتهر من بينهم المعلم غالى [2]

ثم استخدمت الحكومة رجال البعوث العلمية وتلاميذ المدارس المنشأة بمصر والسوريين فى أعمال الكتابة فتقدمت شيئًا ما . ويعرف ذلك من صورها السقيمة المدرجة فى أعداد الوقائع المصرية لذلك العصر ، ثم لما أُنشئت المدارس النظامية وتولى التدريسَ بها مشايخ الأزهر ثم متخرجو مدرسة دار العلوم نشأت طبقة من كتاب الدواوين رقوا كتابتها . وقد هجر السجع الذى اكثر منهُ الأقدمون الاَّ أن عبد الله باشا فكرى أشهر المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة ألمَّ به فى كثير من مكاتباته الرسمية ومن أهم البواعث على اجتناب زخرف البديع فى الانشاء تعلم اللغة الأجنبية والترجمة عنها لأنها أقرب الى الطبيعة من الطرق الموروثة عن مستعربى الفرس فى العصور الوسطى

أما كتابة التأليف والصحف فأخذت تنحو منحى كتابة ابن خلدون فى مقدمته لانكباب كثير من المدرّسين والقارئين والمحررين على دراستها ومحاكاتها

ولما ولت الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير الوقائع الرسمية والاشرافَ على تحرير الجرائد ، ترقت كتابتها كثيراً ودرجت فى سبيل التقدم الى الآن

---

(١) كان مدرسا للخط بمدرسة دار العلوم وهو الذى كتب حروف المطبعة الاميرية المستعملة الآن (٢) كان رئيسا للكتاب وكاتب سر محمد على باشا وقتل سنة ١٨٢١

كتابة التدوين

كان أكثر الكتب التى ألفت أو ترجمت فى مصر علمية؛ لشدة احتياجها اليها فى تأييد حكومتها وادخال اصلاحات فى زراعتها وماليتها وادارتها وقضائها؛ أما سورية فكانت حالة الأدب فيها فى النصف الأول من العصر الحاضر خيراً منها فى مصر ولكن مصر نهضت فى النصف الثانى واسترجعت حياتها الأدبية وأدخلت دراسة أدب اللغة فى مدارسها وألّف فيه عدةُ كتب، وانحط شأنُ سورية فى العربية ولا سيما بين طوائف النصرانية: لعدول جمعيات البعوث الدينية عن التعليم باللغة العربية الى اللغة الأجنبية فلم ينبغ فى اللغة من السوريين فى السنوات الأخيرة من يضارع سابقيهم

ويعتبر عصرنا الحاضر أزهى عصور العربية بمصر فقد أصبحت قبلةَ العالم العربى ومركز حضارته وبلاغته بمن نشأ فيها: من كبار العلماء والمؤلفين والمترجمين والمهندسين والقضاة والمحامين وكتاب الجرائد والمجلات والخطباء والشعراء والمدرّسين، وسلك العلم فى سيره طريقاً حديثاً غير طريق أهل الأزهر

ومن أشهر العلماء الأزهريين فى هذا العصر الشيخ الجبرتى والشيخ حسن العطار والشيخ العروسى والشيخ التميمى والشيخ الباجورى والشيخ عليش والشيخ الابيارى والشيخ السقا والشيخ الانبابى والشيخ الأشمونى الأخير والشيخ الشربينى وغيرهم

ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة رفاعة بك شيخ المترجمين والمؤلفين وعلى مبارك باشا مؤسس دار العلوم وأشهر المؤلفين المصريين، والنطاسى الشهير محمد على باشا، والسيد صالح مجدى بك، ومحمود باشا الفلكى، واحمد ندا بك، وعبد الله باشا فكرى، وقدرى باشا، ودرّى باشا

رفاعة بك رافع الطَهطاوى

هو الكاتب الشاعر الأديب المترجم السيد رفاعة بك الحسينى الطهطاوى شيخ الترجمة وإمام النهضة الحديثة

وُلد بطهطا من أُسرة شريفة افتقرت بعد غنى فتنقل به والده فى بعض بلاد

مديريته ومديرية قنا بضع سنين تعلم فى أثنائها القرءان الكريم ودرس مبادئ العربية وحفظ كثيراً من المتون على أخواله

ثم توفى والده فتولت والدته تربيته فأرسلته الى الجامع الأزهر فأكمل دراسته فيه، ثم انتخب إماماً لبعض فرق الجيش، ولم يلبث أن اختاره المرحوم محمد على باشا اماماً ومعلماً لأول بعث علمى أرسل الى فرنسا سنة ١٢٤١، فراقته علوم أوربا وعظمتُها فأكب بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها فهماً وانشاء وان لم يجدها نطقاً وارتجالاً، وكتب أثناء اقامته بباريس كتابَ رحلته الى أوربا، وترجم قلائد المفاخر فى غرائب الأوائل والأواخر، فسر بذلك محمد على باشا فلما عاد الى مصر سنة ١٢٤٧ اختاره رئيساً للترجمة بمدرسة أبى زعبل، فترجم بها كثيراً من الكتب والدروس واشترك هو وأُستاذه الشيخ حسن العطار فى اقتراح انشاء الوقائع المصرية وتحريرها ثم نقل الى مدرسة المدفعية (الطبجية) بطره لترجمة الكتب الهندسية، ثم صار مديراً لمدرسة الألسن والترجمة فبلغ عدد تلاميذها ٢٥٠ تلميذاً، تمّ على أيديهم ترجمةُ أكثر مانقل من علوم أوربا الحديثة الى العربية زمن محمد على باشا واسماعيل باشا، ولما أُلغيت مدرسة الألسن زمن عباس باشا الأول، تقلب فى عدة مناصب ثم بقى مدة بلا عمل الى أن أُعيد زمن اسماعيل باشا الى نظارة قلم الترجمة، وانتخب عضواً بلجنة المدارس وتولى ادارة مجلة روضة المجالس، وعكف على الترجمة والتأليف حتى توفى سنة ١٢٩٠ تاركاً لمصر كتباً ورجالاً هم أركان النهضة الحديثة

وقد ألف وترجم رفاعة بك غير ما تقدم كتباً تزيد على عشرين كتاباً، أهمها ترجمة جغرافية (ملطبرون) والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية، والمرشد الأمين فى تربية البنات والبنين

وترجم القانون المدنى الفرنسى، وكتاب هندسة (ساسير)، ورواية تلماك، وكتاب مناهج الألباب المصرية، وله كتب شتى فى الأدب وعلوم العرب وآخر ما ألّفه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز؛ وكان فى ترجمته وتأليفه ينتحى أحياناً طريق السجع، واضطُر لانجاز ما يكلَّفه من الترجمة أن يستعمل بعض الألفاظ التركية أو العامية الشائعة فى زمنه

عبد الله فكرى باشا

هو الكاتب الشاعر الأديب المترجم عبد الله فكرى باشا أحد أركان النهضة الأدبية فى الديار المصرية

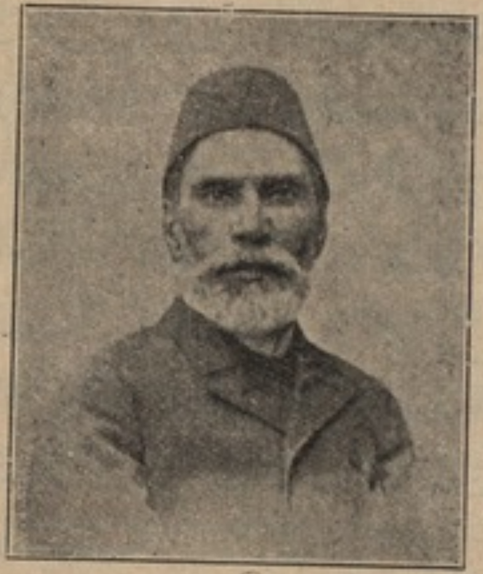

عبد الله فكرى باشا (استعيرت الصورة من الهلال)

وكان أبوه محمد بليغ افندى ضابطاً بالجيش المصرى وهو ابن الشيخ عبدالله أحد علماء الأزهر

ولد سنة ١٢٥٠ وتوفى والده وهو فى سن الحادية عشرة فكفله بعض أقاربه فعلمه القرآن وبعث به الى الأزهر فأكب على تعلم علومه مشتغلاً أيضاً باللغة التركية واستُخدم من أجلها مترجماً للعربية والتركية فى عدة مناصب آلت الى نقله الى حاشية سعيد باشا ثم اسماعيل باشا، فعهد اليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك

ثم تقلب فى جملة مناصب آخرُها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩ وبقى بها حتى زمن الثورة العرابية فسقط مع الوزارة، واتّهم فى الثورة فقبض عليه ثم اتضحت براءته فأطلق وردّ اليه معاشه بعد أن استعطف الخديو توفيقاً بقصيدة طويلة وتوفى سنة ١٣٠٧

وكان فكرى باشا كاتباً بليغاً سلك فى كتابته طريقة كتاب القرن الرابع كالبديع الهمذانى والخوارزمى: من التزام السجع القصير القليل التكلف للمحسنات البديعية

فى أكثر رسائله الصادرة عن القصر والنظارات، وبذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفى مدرس الأدب والعربية بدار العلوم (لو تقدم به الزمان لكان فيه بديعان، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان) ويعدّ عبد الله فكرى من واضعى الاصطلاحات والألفاظ الديوانية المصرية الحديثة، وبعضها مقتبس من اصطلاح دولة المماليك، وله شعر وسط فى الجودة، ومن كتابته ما كتب به وصاية بشخص قال بعد الديباجة

رافعُ هذا الرقيم، الى حِمَى المقامِ الكريم، يذكُرُ أنّ مسألته طال فيها المَدَى، وبقى فى انتظارها على مثل رُءوس المُدَى، ويشكو من الفقر المُدقع، والضرّ المُضْجع ما أخرجَ صدرَه، وأخرج عنهُ صبرَه، وأشرف به على اليأس، والاستسلام لمخالب اليأس، لولا أمل من مولاى يُبقى على حوْبائه، وينشرُ تذكارُه ميتَ رجائه، وله فى سيدى ثناء يبارى نفحاتِ الأزاهر، ويَبقى على صفحات الدهر الداهر، ثم هو بَقيَّةُ بيت حفظت الأيامُ نسبهُ، وان أضاعت حوادثُها نَشَبهُ، وهو أولى من تَعطِف عليه عواطفُ كرمه، وتنعطف اليه جياد هممه، وأرجو أن يُحقق مولاى فى تلك الشيم الكريمة ما أمله، وأهدى من الثناء أتمّه وأكمله

علىّ مبارك باشا

هو أبو المعارف المصرية العالم المؤرّخ المؤلف المترجم المربى العظيم على بن مبارك ابن سليمان بن ابرهيم، مصلح العلم والادارة بالديار المصرية، ومؤسس دار العلوم ودار الكتب السلطانية

ولد سنة ١٢٣٩ بقرية برمبال الجديدة من مديرية الدقهلية، وكان والده الشيخ مبارك من أهل الفقه والعلم ببلده فضاق به العيش فانتقل الى مديرية الشرقية وشُغِلَ بالمعاش عن تربيته بنفسه فكان يرسله الى معلّم قاسٍ يتعلّم عليه القرآن الكريم فحفظهُ وهرب من المعلم لقسوته وضَرْبه. وأخذ يتعلم الكتابةَ على بعض كتاب المراكز والقرى، وبفرّ من قسوة هذا الى ظلم ذاك، حتى عثر فى بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين الى مدرسة أبى زعبل فصحبهم ودخل المدرسة

على مبارك باشا

ثم اختير فى جملة من تلاميذها الى مدرسة قصر العينى وسنه ١٢ سنة ، ودرس الرياضة فبرع فيها فاختير طالبًا بمدرسة الهندسة فأكمل فى خمس سنوات درْس فن الهندسة وأرسل الى أوربا سنة ١٢٦٠ ليتم دراسته بها ، فمكث نحو أربع سنوات درس فيها فن الهندسة والحرب ، ثم عاد الى مصر ضابطًا بالجيش ، ثم قدَّم لعباس باشا الأول مشروعًا بنظام المدارس المصرية فأعجبه وعهد اليه رياسة ديوانها فقام به خير قيام ، وألف بعض الكتب الدراسية فكان أوّل من نظم المدارس المصرية ؛ وفى زمن سعيد باشا وُشِىَ به اليـه فساء حظه وبُعِثَ الى البلاد العثمانية فى الحملة التى وُجهت لمحاربة روسيا فعاد منها بعد أهوال ، وبقى يعتزل الخدمة طورًا ويخدم آخر

ويتجر أحيانًا ويعلم أُخرى حتى كان زمن اسماعيل باشا فألحق بحاشيته وتقلد عدة مناصب هندسية جرى على يده فيها عظيم الأعمال

ثم عيّن سنة ١٢٨١ وكيلاً لديوان المدارس وسافر الى فرنسا لمهمة فأحسن أداءها وأنعم عليه برتبة الباشا (الميرميران) وتزاحمت عليه المناصبُ فكان مديرًا للسكك الحديدية وناظرًا للمعارف وللأشغال وللأوقاف والقناطر الخيرية فقام بذلك جميعًا فى آن واحد خيرَ قيام

ومن أعماله العظيمة انشاء دار الكتب باقتراح عبدالله باشا فكرى ، وانشاء مدرسة دار العلوم ليُوفِّقَ بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ، ويحسّن تعليم العربية فجاءت هذه المدرسة بأحسن ما يطلب منها . وتجديدُ مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر بانشاء شوارعها وميادينها العظيمة وانشاء كثير من الترع والجسور كترعة الابراهيمية والاسماعيلية

وبقى ينقلب فى النظارات ووكالتها حتى جاءت الثورة العرابية فكان من شيعة توفيق باشا ، ثم قلد نظارة المعارف وغيرها حتى اعتزل الأعمال قبيل وفاته وتوفى سنة ١٣١١

وله مؤلفات جليلة منها الخطط التوفيقية وكتاب علَم الدّين وكتاب نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر ، وكتاب الميزان فى الأقيسة والأوزان ، وكتاب الهجاء والمسامرات وغيرها

الشيخ محمد عبده

هو المصلحُ الكبير والمجتهد الخطير والكاتب البليغ والخطيب المصقع الأستاذ الامام الحكيم الشيخ محمد عبده أحد أركان النهضة العربية ومؤسسى الحركة الفكرية

ولد سنة ١٢٦٦ باحدى قرى مديرية الغربية ونشأ بين أُسرته بمَحلة نصر من مديرية البحيرة وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنُّه العاشرة ثم رغب فى التعلّم فحفظ القرءان الكريم ، وطلب العلم بالجامع الأحمدى ، ثم انتقل الى الأزهر ونبغ فى علومه

ولما قدم مصر السيد جمال الدين الافغانى سنة ١٢٨٦ وأعاد الى مصر دراسةَ الفلسفة وعلوم الحكمة والكلام بعد نُضُوب معِينها عدَّةَ قرون ، لزِمه المترجَمُ هو وطائفةٌ

الشيخ محمد عبده (استعيرت الصورة من الهلال)

من نابغي الأزهر كانوا يُعَدُّون ألسنةَ الفصاحة وأئمةَ الحركة الفكرية ، وكان الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه، وأحرصهم على ملازمته والاستفادة منه، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ واختير سنة ١٢٩٥ مدرّساً للأدب والتاريخ العربي بدار العلوم ومدرسة الألسن، ثم فصل منها ولزم بلده الى أن أشير على رياض باشا باختيار المترجَم لاصلاح لغة الوقائع المصرية ثم صار رئيس تحريرها ، وفى هذه المدة جعله رياض باشا مراقبًا على كتابة الجرائد وتحريرها

وحدثت عقب ذلك الثورةُ العرابية فاشترك فيها ونُفِي من مصر فذهب الى سورية وتولى التدريس بمدارسها، ثم انتقل الى أوربا فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس فأنشأ جريدة العروة الوثقى . ثم عاد الى مصر ورضى عنه الخديو توفيق باشا فعيّن قاضيًا بالمحاكم الأهلية، وبقى مدة طويلة مثالاً للعدل الى سنة ١٣١٧ فأسند اليه منصِب افتاء الديار المصرية ، وتولى التدريسَ بالأزهر ، وما زال كذلك حتى توفى

سنة ١٣٢٢ . وكان رحمه الله من خير مَن ظهر فى مصر من شيوخ العلم منذ قرون عديدة . ويعتبر باجتهاده فى كثير من مسائل العلم من أئمة الدين كما يعتبر بكتابته البليغة من فحول الكتاب . وله القدم الراسخة فى كتابة الجدل والنقد، ولم يترك الشيخ كاستاذه كثيراً من المؤلفات لكثرة مشاغله بالمناصب العلمية والادارية ولمعاكسة الزمان له فى أكثر حياته. ومن مؤلّفاته رسالةُ التوحيد، وشرح نهج البلاغة، وشرح مقامات بديع الزمان . وأملى تفسير سورة البقرة وآل عمران والنّساء بطريقة لم يسلكها مفسر فى انطباقها على مقاصد الاسلام وتفسير جزء عمّ . وله رسائلُ بليغة منها ما كتب به من مصر الى بعض الأصدقاء الفضلاء، قال فيه :

وتناولتُ كتابَك ولم يُذكِّرْ منّى ناسياً، ولم ينبّه لذكرك لاهياً . فانّى من يوم عرفتُك لم يغب عنّى مثالُك، ولا تزال تمثل لى خلالُك، ولو كشف لك من نفسك ما كُشِفَ منها لى لفُتِنْتَ بها ولحُقَّ لك أن تَتِيهَ على الناس أجمعين، ولكن سترَ الله عنك منها خيرَ ما أودَعَ لك فيها لتزينَها بالتواضع وتُجَمِّلها بالوَداعة، ولتسعى الى ما لم يبلغه ساع ، فتكون قُدوةً لاخوانك فى علوّ الهمّة ، وبذْل ما يعزّ على النفس فى نفع الأمة ، زادك الله من نعمه ، وأوسع لك من فضله وكرمه ، ومتّعنى بصدق وَلائك ، وجعلك لى عونًا على الحق الذى أدعو اليه ولا أحيا الآ به وله والسلام

الشعر

كانت حالة الشعر فى النصف الأوّل من هذا العصر لا تزيد شيئًا مذكوراً على ما كانت عليه فى العصر الماضى ؛ اذ كانت حكومة محمد على باشا فى أوّل أمرها تركية الصِّبغة ، وكان هو أُمِّياً لا يحل عنده الأدبُ محلَّ العلم الذى عليه مدارُ تأسيس المملكة ولكنَّ الشعر أخذ بعد ذلك فى الترقى، وسارت مصر فى طريقه وانتشرت بينها العربية حتى زمن اسماعيل باشا وكان هو أديبًا وعصره غاصًّا بالأدباء فتقدم الشعر فى عصره خطوات تمثلت فى شعر السيد على أبى النصر والشيخ على الليثي وعظيم الشعراء البارودى

ولم يزل العلم والعلماء مع ذلك لهم المقام الأوّل فى مصر حتى كان العصر الحاضر ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكُتبه فهبَّ أهلُه يتفكهون بالأدب وكتابته والتأليف فيه ويستمعون الشعر ويحضرون المجامع العظيمة لانشاده، فأقبل الشعراء على نظمه فى كل أغراضه القديمة والحديثة ونحوًا به نحو الشعر الفرنجى: من وصف المناظر الطبيعية، وأحوال الوجْدان والعواطف النّفسية، وكثير من الشعراء لم يحاكِ القدماء فى نَدْب الديار ووصف الظعائن وحث المطايا مستغنيًا عن ذلك بوصف القطار والكهرباء والمِسرّة والبرق. ويقول الآنَ الشعر على هذه الطريقة مئات من الشعراء فى مصر والشام والعراق الاّ أن المصريين سبقوا السوريين بمراحل فى هذا العصر

ومما يمتاز به شعرُ هذا الوقت خلوُّه من تكلف البديع والجناس، والرجوع به الى حالته القديمة الطبيعية حتى صار شعر فحوله يشبه شعر أهل القرن الرابع والخامس

الشعراء

شعراء هذا العصر كثيرون وانك لترى شعرهم منشوراً فى الصحف والمجلات، وان سابق حلبتهم وقائدهم فى هذا العصر محمود باشا سامى البارودى وهاك ترجمته

البارُودى

هو رب السيف والقلم أمير الشعراء وشاعر الأمراء محمود سامى باشا بن حسن حسنى بك البارودى أحد زعماء الثورة العرابية وأشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية وُلد سنة ١٢٥٥ وتولى أبوه تربيته حتى اذا بلغ سبع سنين توفاه الله وكفله ذوو قرابته حتى بلغ الحادية عشرة فأُدخِلَ المدرسةَ الحربية فتعلم فنون العسكرية ورُقِّىَ منها ضابطًا بالجيش وما زال يترقى فيهـا حتى كان أحد ضباط الحملة التى أمدَّتْ بها مصرُ الدولةَ العلية أثناء ثورة البلقان وإقريطش، وكان له فى مواقعها الحربية شهرةٌ ذائعة، ورجع الى مصر فتقلب فى مراتب الجيش وغيرها حتى ولاّهُ المرحوم الخديو توفيق باشا نظارتى الحربية والأوقاف، ثم استقال منهما واعتزل العمل حتى وُلّى رياسة النظار قبيل الثورة العرابية، فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤها

محمود سامى باشا البارودى

على اصطلاء نارها فخبَّ فيها ووَضَع. وحكم عليه بعد انقضائها بالنفى الى جزيرة سرنديب (سيلان) حتى عمى وشُفع فيه فأذِن له بالقدوم الى مصر بعد مضى ١٧ سنة من منفاه وبقى فى منزله كفيفًا يشتغل بالأدب الى أن مات سنة ١٣٢٢

وقد عانى نظم الشعر من صغره بدون معلّم ولا تخريج فى العروض والقافية بله النحوَ والصرف والبلاغةَ بل كان ينظمهُ محاكاةً ومعارضة لشعر الأقدمين فحفظ من كلامهم كثيراً، ونسج على منواله، ولذلك صدر شعره فى رتبة شعر فحول القرن الثالث والرابع خاليًا من تكلف البديع، ضخم المعانى، جزل الألفاظ، متين الأسلوب؛ وخير ما صدر عنه أيام شبابه وأثناء محنته؛ ثم ضعف شعره قبيل وفاته لكلال ذهنه وخمود قريحته؛ وله شعر كثير جمع فى ديوان وطبع منه جزءان

شعره

ومن قوله :

والدهر كالبحر لاينفك ذا كَدَر   وانما صفوه بين الورى لُمَعُ
لو كان للمرء فكر في عواقبه   ما شان أخلاقَه حرص ولا طمع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدَث   من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يَغُرّ وآمال تَسُرّ وأعمار تمرّ وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأُمور قد تضرُّبه   وليس يعلم ما يأتى وما يدع
يأيها السادر المزورُّ من صلف   مهلاً فانك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت لهُ   لعلّ قلبك بالايمان ينتفع
ان الحياة لثوب سوف تخلَعُه   وكل ثوب اذا ما رثّ ينخلع

ومن قوله وهو آخر ما قاله :

أنا مصدرُ الكَلِم البوادى   بين المَحاضر والنوادى
أنا فارسٌ أنا شاعر   فى كلّ مَلحمَة ونادى
فاذا ركبتُ فإننى   زَيْدُ الفوارس فى الجِلاد
واذا نَطقتُ فإننى   قُسُّ بنُ ساعِدة الإيادى

﴿ والحمد لله أولاً وآخراً ﴾

فهرس

كتاب الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه

صفحة	
٢	فاتحة الكتاب
٣	تعريف التاريخ والأدب واللغة العربية
٣	نشأة اللغات (هامش)
٦	جدول العرب العاربة والبائدة
٧	جدول العرب المستعربة
٨	جدول نسب قريش
٩	مصور جزيرة العرب قبيل الاسلام
٩	عصور اللغة العربية وآدابها
١٠	العصر الأوّل عصر الجاهلية
١٠	حالة اللغة وآدابها فى عصر الجاهلية
١٢	اختلاف لهجات العرب
١٤	كلام العرب
١٧	أغراض اللغة فى الجاهلية
١٧	معانى اللغة فى الجاهلية
١٨	عبارة اللغة فى الجاهلية
١٩	تقسيم كلام العرب
١٩	النثر وتقسيمه الى محادثة وخطابة وكتابة
٢٠	المحادثة أو لغة التخاطب
٢١	الخطابة
٢٤	قس بن ساعدة
٢٥	اكثم بن صيفى
٢٦	الكتابة
٢٨	جدول يبين كيفية اشتقاق الحروف الهجائية على رأى العرب
٣٠	علوم العرب وفنونها
٣٤	النظم - الشعر والشعراء
٣٤	الشعر
٣٨	أغراضه فى الجاهلية
٤٢	معانيه وأخيلته فى الجاهلية
٤٣	ألفاظه وأسلوبه
٤٣	أوزانه وقوافيه
٤٤	الشعراء
٤٥	طبقات الشعراء
٤٦	امرؤ القيس
٥٢	النابغة الذبيانى
٥٥	زهير بن أبى سلمى
٥٩	عنترة العبسى
٦١	عمرو بن كلثوم
٦٣	طرفة بن العبد
٦٦	أعشى قيس
٦٩	الحارث بن حلزة
٧٢	لبيد بن ربيعة

صفحة
٧٦ الرواية والرواة
٧٧ العصر الثانى عصر صدر الاسلام ويشمل بنى أمية
٧٧ حالة اللغة وآدابها فى صدر الاسلام
٧٩ مصور الدولة العربيـة والبلاد التى خضعت لسلطانها
٨٢ القرءان الكريم وأثره فى اللغة
٨٢ اعجاز القرءان (هامش)
٨٤ جمع القرءان وكتابته
٨٦ الحديث النبوى
٨٧ النثروتقسيمه الى محادثةوخطابةوكتابة
٨٧ لغة التخاطب
٨٨ الخطابة
٩١ الخطباء
٩٢ أبو بكر الصديق
٩٣ عمر بن الخطاب
٩٥ عثمان بن عفّان
٩٦ على بن أبى طالب
٩٨ سحبان وائل
٩٩ زياد بن أبيه – ١٠٢ الحجاج
١٠٦ الكتابة الخطية
١٠٧ صورة كتاب النبى عليـه الصلاة والسلام للمقوقس
١٠٨ صورة كتاب قديم خال من النقط
١١٠ صورة نموذج من المصحف مضبوط بضبط أبى الأسود

صفحة
١١١ الكتابة الانشائية
١١١ كتابة الرسائل والدواوين
١١٢ مميزات الكتابة الانشائية
١١٤ الكتّاب
١١٤ عبد الحميد الكاتب
١١٦ التدوين والتصنيف
١١٨ الشعر والشعراء فى هذا العصر
١٢١ أغراض الشعر وفنونه
١٢٢ معانيه وأخيلته
١٢٢ ألفاظه وأسلوبه
١٢٢ أوزانه وقوافيه
١٢٣ الشعراء – كعب بن زهير
١٢٥ الخنساء
١٢٨ الحطيئة
١٣٠ حسان بن ثابت
١٣٢ النابغة الجعدى
١٣٥ عمر بن أبى ربيعة
١٣٧ الأخطل
١٤٠ الفرزدق
١٤٣ جرير
١٤٦ الكميت
١٥٠ الرواية والرواة
١٥١ العصر الثالث عصر الدولة العباسية
١٥١ أحوال اللغة وآدابها فى الدولة العباسية
١٥٢ أغراض اللغة
١٥٤ المعانى والأفكار

صفحة
١٥٤ الألفاظ والأساليب
١٥٦ النثر – والمحادثة
١٥٧ الخطابة
١٥٨ الخطباء – داود بن على
١٥٩ شبيب بن شيبة
١٦١ الكتابة الخطية
١٦٣ نموذج من القرءان مضبوط بضبط الخليل وأبى الأسود
١٦٤ ابن مقلة
١٦٥ الكتابة الانشائية
١٦٥ كتابة الرسائل الديوانية والاخوانية
١٦٨ الكتاب – ١٦٩ ابن المقفع
١٧٣ ابراهيم الصولى – ١٧٥ ابن العميد
١٧٧ الصاحب بن عباد
١٧٨ أبو بكر الخوارزمى
١٨٠ بديع الزمان الهمذانى
١٨١ ابن زيدون
١٨٣ القاضى الفاضل
١٨٤ التدوين والتصنيف
١٨٥ كتابة التدوين والتصنيف
١٨٦ العلوم اللسانية ونشأتها
١٨٦ الأدب – ١٨٧ الجاحظ
١٨٩ احمد بن عبد ربه
١٩٠ الحريرى
١٩١ التاريخ
١٩٢ العروض والقافية

صفحة
١٩٢ النحو – ١٩٣ علم اللغة
١٩٤ علوم البلاغة
١٩٥ الخليل بن احمد
١٩٦ سيبويه – ١٩٧ الكسائى
١٩٧ العلوم الشرعية – التفسير
١٩٨ الحديث
١٩٩ البخارى
٢٠٠ علم الفقه
٢٠٠ أبو حنيفة النعمان
٢٠١ الامام مالك
٢٠٢ الامام الشافعى
٢٠٣ الامام احمد بن حنبل
٢٠٤ علم الكلام
٢٠٤ أبو الحسن الأشعرى
٢٠٥ الغزالى
٢٠٦ نشأة العلوم الكونية المنقولة وترجمتها وأشهر المترجمين
٢٠٩ الشعر
٢١٠ فنون الشعر وأغراضه
٢١٢ معانى الشعر وأخيلته
٢١٢ لفظ الشعر وأسلوبه
٢١٢ أوزان الشعر وقوافيه
٢١٣ الشعراء
٢١٣ بشار بن برد
٢١٥ أبو نواس
٢١٧ مسلم بن الوليد

صفحة
٢١٨ أبو العتاهية
٢٢٠ أبو تمام – ٢٢٣ البحترى
٢٢٥ ابن الرومى
٢٢٧ ابن المعتز
٢٢٩ المتنبى
٢٣٢ ابن هانئ الأندلسى
٢٣٤ أبو العلاء المعرى
٢٣٧ ابن خفاجة الأندلسى
٢٣٨ الرواية والرواة – ٢٤٠ الأصمعى
٢٤١ العصر الرابع عصر المماليك التركية
٢٤١ حال اللغة وأدبها فى ذلك العصر
٢٤٢ النثر – لغة التخاطب
٢٤٣ الخطابة
٢٤٣ الكتابة الخطية
٢٤٤ نموذج من القرءان بالخط الريحانى
٢٤٥ الكتابة الانشائية – كتابة الرسائل
٢٤٦ الكتّاب – محيى الدين بن عبد الظاهر
٢٤٧ شهاب الدين بن فضل الله
٢٤٨ لسان الدين بن الخطيب
٢٥٠ التدوين – الأدب
٢٥١ بقية العلوم الاسلامية
٢٥٢ كتابة التدوين والتصنيف

صفحة
٢٥٢ ابن خلكان
٢٥٣ ابن خلدون
٢٥٥ جلال الدين السيوطى
٢٥٦ الشعر – ٢٥٨ الشعراء
٢٥٩ البوصيرى
٢٦٠ صفى الدين الحلى
٢٦٢ ابن نباتة – ٢٦٣ ابن معتوق
٢٦٥ العصر الخامس عصر النهضة الأخيرة
٢٦٥ حالة اللغة وآدابها فى هذا العصر
٢٦٥ صورة محمد على باشا
٢٦٧ صورة رجال البعثة العلمية الى أوربا
٢٧١ النثر – لغة التخاطب
٢٧٢ الخطابة
٢٧٢ الكتابة الخطية
٢٧٣ الكتابة الانشائية
٢٧٤ كتابة التدوين
٢٧٤ رفاعة بك الطهطاوى
٢٧٦ عبد الله باشا فكرى وصورته
٢٧٧ على مبارك باشا – ٢٧٨ صورته
٢٧٩ الشيخ محمد عبده – ٢٨٠ صورته
٢٨١ الشعر – ٢٨٢ الشعراء
٢٨٢ البارودى – ٢٨٣ صورة البارودى

١/٥٠٠٠/١١/١٩١٩